# أقدار الحياة

## (Destinies of Life)

تأليف


**البروفيسورة أسبي كبير عثمان**

جامعة عثمان بن فودي صكتو


ترجمة


**الدكتور إلياس عثمان**

قسم الدراسات العربية

جامعة ولاية نصراوا كيفي

# أقدار الحياة

# (Destinies of Life)

تأليف

البروفيسورة أسيي كبير عثمان

جامعة عثمان بن فودي صكتو

ترجمة

الدكتور إلياس عثمان

قسم الدراسات العربية، جامعة ولاية نصروا – كيفي

نيجيريا

الطبعة الأولى

**حقوق الطبع محفوظة للمؤلف**

**الكتاب**: أقدار الحياة (Destinies of Life)

**المؤلف**: الدكتور إلياس عثمان

**الناشر**: مطبعة الممتاز التجارية – نيجيريا

الطبعة الأولى

مطبعة الممتاز للنشر والتوزيع

2015م

*08035618331,08079707484,08061593238*

**ISBN:**

**978-194-987-1**

تنسيق العمل وتصميم الغلاف

موسى أحمد عيسى (أبو بسمة)

## الإهداء

إلى رُوحِ شَيْخِي ومُرَبِّيَّ، الأُسْتَاذ محمد سليمان أَلِيلِي الَّذِي سَقَانِي اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ السُّقْيَةَ الأُولَى وحَبَّبَهَا إِلَيَّ وضَحَّى بِحَيَاتِه وبكلِّ ما هو نفيسٌ عنده رغبةً فى نشر الثقافة الإسلامية والعربية فى منطقةِ إِنْسُوكَ بولاية إِنُوغُ، نيجيريا. وهى منطقةٌ ذاتُ أغلبيَّةٍ مَسِيحِيَّةٍ. يَقْطُنُ فيها قبيلةُ إِيبُو التى أَنْحَدِرُ منها. فلمَّا عادَ مِن لِيبِيَا، كَرَّسَ حَيَاتَهُ لِخِدْمَةِ الدِّينِ واللُّغَةِ. فَأَقَامَ فِي المنطقةِ وقَدْ هَجَرَ مِن إِقْلِيمِ الشَّمَالِ النَّيْجِيرِيِّ الَّذِى يَنْحَدِرُ مِنْه؛ بُغْيَةَ إِعْلاَءِ كَلِمَةِ اللَّهِ. فَجَرَى وَعْظُهُ وإِرْشَادُهُ بَيْنَ مُسْلِمِي المنطقة كما يَجْرِى النُّورُ فِي الظُّلْمَةِ. ولاَ يَسَعُنِي إِلاَّ أَنْ أَسْأَلَ اللَّهَ المَنَّانَ أَنْ يُسْكِنَهُ بُحْبُوحَةَ جِنَانِهِ جَزَاءً لِجُهْدِهِ الجَبَّارِ الَّذِى لاَ يُقَدَّرُ بِثَمَنٍ وأَنْ يُلْحِقَ بِهِ ذريتَه دُونَ أَنْ يَحْرِمَهُمْ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا. إِنَّهُ وَلِيُّ ذلك و بِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ.

Aqdaaru Al-Hayati

(Destinies of Life)

First Edition

2015

**ISBN:**

**978-194-987-1**

© *All Rights Reserved.*

*No Part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronics or mechanical, including photocopying, recording or otherwise, without the prior permission of the Author who is the copyright owner.*

*Printed By:*

Al Mumtaz Publishers.

No. 10B, Opp. NTA Keffi.

Beside NNPC Kaduna Road.

Nasarawa State.

08035618331.08079707484

كما لا يفوتني أن أُزجيَ جميلَ شكْرِي إلى جَميعِ أساتِذَةِ قِسْمِ الدِّرَاسَاتِ العَرَبِيَّةِ، جامعة ولاية نصراوا، كيفي، على توجيهاتِهِم القيِّمةِ وجهودِهم الجبَّارةِ تجاهَ تحقيقِ هذا الهدفِ.

وَمِمَّنْ لنْ أَنْسَى أَنْ أَشْمَلَهُم بشكري الخالصِ الأستاذُ يوسفُ عبد اللهِ، رئيسُ قسمِ اللغةِ العربيةِ بكليَّةِ التربيةِ الفدراليةِ بِكُنْتَغُرَا والقاضي بَشيرُ مَاحي الغُسَوِيُّ بولاية زَنْفَرَا اللذين لا أزالُ أعتزُّ بدورِهما في تكوينِ شخصيَّتِي العربيةِ. فجزاهما اللهُ خيرَ الجزاءِ وأسكنَهما وذرياتِهمَا بُحْبُوحَةَ جِنَانِهِ.

كما يسرني أن أتَفَضَّلَ بخَالِصِ شُكْرِي إلَى مَامْ جَعْفَر الكَفَوِيِّ الذي جادَ بأوقاتِهِ النفيسةِ في طَبْعِ هَذَا الْكِتَابِ. فَجَزَاهُ اللهُ خَيْرَ مَا جَزَى بِهِ العبدَ العامِلَ على إحياءِ هذه اللغةِ.

وأخيراً، يَسُرُّنِي أنْ أشْكُرَ أُسْرَتِي على ما صَبَرُوا وقتَ إعدادِ هذا الكتابِ وحِرْمَانِهِمْ العِنايةَ اللائِقَةَ بهمْ نَتِيْجَةَ انْهِمَاكِي فِي العملِ على إخراج هذا الكتابِ. فجزَاهُمُ اللهُ جزاءَ الصابِرِينَ، وَجَمَعَنَا جَمِيْعًا في رياضِ جِنَانِهِ. آمينَ.

## كلمة الشكر

أولاً وقبل كلِّ شيءٍ أحمدُ اللهَ سبحانه وتعالى الذي حَبَّبَ إليَّ اللُّغةَ العَرَبيَّةَ وجعلها مِنْ أَعَزِّ ما أَفْتَخِرُ به في حياتي المادِيَّةِ والرُّوحِيَّةِ. والصلاة والسلام على رَسُولِ اللهِ مُحَمَّدٍ سَيِّدِ العَرَبِ والعَجَمِ وعلى آله وصحبه وسلم وبعد:

فإنَّ أزكى كلمات التَّقْدِيرِ والعِرْفَانِ إلى الأخ الأستاذ يعقوب داود الذي شَجَّعَنِي وألحَّ عليَّ أن أُعَرِّبَ هذه الرِّوَايَةَ من الإنكليزيَّةِ تَعْمِيمًا للفَوَائِدِ الأخلاقيَّةِ التي يَزْخَرُ بِهَا الكتابُ، وأَنْفَقَ في سبيلِ تحقيقِ هذا الهدفِ كلَّ غَالٍ ورخيصٍ. فجزاهُ اللهُ أفضلَ ما جَزَا بِهِ العبدَ الغيُورَ على لغةِ الإسلام.

كما أُزْجِي أَخْلَصَ شكري إلى جميعِ أساتذةِ اللغةِ العربيةِ بجامعة عثمان بن فوديو الذين كانوا ولا يَزَالُونَ يَسْهَرونَ على إحياءِ هذه اللغةِ التي تعيشُ في بيئةٍ خَانِقَةٍ وتَتَلَقَّى معاملةً سيئةً مِنْ مُوَاطِنِي هذِهِ الدَّوْلَةِ نتيجةً للهَيْمَنَةِ الاستعْمَارِيَّةِ والظُّروفِ العدائيَّةِ التي يعيشُها أبناءُ العربِ في عُقْرِ ديارِهم.

الفصل الثاني عشر: ..... 143
الفصل الثالث عشر: ..... 153
الفصل الرابع عشر: ..... 161
الفصل الخامس عشر: ..... 168
الفصل السادس عشر: ..... 176
الخاتمة: ..... 189

# فهرس الموضوعات


الاهداء: ..... هـ

كلمة الشكر: ..... و

فهرس الموضوعات: ..... ح

مقدمة: ..... 1

الفصل الأول: ..... 12

الفصل الثاني: ..... 48

الفصل الثالث: ..... 56

الفصل الرابع: ..... 66

الفصل الخامس: ..... 77

الفصل السادس: ..... 85

الفصل السابع: ..... 93

الفصل الثامن: ..... 98

الفصل التاسع: ..... 111

الفصل العاشر: ..... 117

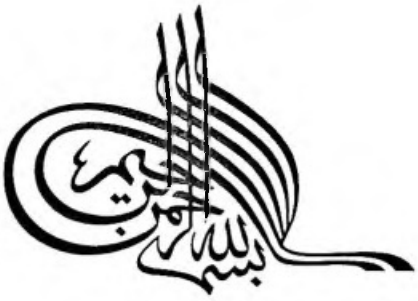
الفصل الحادي عشر: ..... 138

# مقدمة

كانَ الجَنَاحُ نَظِيفًا وفَائِحًا بِرَائِحَةِ مَانِعِ عُفُونَةٍ قَوِيٍّ. وكان الهَوَاءُ نَقِيًّا وخَاليًا مِنَ التَّلَوُّثِ، كما كانَ مُحِيطُ هذه الغُرْفَةِ المَطْلِيَةِ بِالطِّلاَءِ الأَبْيَضِ والمَفْرُوشَةِ بالبَلاَطِ المَصْقُولِ مُتَّسِمًا بالهُدُوءِ الكامِلِ.

وكانَ المَرِيضُ طَرِيحَ الفِرَاشِ مُكَمَّدَ الرَّأْسِ. ويَبْدُو شَاحِبًا كأنَّ مَخَالِبَ المَنِيَّةِ قد نَشِبَتْ فِيه. وكَانَتِ الغُرْفَةُ بَاهِتَةَ الضَّوْءِ، شَديدةَ الهُدُوءِ. ولولا صوتُ الجِهَازِ المُسَاعِدِ على التَّنَفُّسِ لكانَ أَوَّلُ مَا يَتَبَادَرُ إِلَى الذِّهْنِ أَنَّهُ قَدْ لَقِيَ حَتْفَهُ.

وكانتْ بجانبِ سَرِيرِهِ امرأةٌ حَسْنَاءُ نَحِيفَةٌ، قد بَلَغَتْ سِنَّ الكُهُولَةِ، تُمْسِكُ بِيَدِه وتُحْمِلقُ إِلَى نظْرَتِهِ التى لا تَحْمِلُ فى طيَّاتِها أَيَّ مَغْزى. و إذا نظرتَ إلى وَجْهِهَا كانَ أَوَّلُ تَخْمِينٍ يَخْطُرُ بِبَالِكَ أَنَّها كانتْ مِن قبل امرأةً رَقُودَ الضُّحَي. وعلى الرَّغْمِ مِن أَنَّ تَعْبِيرَ الكَآبَةِ يَرْتَسِمُ عَلَى وَجْهِهَا فإنَّ عَيْنَيْهَا تتلألئان كالكواكب.


بسم الله الرحمن الرحيم

وظَلَّ تَحْدِيقُ هذا المَرِيضِ غُفْلاً مِنْ مَغْزى مَجْهُولَ العَاقِبَةِ منذُ استدعاءِ هذه المَرْأَةِ قبلَ أربعةِ الأَيَّامِ المَاضِيَةِ لتمريضِه. وظلَّ كأنَّه مُغْمًى عليه.

وكانَ يَتَكَبَّدُ آلامًا بَالِغَةَ الأَثَرِ و مُعَانَاةً جَسَدِيَّةً كَبِيرَةً على سَرِيرِه قبلَ أَنْ يَلْحَقَ بالجانب الآخَرِ إذا أَعْيَاهُ جانبٌ، اللَّهُمَّ إلاَّ إذا سَاعَدَتْه هذه المرأةُ. وعلى الرَّغْمِ مِن أنَّه كانَ رَائِدَ الوِسَادِ فإنَّ كلمةَ الشُّكْرِ تَرْتَسِمُ على عَيْنَيْهِ بحيث لو سنحتْ لهما فُرْصَةُ الكلام لقالتا:

- شُكْرًا لَكِ.

فاسْتَجْمَعَتْ عائشةُ بَعْضَ الشَّجَاعَةِ فنادتْ:

- يا عمرُ.

فاستغرقَ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ قبلَ أنْ يتمكَّنَ من فَتْحِ عَيْنَيْهِ و ينقشعَ الظَّلاَمُ عَنْهُمَا. ثم هَمَّ بالنُّهُوضِ ولكنَّ الضَّعْفَ كانَ يُسَيْطِرُ عَلَيْه. فجعلَ يُحَمْلِقُ إليها وَعْثَ اللِّسَانِ. ثم ابْتَسَمَ إليها بَسْمَةً وَانِيَةً. وَجَعَلَ يطوفُ على عَيْنَيْه طائفُ الكَرَى،

فما لَبِثَ أنْ غَلَبَهُمَا. فنَامَ مِن جَدِيدٍ. وظلَّ نائِمًا حتى مُنْتَصَفِ اللَّيْل وقد أُشْعِلَ مِصْبَاحُ الطَّاوِلَةِ.

وباتتْ عائشةُ تُمْضِى ليلاً سَاهِرًا يُخَيِّمُ عَلَيْهِ الصَّمْتُ بجانب سَرِيرِه. وكانَ الجِهَازُ المُسَاعِدُ على التَّنَفُّسِ قد نُزِعَ عنه فَتَمْتَمَتْ عائشةُ باسْمِه قائلةً:

- يا عُمَرُ.

فانفتحتْ عيناه هذه المَرَّة. فألقى عليها نظرةً خَاطِفَةً. فاعْتَصَمَتْ عائشةُ بالصَّمْتِ وهى تُحَمْلِقُ إلى وَجْهِ هذا الرَّجُلِ الذى كانَ مِن قبل وَسِيمًا انتظارًا لأن يستعيدَ تركيزَهُ و يُصْبِحَ وَاعِيًا لما حولَه. و حَدَثَ ذلكَ بِبُطْءٍ، فلمَّا أصبحَ فى قدرتِهِ وَعْىُ ما يحدثُ حولَه، نظرَ إلى عائشةَ خائفًا، فسألتْه قائلةً:

- كيفَ تشعرُ؟

وعلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّ هذا السُّؤَالَ يبدو سَخِيفًا فإنَّ عائشةَ كانتْ مُضْطَرَّةً لِطَرْحِه.

ومِنَ المُعْجِزَةِ أنَّه تَمْتَمَ بكلمتِه الأولى فى أربعةِ أيَّامٍ منذُ وصولِها إلى المستشفى للقيام عليه فَقَالَ:

- أَتَضَوَّرُ أَلَمًا.

وقبل أن تَرُدَّ عليه عائشةُ استبقَها قائِلاً:

- يا عائشةُ، كنتُ على يقينٍ مِن أَنَّكِ سَتَأْتِينَ.

وقالَ ذلك مُتَجَشِّمًا عَنَاءً بَالِغًا؛ الأمرُ الذى جعلَ عائشةَ تَسُدُّ فَاهُ بِأَصَابِعِهَا مَنْعًا له مِنَ المُتَابَعَةِ. و لكنَّه نَحَّى رَأْسَهُ جَانِبًا فسقطتْ يدُها عنه ثم مَضَى قائلاً:

- دَعِينِي أتكلَّمُ يا عائشةُ. أعلمُ أَنَّنى لا أَسْتَحِقُّ عَفْوَكِ و لكنَّ عَفْوَكِ مَأْمُولٌ.

فنهضتْ عائشةُ مِن مَقْعَدِها فَوَلَّتْ وَجْهَها قِبَلَ الجِدَارِ، وانفجرتْ بَاكِيَةً. فَبَكَتْ بِدَمْعٍ هَتُونٍ. فقالَ عُمَرُ مُكْتَوِيًا بألمٍ و عَذَابٍ:

- أَتَخْذُلِينَنِي أيضًا يَا عائشةُ؟ أَتُرِيدِينَ أن أَمُوتَ شَقِيًّا مَحْرُومًا مِنَ الغُفْرَانِ؟

فَكَفْكَفَتْ عائشةُ دَمْعَها ثم عادتْ إلى مَقْعَدِها. فرَفَعَ عمرُ رَأْسَهُ مِن جانبِ السَّرِيرِ فَتَوَسَّدَ به فَخِذَىْ عائشةَ فقالَ مُتَضَوِّرًا أَلَمًا:

- يا زَوْجَتِي العَزِيزَة، يا مَنْ حُبُّهَا لا يَتَمَايَنُ، يا مُنْقَطِعَةَ النَّظِيرَة، يا أَفْضَلَ زَوْجَةٍ عاشتْ على ظَهْرِ هذه الأرضِ، أَحَلَّكِ اللَّهُ أَقْدَسَ بُقْعَةٍ فى بُحْبُوحَةِ جِنَانِه جَزَاءً لكِ.

فَتَوَقَّفَ تَخَفُّفًا مِن ثِقَلِ الكَلاَمِ. ثم مَضَى قائلاً:

- إنَّ مِمَّا لا يَخْتَلِفُ فيه اثْنَانِ أَنَّكِ أنتِ المَلاَكُ الحَارِسُ لحياتِى. فلستُ مُضْطَرًّا للشَّكِّ فى إِمْكَانِيَّةِ نَيْلِ عَفْوِكِ. إننى على يقينٍ مِن أنَّ عَفْوَكِ سيَنَالُنِي.

فما تَفَوَّهَ بكلمةٍ إلاَّ وَقَفَ عندها وَقْفَةً تَأَمُّلِيَّةً حَذَرًا مِنَ الوُقُوعِ فِي غلطةٍ.

وعلى الرَّغْمِ مِن أَنَّ عُمَرَ كانَ مَرِيضَ الجَسَدِ فإنَّ عَقْلَهُ كانَ فى حالةٍ مُمْتَازَةٍ مِن حيثُ الوَعْيِ و النَّشَاطِ. و كانَ فى وُسْعِه أنْ يَتَذَكَّرَ الأَحْدَاثَ المَاضِيَةَ بِوُضُوحٍ حسبَ ترتيبِ حُدُوثِها على مرِّ

السِّنِينَ. وباتَ نَجِيَّ وَخْزِ الضَّمِيرِ. يَرْتَسِمُ الذنبُ على وجهِه بوضوحٍ. و قد انقطعتْ حلقةُ الوَصْلِ بينَه و بينَ سَعَادَةِ الحياة.

وبينَما تَتَسَرَّدُ دُمُوعُ الحَزَنِ مِن عينيه إذْ نظرَ إلى زوجتِه البَاكِيَةِ فقالَ:

- مِن أينَ أبدأُ؟ أ أبدأُ بالاعتذار أم بالقولِ: يا عائشةُ، اصْبِرِى على كلِّ ما حَدَثَ فإنَّ ذلك مِنْ قَدَرِ اللَّهِ؟ لا! لقد كنتُ غايةً فى الأَنَانِيَّةِ والدَّنَاءَةِ وَالكُنُودِ. أعْطَيْتِنِي كُلَّ شىءٍ و لكنَّنى رضيتُ مِنَ الوَفَاءِ باللَّفَاءِ، فَرَمَيْتُ بِحُبِّكِ و عِنَايَتِكِ و حُسْنِ تَفَاهُمِكِ فى مَهَبِّ الرِّيحِ مُسَلِّمًا بِكُلِّ شىءٍ جَدَلاً. لا يَخْفَى أنَّ الموتَ مُقَدَّرٌ علينا جميعًا و أنَّنَا غيرُ قادرين على أن نزيدَ ثانيةً واحدةً على أَجَلِ اللَّهِ. لا مَنْدُوحَةَ لنا عن الموتِ. و إذا جاءَ أجلُنَا فلا يُؤَخِّرُهُ أحدٌ. ولكنَّنِي على يقينٍ مِنْ أَنَّنِي قَرَعْتُ بابَ المَوْتِ قبلَ المِيعَادِ. وإنَّه لمُنْفَتِحٌ عَلَىَّ الآن. إنما أَسْتَعْفِيكِ. سَامِحِينِي يا عائشةُ.

فقاطعتْه عائشةُ فلم تَدَعْهُ ليُفْرِغَ جَعْبَةَ كلامِه. لقد امتلأتْ خَوْفًا مِنْ كَلِمَتِه الأخيرةِ. إنَّ الواقعَ المؤْلِمَ قد أصبحَ مَاثِلاً بين يديها. لقد بَاتَ زوجُها مُحْتَضَرًا.

وكانَ فى حُسْبَانِها أنَّ فى قُدْرَتِها أَنْ تُمَرِّضَ عُمَرَ حتى يَتَعَافَى مِن مَرَضِه و يَسْتَعِيدَ صِحَّتَهُ ولكنْ، ها هو ذا يَطْرُقُ مَوْضُوعَ الموتِ. لعلَّه مَيِّتٌ. لعلَّ شَبَحَهُ هو الذى يُخَاطِبُهَا. وفجأةً، انقلبتْ شاحِبَةً كحَيَوَانٍ فى غايَةِ الفَزَعِ. فنظرتْ مباشرةً فى عَيْنَيْ عُمَرَ، فصاحتْ صَيْحَةً تَقْشَعِرُّ مِنْهَا الأَبْدَانُ خَوْفًا. فدخلتْ مُمَرِّضَتَانِ تُهْرَعَانِ إلى سريره نتيجةً لهذه الصَّيْحَةِ. وبعدَ إجْرَاءِ مُلاَحَظَاتٍ دقيقةٍ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، نظرتْ إحْدَى المُمَرِّضَتَيْنِ إِلَى عائشةَ نظرةَ الاستغرابِ. فأشارتْ عائشةُ إلى عُمَرَ وهو على السرير، فقالتْ:

- إنَّه مَيِّتٌ.

فَهَزَّتِ المُمَرِّضَةُ رأسَها تَعَاطُفًا مَعَ عَائِشَةَ، و أمسكتْ بكتفها فقالتْ:

- لا أَيَّتُها السَّيِّدَة، إنَّه حَيٌّ. إنما هو ضعيفٌ وتَعْبَانُ، سَنُعْطِيهِ دَوَاءً يُسَاعِدُهُ على الاسْتِرْخَاءِ والنَّوْمِ. وأنتِ أيضا بحاجةٍ إلى قِسْطٍ مِنَ الرَّاحَةِ.

ثم اكتحلتْ عَيْنَا عُمَرَ غُمْضًا على أثرِ حُقَنٍ دَوَائِيَّةٍ تَلَقَّاهَا. فَبَدَا مرتاحَ البَالِ بصورةٍ لها دلالاتُها الواضحةُ. وبينما تُحَاوِلاَنِ إرشادَ عائشةَ المُضْطَرِبَةِ إلى غُرْفَةِ الاسْتِرَاحَةِ التابعةِ للمستشفى، إذ دَخَلَ الطَّبِيبُ، رَجُلٌ فُلاَّنِيٌّ فَاتِحُ البَشَرَة. فَأَلْقَى على عائشةَ نظرةً تملأُها الشَّفَقَةُ ثم على المُمَرِّضَتَيْنِ نظرةً مُسْتَفْسِرَةً. فأجابتْه إحْدَى المُمَرِّضَتَيْنِ قائلةً:

- لقد أصابتْها صَدْمَةٌ. ظَنَّتْ أنَّ السَّيِّدَ قد لَقِيَ حَتْفَهُ. ولكنْ، نُرَافِقُها إلى غُرْفَةِ الاستراحةِ الآنَ.

وبينما يدورُ الطبيبُ تُجَاهَ عُمَرَ، قالتِ المُمَرِّضَةُ:

- إنه ينامُ مِلْأَ جفنيه الآن، يا مولاىَ. لقد اضْطُرِرْنَا إلى إعْطَائِه حُقْنَةً مُهَدِّئَةً للأَعْصَابِ.

فهزَّ الطبيبُ رأسَه حَزَنًا وقالَ فى هدوءٍ:

- يا عائشةُ، هَدِّئى من رَوْعِكِ فإنَّ صَدِيقِى بِنَجْوَةٍ من الخَطَرِ الآن. أنا مُتَأَكِّدٌ تسعينَ بالمائةِ مِن أَنَّ ثمة إِمْكَانِيَّةَ تَمَاثُلِه للشِّفَاءِ ولكنَّ ذلك سيَسْتَغْرِقُ وَقْتًا و سيَتَطَلَّبُ عِنَايَةً طَيِّبَةً.

ثم مَضَي قائلاً وهو يَبْتَسِمُ إليها

- لا أَشُكُّ فى أَنَّكِ قادرةٌ على أَنْ تَعْجِفِى نَفْسَكِ عليه حتَّى تَرُدِّيهِ إلى حالةٍ صِحِّيَّةٍ مُمْتَازَةٍ. اذْهَبِى لِتَنَالِى قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ.

فألقتْ عائشةُ على الدكتور بَلُّو نظرةً فهَزَّتْ رأسَها كأنَّ حقيقةَ ورطتِها إنما بدأتْ تَنْكَشِفُ أمامَ عَيْنَيْها فقالتْ:

- لا يا بَلُّو، أُفَضِّلُ أن أَبْقَى مَعَه. قد يحتاجُ إلى شىءٍ إذا استيقظَ. ينبغى لى أن أكونَ على مقربةٍ منه. سأَبْسُطُ حَصِيرًا بِقُرْبِ سَرِيرِه للاستراحةِ. سَأَجْتَزِأُ بِذلك. شكرًا لَكَ على العِنَايَةِ يا بَلُّو:

فهزَّ الدكتورُ بَلُّو رأسَه و ابتسمَ إلى عائشة بسمةَ المُشْفِقِ على المُبْتَلَى بِبَلِيَّةٍ، بسمةً تَحْمِلُ فى طَيِّهَا تَعَابِيرَ كثيرةً ولكنَّه اكتفَى بقوله بنبرةٍ تعلوها الرأفةُ:

- لا يَجْزِيكِ يا عائشةُ إلاَّ اللَّهُ.

ولا يَخْفَى على عائشةَ أَنَّ الطَّبِيبَ يَرْتَمِضُ مِن حالِ عُمَرَ كُلَّ ارتماضٍ. كما لا يَخْفَى عليها أنَّ فى فِيه سَيْلاً عَرَمْرَمًا مِنَ الأقوالِ ولكنَّ المكانَ والتَّوْقِيتَ سَيِّئَانِ.

فلما غَادَرَ الطَّبِيبُ والمُمَرِّضَتَانِ، عَدَّلَتْ عائشةُ الطَّاوِلَةَ التَّابِعَةَ للسَّرِيرِ، فَبَسَطَتِ الحَصِيرَ استعدادًا للاستراحةِ فى تلكَ الليلة، مُتَيَقِّنَةً أَنَّ وِسَادَهَا سَيَرُودُ مِن هَمِّهَا.لقد ظلَّ وَضْعُها كذلك منذُ استدعائِها لتمريضِ عُمَرَ. ثم ألقتْ عليه نظرةً مَلِيئةً بالشفقةِ والحُبِّ، فإذا تَنَفُّسُهُ قد أصبحَ سَلِسًا.

فاضطجعتْ هادئةً على حصيرها. وجعلتْ تستعيدُ ذِكْرَيَاتِها المَاضِيَةَ مِنَ الأَفْرَاحِ و الأَتْرَاحِ والآلام. وتَعَذَّبَتْ مِنَ الأسئلةِ المختلفةِ التى تَطْرَحُ أَنْفُسَها بينَ يَدَيْهَا. هل كانَ مُقَدَّرًا على عمرَ أن تَنْتَهِىَ حياتُه على هذا المِنْوَالِ؟ ثم فَكَّرَتْ فى أولادِها.

و فَكَّرَتْ فى إبراهيمَ، ابنِها الصَّغِيرِ الذى نَشِبَتْ فيه مَخَالِبُ المَنِيَّةِ فى السَّنَةِ المَاضِيَةِ بصورةٍ مَأْسَاوِيَّةٍ. هل فى وسعِها أن تَعْفُوَ عن عُمَرَ وتَنْسَى كلَّ الوَيْلاَتِ التى جَلَبَها عليها؟ وأَصْبَحَ مِنَ المُسْتَحِيل

التصديقُ بأَنَّهُمَا كانا يَعِيشَانِ معًا حياةً مليئةً بالسَّعادةِ، وأنَّه كانَ كُلَّ شَيْءٍ بالنسبةِ لها.

لقد مَضَى زَمَنٌ طَوِيلٌ، ولذلك يبدو أنهما يعيشانِ حياةً جديدةً.

لقد مَرَّتْ عشرون عامًا على...

# الفصل الأول

استيقظتْ عائشةُ مُنْطَلِقَةً من نومِها المُضْطَرِبِ.فنظرتْ إلى الساعة فإذا أربعُ ساعاتٍ تقريبًا قد مَضَتْ عليها وهى نائمةٌ.فتثاءبتْ ثم حاولتِ النُّهُوضَ،و لكنْ، لم تستطعْ.كانَ الضَّعْفُ قد أَحْكَمَ قَبْضَتَهُ عليها.فلما امتنعَ زَنْدُ ذِهْنِهَا مِنَ التورية،عادتْ مُسْتَلْقِيَةً على فِرَاشِها، فَعَانَقَتْ وسادتَها.لماذا تتكلَّفُ عَنَاءَ التفكيرِ فى هذا الأمرِ المُرْعِبِ؟ لماذا تشُكُّ فى أمانةِ مختار؟ لقد اتَّصَلَتْ على أرقامِ هَاتِفِه أكثرَ من عشر مَرَّاتٍ ولكن، لا أحدَ يتناولُ الهاتفَ.

وكانتْ قد بَعَثَتْ برسائلَ نَصِّيَّةٍ إليه ولكنَّه لم يَرُدَّ. و فجأةً تذكَّرَتْ أنها لمْ تُؤَدِّ صلاتَي الظُّهْرِ والعَصْرِ وكانتْ صلاةُ المغرب على الأبواب. فنهضتْ لأداءِ وضوءِها مُزْمِعَةً على وضعِ هذا الأمرِ المَرِيجِ جانبًا.

لقد كانَ مختارُ مَحْبُوبَ عائشةَ الأَوَّلَ والوَحِيدَ كما كانَ الرَّجُلَ الوحيدَ الذى نظرتْ إليه عائشةُ نظرةَ صديقةٍ لصديقِها. وكانتْ طُفُولَتُهَا قليلةَ الأحداثِ كَثِيرةَ الأَحْزَانِ.

و مِنْ لُعْبَةِ القَدَرِ، طَلَّقَ (بابا) - كما تُسَمِّى عائشةُ أباها — مريمَ، أُمَّ عائشةَ التى كانتْ هى وسائرُ النَّاسِ ينادونَها (ماما)، عندما كانتْ عائشةُ فى الخامسة من عمرها بلاسبب ولا ذنب تَعْرِفُهما. ثم علمتْ فى ما بعد أنَّ الطَّلاَقَ كانَ الخِيَارَ البَدِيلَ نظرًا إلى أنَّ زَوَاجَ وَالِدَيْهَا إنَّما بَدَأَ خُطْوَتَهَ الأُولى مُتَرَافِقًا مع الشُّؤْمِ. لم تَجْمَعْهُمَا مَوَدَّةٌ قَطُّ.

وكانَ جَدُّهُمَا مِن جِهَةِ الأُمِّ قد أَصَرَّ على أنْ ينعقدَ الزَّوَاجُ عندما كان حَيًّا ولن يَتَجَرَّأَ والداهما على عصيانِ أَمْرِهِ بعدَ رَحِيلِه. وبالتَّالِى، عاشَ أَوَّلُ، ومَرْيَمُ، وَالِدَا عَائِشَةَ سِتَّ سنواتٍ مَعًا رَغْمَ أَنْفِهِمَا.

وفى مُسْتَهَلِّ هذا الزَّوَاجِ، كانتْ مَرْيَمُ مَحَلَّ الشفقةِ.فَعَجَفَتْ نَفْسَها على أَوَّلَ إِكْرَامًا لخَاطِرِ أَبَوَيْهَا. وعلى الرَّغْمِ مِن أنَّ هذا الزَّوَاجَ لم يَرْتَقِ إلى مستوى سعادة مريمَ فإنَّ فكرةَ الطَّلاَقِ لم تَخْطُرْ بِبَالِها ألبتة.ثم تَحَسَّنَتْ هذه العَلاَقَةُ الفَاتِرَةُ بَعْضَ الشَّىْءِ على أثرِ ولادةِ عائشةَ، غيرَ أنَّها كانتْ قَصِيرَةَ العُمْرِ. ثم ضاقتْ مريمُ بالوضعِ ذَرْعًا بعدَ سِتِّ سَنَوَاتٍ فى هذا الزَّوَاجِ الذى كانَ خاليًا مِنَ المَوَدَّةِ

الزَّوْجِيَّةِ.فلم تقدرْ على المُضِيِّ قُدْمًا، خُصُوصًا، بعدَ أن اكتشَفتْ أنَّ هناك غَيْرَها مِن النساء اللاتى تزوَّجَهُنَّ أزواجٌ كارهون مُسْتَسْلِمَتٍ للضُّغُوطِ العَائِلِيَّةِ والثَّقَافِيَّةِ.ثم عَمِلَ أَوَّلُ على إحياءِ هذا الزَّوَاجِ إِكْرَامًا لخاطرِ طِفْلَتِه عائشةَ وأفرادِ عائلتِه المُمْتَلِئِينَ تَفَاءُلاً بِإِمْكَانِيَّةِ نَجَاحِ هذا الزَّوَاجِ يومًا مَّا.ولولا ذلك لما أَبْدَى أيَّ اهْتِمَامٍ فى هذه العلاقةِ أيضًا. فمَثَلُهُمَا كَمَثَلِ طَائِرَيْنِ مُتَعَادِيَيْنِ مَحْبُوسَيْنِ فى قَفَصٍ واحدٍ، يَجِبُ أن يَتَحَلَّى أَحدُهُمَا بالجرأةِ و يكسرَ البابَ وإلا انْتَهَى بهما المطافُ فى مستشفى الأمراضِ العقليَّةِ.

ثم جعلَ اللَّهُ لهما مخرجًا من حيث لم يَحْتَسِبَا عندما تعرَّضَتْ مريمُ للمُضايَقَةِ مِن قِبَلِ أقاربِ أَوَّلَ، و لا سِيَّمَا أُمُّهُ التى أخذتْ مريمَ بِشِدَّةٍ بحُجَّةِ أنَّها عاجزةٌ عن إعطاءِ أَوَّلَ طِفْلاً آخَرَ بعدَ عائشةَ. فلما جَرَى الوَادِى فطَمَّ على القَرِيِّ، انتهزتْ مريمُ تلك الفُرْصَةَ لكَسْرِ صَمْتِها الطَّوِيلِ، فانقلبتْ امرأةً ثائرةً. وَذاتَ يومٍ، ذهبتْ إلى المنزل فأخبرتْ أباها أنها لن ترجعَ إلى أَوَّلَ بوصفِها زوجةً له أبدًا.

ولما اتَّخَذَتْ مريمُ قرارَها أن ترحلَ عن أَوَّل، لم يكنْ يَخْفَى عليها أنَّ هذا القرارَ سيَقَعُ عندَ كثيرٍ من أفرادِ عائلتِها مَوْقِعَ السَّخَطِ والمَقْتِ.

وكان ذلك أصعبَ قرارٍ اتَّخَذَتْهُ مريمُ فى حياتِها. ولقد جعلَها ذلك مُضْغَةً فى أفواهِ الوُشَاةِ، وعلى الرغم من ذلك، كانتْ مُزْمِعَةً على التَّشَبُّثِ بِمَوْقِفِها، فلم تَزِدْهَا الانتقاداتُ اللاَّذِعَةُ التى جَلَبَهَا موقفُها هذا إلاَّ قُوَّةً إلى قُوَّةٍ قناعتِها. لم يسألْها أَحَدٌ قطُّ عن مَشَاعِرِها تجاهَ هذا الزَّوَاجِ الذى يَغِيبُ فى طَيِّه عُنْصُرُ الحُبِّ. إنما يَتَوَقَّعُونَ مِنها أن تتظاهرَ بأنَّ الأمورَ على ما يُرَامُ. و كانتْ تَتَسَلَّحُ بدينِ الإسلام الذى يعترفُ بالأسرةِ كأساسٍ أيِّ مُجْتَمع و لكنَّه إلى جانب ذلك، يحكم بالطَّلاَقِ عندَ تَعَذُّرِ تَحْقِيقِ الحياةِ الزَّوْجِيَّةِ السَّعِيدَةِ بين الزَّوْجَيْنِ. فأجابَ كثيرٌ مِن أقرباءِها عن ذلك بأنَّ المرأةَ الهَوْسَاوِيَّةَ المِثَالِيَّةَ تَتَحَمَّلُ آلاَمَ الحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ فى الصَّمْتِ. لم يدعمْ معظمُ أفرادِ العائلةِ قرارَ مَرْيَمَ هذا. و فى الواقع، كانَ كثيرٌ منهم يَصُبُّون اللَّوْمَ على أبيها مُحْتَجِّينَ على سَمَاحِه لها بالبقاء فى منزله. ولكنَّ العجوزَ كانَ على علمٍ بأنَّ مريمَ كانتْ مِطْوَاعًا.

لقد دَعَى (بابا) فى مناسباتٍ مختلفةٍ أن يَتَدَخَّلَ اللهُ فِى أمرِ مريمَ هذا وَفَوَّضَهُ إليه مستعينًا بالصَّبْرِ والصلاةِ. فإذا كانَ الرَّحِيلُ هو خيارَ مريمَ بعدَ كُلِّ ما قام به فقد يكونُ ذلك هو المَخْرَجَ الوحيدَ. فتجاهلَ

أبوها كُلَّ الشَّائِعَاتِ و تَذَمَّرَ منها مُحَذِّرًا وَالِدَةَ مَرْيَمَ مِنَ الإدلاءِ بكلمةٍ فى هذا الموضوعِ.

وبعد سِتِّ سنواتٍ مِنْ هذا الزَّوَاجِ الذى كانَ يَغِيبُ فى طَيِّهِ عُنْصُرُ الحُبِّ، أطلقَ أَوَّلُ سَرَاحَ مَرْيَمَ و انْتَزَعَ حَقَّ حضانة عائشةَ مِن أُمِّهَا غَضْبًا مُتَوَهِّمًا أنَّ مريمَ ستُغَيِّرُ موقفَها. و لكنَّ مريمَ ظَلَّتْ مُتَصَلِّبَةً عَنِيدَةً. لقد اتَّخَذَتْ قَرَارَها، فقالتْ فى نفسها:

– لِتَبْقَ عائشةُ فى كَنَفِه. فإذا بلغتْ أَشُدَّهَا سألتْ عن والدَتِها.

وعلى الرَّغْمِ مِن أنَّ هذا القرارَ كانَ يُؤْلِمُها فإنَّها تُغْمِضُ جَفْنَيْهَا على القَذَى حِفَاظًا على مصلحةِ حُرِّيَّتِهَا.

واستخدمَ أَوَّلُ امرأةً عَجُوزًا لِتَقُومَ على عائشةَ. ووَضَعَ اللَّوْمَ على مريمَ مُتَّهِمًا إِيَّاهَا بعدمِ الإسْهَامِ فى إِنْجَاحِ هذا الزَّوَاجِ مُعْتَقِدًا أنَّ انْتِزَاعَ حضانةِ عائشةَ مِن مريم سيكونُ وسيلةَ الانتقامِ الأبلغَ ألمًا. وكان يسمحُ لعائشةَ بزيارة (ماما) وقضاءِ نهايةِ الأسبوع عندها أَوَاخِرَ كُلِّ شهرٍ. فلما تَزَوَّجَتْ مريمُ بعدَ سنتين، حَظَرَ أَوَّلُ زيارةَ (ماما) على عائشةَ.وهكذا حُرِمَتْ عائشةُ منذُ نعومةِ أظفارِها فُرْصَةَ معرفةِ

أُمِّها بصورةٍ جَيِّدَةٍ أو الاقتراب منها. فلم يَتَسَنَّ اللِّقَاءُ بينهما إلا بعد سنواتٍ كثيرةٍ عندما تَخَرَّجَتْ مِنَ المَدْرَسَةِ الثَّانَوِيَّةِ.

ثم تزوَّجَ (بابا) رُقَيَّةَ، امرأةً حَقِيرَةً لا أدبَ لها، بعدَ زَوَاجِ (ماما) بِسَنَةٍ. وكانَ ذلك زَوَاجَ رُقَيَّةَ الخَامِسَ. وكانَ كُلُّ زَوَاجٍ تَرْتَبِطُ به رُقَيَّةُ يَنْتَهِي إلى الفَشَلِ نتيجةَ سُوءِ خُلُقِهَا. وقد رزقَ اللهُ كُلَّ زَوْجٍ مِن أزواجِها الأربعة ولدًا مِنها. اثنان منهم ذكرانِ، هما: بَلُّو وصَدِيقُ. وأما الأُخْرَيَانِ فهما: أمينةُ ومَيْمُونَةُ.

وكانَ أصدقاءُ (بابا) وأقرباؤُهُ قد أشاروا عليه أن لا يَتَبَنَّى أولادَ رُقَيَّةَ الأربعةَ ولكنْ، كانَ الحُبُّ الذى يُكِنُّه لهذه المرأةِ قد غَيَّقَ بَصَرَهُ. فأخذَ على عاتقِه مسؤوليَّةَ هؤلاء الأولادِ الأربعةِ بِشَكْلٍ كَامِلٍ. وكانَ يقطعُ حَبْلَ الوِصَالِ مَعَ كلِّ مَن يشكو رُقَيَّةَ إليه. و لقد لبستْ (أُمَّا) — كما يُنَادِى رُقَيَّةَ أولادُها - جِلْدَ النَّمر لعائشة مِنَ اليومِ الذى وطأتْ قدماها منزلَ (بابا). فَسَرَّحَتِ العَجُوزَ التى كانتْ تقومُ على عائشةَ من وظيفتِها وأَحَلَّتْ مَحَلَّها خَادِمَةً جديدةً تقتصرُ خِدْمَتُها عليها وعلى أولادِها.

فصارَ أولادُ (أُمَّا) أرفعَ مِن عائشة منزلةً. ولا ينالُ عائشةَ إحْسَانُ هذه المرأةِ إلا بحضرة (بابا). وكانتْ تُحْسِنُ إلى عائشةَ فى حُضُورِ (بابا) سُمْعَةً ورِيَاءً. وتَحْذَرُ أن يَشْتَبِهَ (بابا) فى أمرِ سُوءِ تَصَرُّفِهَا تجاهَ عائشةَ.

فلما كانتْ عائشةُ فى سَنَتِها الخَامِسَةِ فى المدرسة الابتدائيَّة، تَحَلَّتْ بعضُ جَارَاتِهم بالجرأة، فأخبرنَ (ماما) بالوَضْعِ الجَهَنَّمِيِّ الذى تَعِيشُه عائشةُ. فاسْتَجْمَعَتْ (مَامَا) الشَّجَاعَةَ رَغْمَ أنَّها كانتْ قد نَذَرَتْ على نفسِها أنْ لا تَعْتُبَ بَابَ المنزل، فَتَوَجَّهَتْ إلى البيتِ زيارةً لعائشة وتقويمًا لوَضْعِها وتَثَبُّتًا مِنَ التَّقْرِيرِ الذى صَدَرَ مِن جاراتِها الصَّوَالِحِ.

ومِن سُوءِ حَظِّهَا، رجعتْ بِخُفَّىْ حُنَيْنٍ. كانتْ (أُمَّا) قد بَصُرَتْ بِها مِن خِلَالِ النَّافِذَةِ، فَسَحَبَتْ عائشةَ بسرعةٍ فأدخلتْها فى بيتِ الطُّيُورِ الدَّوَاجِنِ الواقِع وراءَ المنزل مُهَدِّدَةً إيَّاهَا بأن تلتزمَ الهدوءَ أو تُوَاجِهَ سَخَطَها إذا رجعتْ إليها. فجعلتْ عائشة تبكى ولكنْ، ليسَ بِيَدِهَا حِيلَةٌ. وامتنعتْ (أُمَّا) أن تفتحَ البابَ لِـ(مَامَا) رغمَ أنَّها قَرَعَتْه مِرَارًا وتَكْرَارًا متظاهرةً بأنَّ المنزلَ كان خاليًا مِنَ النَّاسِ.

وذاتَ يَوْمٍ، قامتْ فَوْزِيَّةُ، أختٌ لـ(مَامَا) بزيارةٍ فُجَائِيَّةٍ إلى المنزل. فأخذتْ (أُمَّا) على حِينِ غِرَّةٍ فلم تسنحْ لها فرصةُ إخفاءِ عائشةَ.فلما رأتْ فوزيةُ كم أصبحتْ عائشةُ هَزِيلَةً وكم كانَ وضعُها مُرَوِّعًا، لم تَلْبَثْ أن أبْدَتْ غضبَها واشمئزازَها مِن تصرُّفِ (أُمَّا). فَأَوْرَى زَنْدُ غَرِيزَةِ الأُمُومَةِ بِدَاخِلِها، فَتَحَدَّتْ (أُمَّا)؛ الأمرُ الذى أَدَّى إلى نِزَاعٍ حَامِي الوَطِيسِ بينهما. وأخيرًا، تَدَخَّلَ بعضُ الصَّالِحِينَ مِنَ الجِيرَان، فأَقْنَعُوا السَّيِّدَةَ فَوْزِيَّةَ بالمُغَادَرَةِ. وكان (بابا) يومئذٍ فى رحلةٍ رسميَّةٍ. فلما عادَ، مَوَّهَتْ (أُمَّا) حقيقةَ هذه الحادثةِ عليه. ونتيجةً لذلك، حَظَرَ (بابا) زيارةَ عائشة على أفرادِ عائلةِ (مَامَا).

فأصبحتْ عائشةُ مُنْكَمِشَةً على نفسِها هادئةً؛ بما أنها لا تَسْتَطِيعُ أن تَتَظَلَّمَ إلى أحدٍ. وعجفتْ نفسَها عن التفكير فى ما تفْتَقِدُهُ من حُبِّ الأُمِّ. وقَصَرَتْ تفكيرَها على ما قد يُحَبِّؤُهُ لها المستقبلُ فى مَذَاخِرِهِ. ورَضِيَتْ مِنْ مَرْحَلَةِ المُرَاهَقَةِ من حَيَاتِها بالحُرِّيَّةِ التى سَتَضْمَنُها لها مرحلةُ ما بعدَ البلوغ والتى ستستأثرُ هى بها فى المستقبل، غير أنَّ الوحشةَ تُؤْلِمُها، خُصُوصًا عندما تَخْلُو الدارُ مِن (أُمَّا) وأبناءِها وتَبْقَى هِيَ وحدَها فيها تقومُ بالواجباتِ المنزليَّةِ مثل

طبخ الطعام. إنَّ حياةَ العُزْلَةِ التى أجبرتْ نفسَها على التَّكَيُّفِ معها لمِنْ أَكْبَرِ مَصَادِرِ أَلَمِهَا.

وكانتْ عائشةُ شديدةَ الذكاءِ رَغْمَ كلِّ هذه العوائقِ. وكانتْ تستأثرُ بالمنزلةِ الأولى فى فصلها كلَّ وقتٍ. كما كانتْ تَقْرَأُ سُوَرَ القرآنِ كُلَّها عن ظَهْرِ قلبٍ وهى لا تزالُ فى سَنَتِها الخامسةِ فى المدرسة الابتدائية. فلا غَرْوَ أنها حَظِيَتْ بالقَبُولِ فى كُلِّيَّةِ المَلِكَةِ بِلاَغُوسْ. وانشرحَ أبوها بذلك صدرًا عِلْمًا منه أنَّها كليَّةٌ مَرْمُوقَةٌ.

فحاولتْ (أُمَّا) أن تمنعَ عائشةَ مِن ارْتِيَادِ كُلِّيَّةِ المَلِكَةِ فبذلتْ فى ذلكِ كُلَّ غالٍ ورخيصٍ، ولكنَّ مُحاوَلَتَها باءتْ بالفشل. كانَ (بابا) مُتَمَسِّكًا بِتَمَنِّيَاتِه.

وكانتْ فكرةُ مُغَادَرَةِ المنزل تملأُ قَلْبَ عائشةَ سُرُورًا. وفى كُلِّيَّةِ المَلِكَةِ، كانتْ مِثَالاً يُحْتَذَى مِن حيثُ الأخلاق و الدَّهَاء والذَّكَاءِ؛ مما جعلَها فى بضعةِ الأسابيعِ الأوائلِ بعدَ وصولِها إلى هناك طالبةً مُفَضَّلَةً لدى هيئةِ المُوَظَّفِينَ و الطالباتِ على السَّوَاءِ.

ومِنْ أَهَمِّ الدُّرُوسِ التى تَعَلَّمَتْهَا عائشةُ فى صِغَرِها أنَّ الرَّبِيبَةَ لن تُرْضِىَ رَابَّتَها الكَارِهَةَ لها مهما بذلتْ لها مِن طاعةٍ. وكانَ وضعُ

عائشة فى منزل أبيها جَهَنَّمِيًّا و لكنَّها نَجَحَتْ فى التَّكَيُّفِ مَعُه. وأحيانًا، تَبْدُو الأحلامُ المُمْتِعَةُ التى تَحْلَمُ بها بشأنِ التَّحَكُّمِ بحياتِها فى المُسْتَقْبَلِ غيرَ مُتَحَقِّقَةٍ. و يُثَبِّطُ ذلك عَزْمَها المُتَوَقِّدَ كُلَّمَا أَجَالَتْ فِكْرَهَا فى تَصَرُّفِ (أُمَّا) تُجَاهَهَا. ثم أصبحَ ذلك مِن الأحداثِ التاريخيَّةِ التى تحتفظُ بها الأراشيفُ فى متحفِ حياتِها بدلاً من تميمةٍ.

ثم قَدَّرَ اَللَّهُ اللِّقَاءَ بينها و بينَ مختارَ وهى فى سنتِها الثالثةِ فى كُلِّيَّةِ المَلِكَةِ إذ سافرتْ إلى كَدُونَا فى أثناء الإجازة الطويلة لزيارة عَمَّتِها التى تُقِيمُ هناك. وكانَ مختارُ يُمْضِى سَنَةً كاملةً خِدْمَةً فى برنامجِ الخِدْمَةِ الشَّبَابِيَّةِ. وكانَ يُقِيمُ فى جَنَاحِ الضَّيْفِ التَّابعِ لمنزلِ عَمَّةِ عائشةَ. فنشأتْ علاقَةُ الصَّدَاقَةِ بينهما فى ثمانٍ وأربعين ساعةً بعدَ وُصُولِ عائشةَ إلى المنزل.

كانتْ عائشةُ عائدةً إلى المنزل بعدَ الخروج لتَوْدِيعِ السَّائِقِ الذى أَوْصَلَها إلى كَدُونَا، فَبَصُرَتْ بمختار جالسًا على شُرْفَةِ جَنَاحِ الضَّيْفِ. وكانَ قد ابتسمَ إليها لَمَّا قرأتْ عَلَيْهِ السَّلاَمَ. فَلَوَّحَ إليها، وفى المقابل، ابتسمتْ إليه بسمةً تَحْمِلُ فى طَيِّها رِسَالَةً مُلَيِّنَةً لِلْقَلْبِ.

وفى اليَوْمِ التَّالِى، رَأَتْه عائشةُ جالسًا على الشُّرْفَةِ نَفْسِهَا، فَحَيَّتْهُ تَحِيَّةَ الاحْتِرَامِ. فَرَدَّ مُبْتَسِمًا، ثم رَافَقَها إلى غُرْفَةِ الجُلُوسِ التَّابِعَةِ للمَنْزِلِ.

فجلسَ الاثنانِ فيها يَتَجَاذَبَانِ أطرافَ الحديثِ مُخْتَلِيَيْنِ مُرْتَاحَيْنِ، وسرعان ما وجدتْه سَهْلَ التَّوَاصُلِ. وكانَ مختارُ حَسَنَ الحديثِ و العِشْرَةِ وكَثِيرَ الكلام. ولقد زَوَّدَهَا بأخبارٍ عن عائلتِه وقَرْيَتِه وخَلْفِيَّتِه العِلْمِيَّةِ و كلِّ ما يَتَعَلَّقُ به. وبعدَ ساعةٍ، أصبحتْ عائشةُ تشعرُ كأنَّها كانتْ تَعْرِفُه طِيلَةَ حياتِها.

ثم أَمْضَيَا تقريبًا جميعَ أوقاتِ فراغِهِمَا مَعًا ثلاثةَ أسَابِيعَ. فَرَافَقَتْه إلى أمَاكِنِ التَّسْلِيَةِ، فَقَدَّمَها إلى جميع أَصْدِقَاءِهِ. لقد كانَ دليلاً مَاهِرًا. و انْشَرَحَتِ السَّيِّدَةُ أَمِينَةُ، عَمَّةُ عائشةَ بهذه الصداقةِ صدرًا نظرًا إلى أنَّ مختارَ كانَ رَجُلاً هادئًا، حَسَنَ الخُلُقِ وابْنًا لِصَفِيِّ زوجِها. وكانتْ لهذه الصَّدَاقَةِ مُشَجِّعَةً.

ولم تقتصرْ مَأْثُرَةُ عائشةَ على ذَكَائِها فى الكُلِّيَّةِ فحسب، ولكن، كانتْ تَتَمَتَّعُ بِرُوحٍ رِيَاضِيَّةٍ جَيِّدَةٍ أيضا. وكانتْ مُحْتَرِمَةً للمُعَلِّمِينَ ولَوَائِحِ الكُلِّيَّةِ. كما كانتْ بالطَّالِبَاتِ الصَّغَائِرِ لَطِيفَةً

وللكَبَائِرِ مُبَجِّلَةً وللجميع مُؤَانِسَةً. وقَبِلَتْ مَسْؤُولِيَّاتِها عنْ طِيبِ خاطرٍ و بَاشَرَتْهَا بصورةٍ جَيِّدَةٍ.

وكانتْ عائشةُ طَوَالَ أَيَّامِ مدرستِها الثَّانَوِيَّةِ لا تَلْوِى إلاَّ على أمرٍ وَاحِدٍ، وهو أن تَتَخَرَّجَ بِنَجَاحٍ بَاهِرٍ لتَطْلُبَ القَبُولَ فى جَامِعَةٍ جَيِّدَةٍ ثم تَتَأَهَّلَ للانخراط فى سِلْكِ هيئةِ التدريس على مستوى المدرسةِ الثانوية أو المعهد العالى.

وبالتَّالِى، كانتْ عميدةُ الكُلِّيَّةِ وجميعُ المُعَلِّمِينَ على يقينٍ مِن أنَّ الكُلِّيَّةَ ستَفْتَخِرُ فى المستقبلِ القريبِ بنجاحِ عائشةَ البَاهِرِ فى امتحاناتِ شهادةِ المدرسةِ الثانويَّةِ. وجَرْيًا وراءَ تحقيق ذلك، قَدَّمَتْ عائشةُ بكلِّ عَزْمٍ امتحاناتِ شَهَادَةِ المَدْرَسَةِ الثَّانَوِيَّةِ و امتحاناتِ إدَارَةِ القَبُولِ الجَامِعِيِّ التى سَتُؤَهِّلُها للحُصُولِ على القَبُولِ فى المَعْهَدِ العَالِى. وكانَتْ تَتَطَلَّعُ إلى النَّجَاحِ فى امتحاناتِها لتكونَ مَفْخَرَةً عندَ أبيها وسائرِ أفرادِ عائلتِها إلى جانب أنها سَتُحَقِّقُ حُلْمَ الانخراطِ فى سلكِ هَيْئَةِ التدريس على مستوى المعهد العالى.

ثم طلبَ (بابا) مِن عائشةَ لقاءَه فى غرفة نومِه بعدَ يومين من تَخَرُّجِهَا؛ الأمر الذى لم يتجرَّأْ عليه (بابا) قَطُّ منذُ دخولِ رُقَيَّةَ المَنْزِلَ

بوصفِها زوجةً له. و لا يَقِلُّ الحِوَارُ الذى جَرَى بينَهُمَا مُفَاجَأَةً مِنَ اللِّقَاءِ نَفْسِه. فقال أبوها باهتمامٍ:

- يا عائشةُ، ما خُطَّتُكِ التَّالِيَةُ بما أَنَّكِ قد تَخَرَّجْتِ فى المدرسةِ الثانويَّةِ.

لقد أثارَ هذا السُّؤَالُ مفاجأةَ عائشةَ. لم تَتَوَقَّعْ ذلك مِن أبيها أَلْبَتَّة. فاعْتَصَمَتْ بالصَّمْتِ. فنظرَ إليها (بابا) مبتسمًا فقال:

- ألا تُرِيدِينَ أن تُجِيبِى عن سُؤَالِى يا عائشةُ؟

فنَظَرَتْ إلى أبيها بصورةٍ تَبْعَثُ على الغرابةِ فالتقتْ أَعْيُنُهُمَا، الأمرُ الذى لم تَتَجَرَّأْ عليه منذُ ولدتْها أُمُّها. فقالت:

- أنتَ وَالِدِى. والأمر إليكَ يا (بابا).

فابتسمَ (بابا) مِنْ جَدِيدٍ، وَنَهَضَ من سريرِه، فأمسكَ بِكَتِفِ عائشةَ و هَزَّ رأسَه قائلا:

- يا عائشةُ، بارَكَ اللَّهُ فِيكِ ورَزَقَكِ كُلَّ خيراتِ الحياةِ التى تَطْمَعِينَ فيها. لا تحسبينى مُكِنًّا لَكِ الكَرَاهِيةَ أو غَافِلاً عن ما يَحْدُثُ فى هذا المَنْزِلِ. إنما أَتَعَامَى عن ذلك؛ بغيةَ أن

يَسُودَ السَّلامُ فيه. يا عائشةُ، صَدِّقِينِي. إننى أُحِبُّكِ كما كنتُ أُحِبُّ وَالِدَتَكِ. ولَسْتُ أَشُكُّ فِى أنها لو كانتْ مُطَّلِعَةً على كَمْ كُنْتُ أُكِنُّ لها حُبًّا بعدَ ولادتِكِ لما أَصَرَّتْ على الطَّلاَقِ. إنَّكِ لم تَتْرُكِى مِنْهَا مَغْدًى ولا مَرَاحًا. ما أنتِ إلا خُلاَصَتُها مِن حيثُ المَشْيِ والكَلاَمِ والخُلُقِ ومِن حيثُ الشَبَهِ أيضًا. لقد حَظَرْتُ زيارةَ أُمِّكِ عَلَيْكِ لا لِأَنِّى أُرِيدُ أن أُضَيِّقَ الخِنَاقَ عَلَيْكِ وإنما فعلتُ ذلك انتقامًا مِنْهَا على رحيلِها عَنِّى. لقد كنتُ مُتَوَهِّمًا أَنَّنِى إذا أَبْعَدْتُكِ عَنْهَا فإنَّ ذلك سيضطرُّها للعَوْدَةِ إِلَىَّ بوصفِها زوجةً لى. ولكن، كلا! إنها امرأةٌ شديدةُ العِنَادِ. إنَّها تَتَمَرَّغُ فى السَّعَادَةِ الزَّوْجِيَّةِ الآنَ. وقد أُنْعِمَ عليها بخمسةِ أولادٍ آخرين هناك.

فنظرتْ عائشةُ إليه مُتَعَجِّبَةً. فَمَضَى قائلاً:

- لقد قَطَعْتُ وعدًا على نَفْسِى أن أسمحَ لَكِ بزيارة وَالدتِكِ فى دارِها الزَّوْجِيَّةِ إذا ظَهَرَتْ نَتَائِجُكِ بتقادير مُرْضِيَةٍ.

فَوَقَفَتْ عائشةُ وقد اسْتَغْلَقَ عليها الكلامُ أَوَّلاً. ثم عانَقَتْ أباها بكلِّ ما أُوتِيَتْ مِن قُوَّةٍ تَقْدِيرًا لهذه اللَّفْتَةِ اللَّطِيفَةِ فلم تَلْبَثْ أنْ انفجرت بالبُكَاءِ.

فاختارتْ (أُمَّا) أن تَدْخُلَ الغُرْفَةَ فى تلك اللَّحْظَةِ. فأثارَ صَدْمَتَها أَنَّها صَادَفَتْ أَبًا و ابْنَتَهُ فى مُعَانَقَةٍ عَاطِفِيَّةٍ. فَتَأَلَّمَتْ مِن ذلك جِدَّ تَأَلُّمٍ، فما لَبِثَتْ أن خَرَجَتْ مِنَ الغُرْفَةِ خِلْسَةً.

فلما غَادَرَتْ عائشةُ الغُرْفَةَ، دَخَلَتْ فى الغُرْفَةِ المُشْتَرَكَةِ بينَها وبين ميمونةَ وأمِينَةَ بسرعةٍ. وشَتَّان ما بينَ تَصَرُّفِ ميمونة نُجَاهَ عائشة وتَصَرُّفِ أمينة تجاهَهَا. وقد بدأ ذلك منذ اليوم الذى انضمَّتِ الاثْنَتَانِ إلى العَائِلَةِ. كانتْ أَمِينَةُ تُكِنُّ لعَائِشَةَ ضَغِينَةً هَائلَةً. فَهِيَ تَتَرَسَّمُ خُطَى أُمِّهَا. وأما مَيْمُونَةُ التى كانتْ تَتَحَلَّى بدَمَاثَةِ الأَخْلاَقِ واللُّطْفِ فهى تُعَامِلُ عائشةَ كَمَا تُعَامِلُ أُخْتٌ أُخْتَهَا.

فَأَخْرَجَتْ عائشةُ المُصْحَفَ الشَّرِيفَ فَتَلَتْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ شُكْرًا للَّهِ على تَغْيِير أَبِيهَا مَوْقِفَهُ. كما شَكَرَتِ اللَّهَ على مَنْحِهِ أَبَاهَا القدرةَ على السَّمَاحِ لها بزيارة أُمِّهَا. وبينَما هى مُتَلَبِّسَةٌ

بتلاوةِ المُصْحَفِ الشَّرِيفِ، إذ دَخَلَتْ أمينةُ الوَقِحَةُ فانتزعتْ مِنها المُصْحَفَ قَسْرًا دُونَ احترامِ آدابِ مَسِّ المُصْحَفِ الشَّرِيفِ كما نَصَّتْ على ذلك الشريعةُ الإسلاميَّةُ.

فَتَجَاهَلَتْها عائشةُ. و لكنْ، لا تَزَالُ فى رَأْسِ أمينةَ نُعَرَةٌ. فقالتْ:

- ماذا كُنْتِ تَفْعَلِينَ فى غُرْفَةِ (بابا)؟ ماذا كُنْتِ تُخْبِرِينَه؟

فَغَضِبَتْ عائشةُ على هذين السُّؤَالَيْن، فَرَدَّتْ قائلةً:

- أيَكْفِى بهذا مُبَرِّرًا لأَنْ تَنْتَزِعِى المُصْحَفَ مِنِّى و أَنَا مُتَلَبِّسَةٌ بِتِلاَوَتِهِ؟

فَضَحِكَتْ أمينةُ فقالتْ فى حِدَّةٍ:

- يا مُرَائِيَةُ! أَتَظُنِّينَ أَنَّكِ قادِرَةٌ على أن تَشِى بِـ(أُمَّا) أو بِنَا إلى أبِيكِ؟ لا تَظُنِّى أَنَّه سَيُصَدِّقُكِ. لولا فَكَّرْتِ فى خُطَّةٍ جَدِيدَةٍ.

وما كادتْ تَتَفَوَّهُ بذلك حتى هَمْهَمَتْ فخرجتْ مِنَ الغُرْفَةِ. فجلستْ عائشةُ مُرْتَجًا عليها. ثم تَنَاوَلَتِ المُصْحَفَ مِنْ فوق السَّرِيرِ حيثُ كانتْ أمينةُ قد رَمَتْ بِه فاسْتَمَرَّتْ بتلاوتِه.

ثم ظهرتِ النَّتائِجُ بعدَ ثلاثةِ أشهرٍ. فَنَجَحَتْ عائشةُ فى المَوَادِّ التِّسْعِ التى قَدَّمَتْهَا. فأَحْرَزَتْ تقديرَ: "ممتاز" فى خَمْسِ مَوَادٍّ وتقديرَ: "جيد جدًّا" فى أَرْبَعِ مَوَادٍّ. فلم تَقْضِ عائشةُ ولا أَبُوهَا العَجَبَ مِنْ هذا الإنْجَازِ نظرًا إلى أنَّ أباها كانَ يَحُثُّهَا على المُوَاظَبَةِ على قِرَاءَةِ كُتُبِها. وفى المُقَابِلِ، كانتْ مُزْمِعَةً عَلَى إعْطَائِهِ انطباعًا حَسَنًا عن نفسِها. لقد كانتْ مُطِيعَةً ومُجْتَهِدَةً فى الكُلِّيَّةِ.

فلما دخلَ أَبوها المنزلَ حَامِلاً مَعَهُ النَّتَائِجَ، أَطْلَقَتْ عائشةُ زَغْرَدَةً فرحًا بذلك. فَطَوَّقَتْ أباها بِذِرَاعَيْها منفجرةً بالبُكَاءِ، فبكتْ بُكاءَ الانْفِرَاجِ بصورةٍ تِلْقَائِيَّةٍ. فقال (بابا) وهو يُكَفْكِفُ دَمْعَها بِمِنْدِيلِهِ الأَبْيَضِ النَّظِيفِ:

- لا تَبْكِى يا عائشةُ. يَجْدَرُ بِكِ أن تَكُونِى مَسْرُورَةً. لقد أَبْلَيْتِ بَلاَءً حَسَنًا. وسَتَرْتَادِينَ أَيَّ جامعةٍ يَقَعُ اختيارُكِ عليها.

فقالتْ و قد اسْتَنْشَقَتْ مُمْتَخِطَةً:

- أَعْرِفُ ذلك. وَهَلْ يُبْكِينِي غيرُ ذلك؟ لماذ أَكُفُّ عن أن أَبْكِىَ بُكَاءً حَسَنًا؟ لقد تَجَشَّمْتُ عَرَقَ القِرْبَةِ لهذا الإنجازِ،

ولا شكَّ أَنَّنِي أَسْتَحِقُّهُ. وأخيرًا، سَيَتَسَنَّى لِي لِقَاءُ وَالِدَتِي بِنَاءً عَلَى وَعْدِكَ.

فنظرتْ (أُمَّا) و أَوْلاَدُها إلى عائشةَ بِازْدِرَاءٍ ثم خَرَجُوا مِن غُرْفَةِ الجُلُوسِ. لم يَسُرُّهُمْ نَجَاحُ عائشةَ. و كانتْ مَيْمُونَةُ وأَمِينَةُ قد عَجَزَتَا عن تحقيقِ نَجَاحٍ ولو فى مَادَّةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ بَيْنِ المَوَادِّ التى قَدَّمَتَاها.

وبعدَ يَوْمَيْنِ، صَدَرَتْ رِسَالَةُ قَبُولِها مِن إدارة امتحانات القبول فى الجامعات. مُفَادُها أنَّ عائشةَ قد حَصَلَتْ على القَبُولِ لدراسة علم الاجتماع فى جامعة عثمان بن فُودِيُو المَرْمُوقَةِ الواقعةِ فى مدينةِ صُكُتُو. فكانتِ السَّمَاءُ سَقْفَ سُرُورِها. ثم دَلَكَتْ عَقِبَيْهَا استعداداً لِلِقَاءِ أُمِّها بصورةٍ مُذْهِلَةٍ.

وكانتْ ليلةُ اليومِ الذى سَتَشُدُّ عائشةُ الرِّحَالَ فيه إلى كَنُو لِلِقَاءِ أُمِّها مِن أَشَدِّ لَحَظَاتِ حياتِها فَرَحًا. سَتَلْقَى أُمَّهَا مُفْعَمَةً بِبَهْجَةٍ عَارِمَةٍ.

لقد نَجَحَتْ فى امتحاناتِها و نالتْ قَبُولاً فى جامعةٍ مَرْمُوقَةٍ.

فقَضَّ المَضْجَعُ عليها. فتَمَلْمَلَتْ عَلَى فِرَاشِها كأنَّ جَنْبَها على حَسَكِ السَّعْدَانِ. فانْتَظَرَتْ على أَحَرَّ مِنَ الجَمْرِ أنْ يُشَيِّدَ المُؤَذِّنُ أَذَانَ الصُّبْحِ.

فلما كانتْ عَلَى أُهْبَةِ الرَّحِيلِ، قَرَعَتْ بَابَ (أُمَّا) لتَوْدِيعِها. فرَمَقَتْها (أُمَّا) بِبَصَرِهَا مِنْ فَرْعِ رأسِها إلى أَخْمَصِ قَدَمَيْهَا ثُمَّ مِن أَخْمَصِ قَدَمَيْهَا إلى فَرْعِ رَأْسِها اشْمِئْزازًا مِنْها. لقد كانتْ تعلمُ بلا رَيْبٍ ولا رَجْمِ غَيْبٍ أنَّ عائشةَ جميلةٌ، أجملُ مِن ابْنَتَيْها. ثم تَمَنَّتْ لها سَفَرًا مَيْمُونًا نَاخِرَةً بذلك كَرْهًا.

فلما غادرتْ عائشةُ، قَضَّ المَضْجَعُ على (أُمَّا). فجعلتْ تُشَاهِدُ فى خَيَالِهَا صورةَ رَبِيبَتِها وتَتَخَيَّلُ نَضَارَتَها ومُسْتَقْبَلَها الوَاعِدَ. وتشعرُ بالخوف مما قد يَحْدُثُ لابْنَتَيْها ولحَيَاتِها هِيَ فيما لو أَطْلَقَتْ لهما العِنَانَ لِتَخُوضَا تَنَافُسًا مَعَ عائشةَ. ثم فَكَّرَتْ فى ابْنَتَيْهَا وفى مُسْتَقْبَلِهِمَا المُتَغَطِّى بِالضَّبَابِ. لَيْسَتَا على قَدْرِ عائشةَ فى الذكاءِ. فَتَخَيَّلَتْ ما سَيَلْحَقُ بها من عارٍ بوصفِها أُمًّا إن لم يُتَوِّجِ اللَّهُ ابْنَتَيْهَا بالتَّوْفِيقِ فى زَوَاجِهِما. وكانتْ قد رَأَتْ فى مَنَامِها كُلاًّ مِنْهُمَا فى مَنْزِلٍ

رَدَاحٍ مُزَوَّدٍ بكلِّ وسائلِ الرَّاحَةِ. فلم تَكْتَرِثْ للتَّفْكِير فى ما سَيَكونُ مَصِيرَ أَمرِهَا فيما لو حَدَثَ عَكْسُ ذلك إلا فى ذلك الصَّبَاحِ.

لا، لا، لن تَبْقَى مَكْتُوفَةَ اليَدَيْنِ حَتَّى يَحْدُثَ عَكْسُ مَرَامِهَا. يَجِبُ عليها أنْ تُؤَمِّنَ لكلِّ وَاحِدَةٍ منهما زوجًا بكل وسيلة مِنَ الوسائل المُمْكِنَةِ، ولو كَلَّفَ ذلك إراقةَ آخِرِ قَطْرَةٍ مِن دَمِهَا. كما يَجِبُ عليها أن تُؤَمِّنَ لِكُلِّ واحدةٍ منهما زَوْجًا ثَرِيًّا وَاسِعَ النُّفُوذِ، سَهْلَ الانْقِيَادِ.

رُؤْيَةُ (أُمَّا) عائشةَ تلكَ الغُدْوَةَ مُفْعَمَةً بالحَمَاسَةِ و الأَمَل مما جَعَلَها تُدْرِكُ بشكلٍ واضِحٍ كم كانَ وَضْعُها بَاعِثًا على اليَأْسِ وكم ستكونُ عَاجِزةً إن جَمَحَ بِهَا مُبْتَغَاهَا. وكانتْ كراهيتُها لعائشة تلك الغداة أَشَدَّ مِن ذى قَبْل. ووَقَعَ جَمَالُها وذَكَاؤُهَا مِنْ (أُمَّا) مَوْقِعَ الكَرَاهِيَةِ. وكانَ ذلك سَافِرًا. وكانتْ براءةُ عائشةَ أَشَدَّ خِصَالِها الحَمِيدَةِ إثارةً لكَرَاهِيَةِ (أُمَّا). وكانتْ قبلَ ذلك الصَّبَاحِ مُتَعِضَةً مِن عائشةَ غَيُورًا مِنْهَا. ثم جَعَلَتْ مَخَاوِفُهَا تِلكَ المَشَاعِرَ تظهرُ فى أَقْبَحِ صورتِها تلك الغداة.

وكَانَتِ الحَمَاسَةُ و المُتْعَةُ اللتان تمتلأُ بهما التحيةُ التى أَزْجَتْها عائشةُ إلى (أُمًّا) ذلك اليوم على قَدْرِ الكَرَاهِيَةِ التى تُكِنُّهَا (أُمًّا) لها. وكذلك رحلتُها تلك. وما كادتْ عائشةُ تَرْكَبُ السَّيَّارَةَ حَتَّى شَعَرَتْ بأنْ تنفجرَ بِالبُكَاءِ فَرَحًا بِانْفِرَاجِهَا مِنْ ضِيقِهَا. وكانَ فِكْرُهَا سَابِحًا فى فَلَكِ طُفُولَتِهَا طَوَالَ فَتْرَةِ الرِّحْلَةِ مُرَكِّزًا تَحْدِيدًا على تَصَرُّفِ (أُمًّا) تُجَاهَها. لقد حَوَّلَهَا تَصَرُّفُ (أُمًّا) إلى حَيَوَانٍ مُرَوَّعٍ. وكانَتْ فى أَغْلَبِ الأَحَايينِ يُسَيْطِرُ عليها التعبُ و يَمْنَعُها مِنَ التركيز فى الفصل إثرَ قِيَامِهَا بالواجبات المَنْزِلِيَّةِ. و مُنِيَتْ دِرَاسَاتُها بِمَشَاقٍّ شَدِيدَةٍ؛ الأَمْرُ الَّذِى جَعَلَهَا تَنْكَمِشُ على نَفْسِهَا مُتَنَائِيَةً عن صَوَاحِبِهَا عائشةً حياةً انْطِوَائِيَّةً.

ولم تَعُدْ تلكَ البِنْتَ النَّشِطَةَ التى كانَ مُعَلِّمُوهَا وصَوَاحِبُها يَعْرِفُونَهَا سَابِقًا. وأثارَ ذلك قَلَقَهُمْ. وكانَ الذين تَعُدُّهُم إخواتَها يَقْلِبُونَ لها ظَهْرَ المِجَنِّ فى المنزل. وكانَ جَفَاؤُهُم لها يُؤْلِمُها بصورةٍ عَمِيقَةٍ ويَجْعَلُها أسْرَعَ مِنْ مُعْظَمِ أَتْرَابِها نُمُوًّا غير أنَّ ذلك يَحْزُنُها ويُوحِشُهَا.

فلما أَعْمَلَتْ عائشةُ ذِهْنَها فى مَاضِيهَا، خَلَصَتْ إلى الاعتراف بأنَّ قَسْوَةَ (أُمَّا) التى كَادَتْ تُحَوِّلُها إلى وَحْشٍ وغيرها مِنَ الأَحْدَاثِ المُمَاثِلَةِ التى انْثَالَتْ على مشهدِ حَيَاتِها الطُّفُولِيَّةِ لَيْسَتْ إلا قَدَر اللَّهِ عليها، لا مَفَرَّ لها منه. كما خَلَصَتْ إلى الاعتراف بأنَّ اللَّوْمَ يَنْصَبُّ على (بابا) على خَلْفِيَّةِ أنه تَجَاهَلَ الأحداثَ الوَاقِعَةَ فى مَنْزِلِه مُطْلِقًا العِنَانَ لـ(أُمَّا) لكى تَتَحَكَّمَ بِكُلِّ شىءٍ حَتَّى آخِرِ اللَّحْظَةِ تَقْرِيبًا.

فتذكَّرتْ عائشةُ حَادِثَةً تَتَمَثَّلُ فى نِقَاشٍ دَارَ بين (بابا) و (أُمَّا)، وكانتْ هى مِحْوَرَ هذا النِّقَاشِ. ذاتَ مساء، بينما هى فى طريقِها إلى غُرْفَتِها إذ سَمِعَتْ (أُمَّا) تقول:

- يجبُ عَلَىَّ أن أقومَ بشىءٍ بشَأْنِ عائشة. إنها صَعْبَةُ المِرَاسِ، واللهِ صبعةُ المراس. وطريقتُها فى القيام بأمورها أَشْبَهُ بطريقةِ العِفْرِيتِ مِنَ الجِنِّ قُبْحًا وغَرَابَةً. وإذا كَلَّفْتَهَا عَمَلاً قَامَتْ به فى أَسْرَعِ وقتٍ مُمْكِنٍ ثم تَسَلَّلَتْ قاصدةً كُتُبَها. إنَّها غَرِيبَةٌ.

فَسَأَلَها (بابا) فى هدوءٍ:

- هل القراءةُ شيءٌ غريبٌ عِنْدَكِ؟ إنما أنتِ قاسِيَةٌ على هذه البِنْتِ يا رُقَيَّةُ. اتْرُكِيهَا و شَأْنَهَا.
- لا تَفْهَمُ، و لن تَفْهَمَ. إنها تَرْتَكِبُ جَرَائِمَ شَتَّى عندما تَخْلُو مِنْكَ هذه الدارُ. و تَزْعُمُ رَغْمَ ذلكَ أَنَّنِي أَرْكَبُهَا بالْمَكْرُوهِ.
- ماذا تَرْمِينَ إليه؟ اذْكُرِي جَرِيمَةً وَاحِدَةً مِنْ جَرَائِمِهَا عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ؟

فَتَنَفَّسَتْ رُقَيَّةُ الصُّعَدَاءَ عَاجِزَةً عن تَعْيِينِ جَرِيمَةٍ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ.

- أَشْفِقِي على هذه البِنْتِ يا رُقَيَّةُ. كلما رَجَعَتْ إلى المنزل لقضاء إجازتها أَرْهَقْتِهَا عَمَلاً. إنها تقومُ بالتنظيف والطَّبْخِ وغيرِهما مِنَ الوَاجباتِ المَنْزِلِيَّةِ. لماذا لا تُسَاعِدُها مَيْمُونَةُ وأمينةُ؟

فَرَدَّتْ رُقَيَّةُ مُدَافِعَةً عَنْ نَفْسِها وقد ثَارَ ثَائِرُها:

- إن ذلك مِنْ وَاجِبَاتِها.
- لماذا أَعْفَيْتِ مَيْمُونَةَ وأَمِينَةَ مِنْ ذلك؟ لن تَنْطَلِيَ عَلَيَّ حِيلَتُكِ هذه يا رُقَيَّةُ. ولن تَنْجَحِي فى الحَيْلُولَةِ بَيْنَ عائشةَ

وخيراتِ الحَيَاةِ التى يُخَبِّؤُهَا لها المُسْتَقْبَلُ فى مَذَاخِرِهِ. إنما أَسْتَطِيعُ تَأْمِينَ لها الحِمَايَةَ ضِدَّ مَكَائِدِكِ فى حُضُورِى. ولكنْ، سيَنْقَلِبُ سِحْرُكِ عَلَيْكِ يَوْمًا مَّا.

- لا يَخْفَى عَلَىَّ أَنَّكَ لَنْ تَفْهَمَ. ولا أَدْرِى لماذا يَثُورُ ثَائِرُكَ كُلَّمَا أَنْعَى عَلَى عَائِشَةَ خِصَالَهَا السَّيِّئَةَ. إِنَّنِى لا أَنْوِى أن أُلْحِقَ أَذًى بِهَا وإنما أُحَاوِلُ مُسَاعَدَتَهَا. ولكن، بما أَنَّنى لَسْتُ وَالِدَتَهَا فإنَّكَ لن تَعْقِلَ أَقْوَالِى ولا أَفْعَالِى تُجَاهَهَا.

فتَنَفَّسَ (بابا) الصُّعَدَاءَ تَرْوِيحًا عن نَفْسِه فغَادَرَ غُرْفَةَ الجُلُوسِ. لقد كانَ على بَيِّنَةٍ مِنْ أَنَّ الجَدَلَ قد يَسْتَمِرُّ بَيْنَهُمَا أَيَّامًا ما لم يَضَعْ له حَدًّا. فاسْتَمَعَتْ عائشةُ التى كانتْ وَاقِفَةً مِنْ وَرَاءِ الحِجَابِ إلى حِوَارِهِمَا مُصَادَفَةً. وكانتْ زَوْجَةُ أَبِيهَا تَصِفُهَا بِأَنَّهَا ابنةٌ مُشَاكِسَةٌ ومُدَلَّلَةٌ وأنها لا تَرَى أَبْعَدَ مِن أَرْنَبَةِ أَنْفِهَا وأنها كَنُودٌ نتيجةَ أَنَّ (بابا) يَهْتَمُّ بأَمْرِهَا اهْتِمَامًا كَبِيرًا. ولكنَّها على يَقِينٍ مِن أَنَّها ابنةٌ مُطِيعَةٌ. وكانتْ تَمْتَثِلُ الأَوَامِرَ دُونَ سُؤَالٍ أو احْتِجَاجٍ تَصَاوُنًا مِنَ التَّعَرُّضِ للأَذَى وعِلْمًا مِنْهَا أَنَّ التَّمَرُّدَ قد يُؤَدِّى إلى ضَرَرٍ عَاطِفِيٍّ وأَلَمٍ جَسَدِيٍّ قد يَبْقَى أَثَرُهُمَا إلى الأبَدِ.

ولقد أَجْحَفَتْ (أُمَّا) بِحَقِّ عَائِشَةَ أَيَّمَا إِجْحَافٍ. وكانتْ مَحْرُومَةً مِن مُتْعَةِ زِيَارَةِ صَدِيقَاتِها زَعْمَ أنَّ أَمِينةَ ومَيْمُونَةَ كَانَتَا تُمْضِيَانِ أَيَّامًا فى دِيَارِ صَدِيقَاتِهما. وبَدَا أَنَّها تَدْفَعُ ثَمَنًا بَاهِظًا عِوَضًا عن خُلُوِّ الدَّارِ مِن أُمِّها. وطَابَتْ عن جَمِيعِ ضُرُوبِ الصَّدَاقَةِ نَفْسًا تَجَنُّبًا للتَّعَرُّضِ لِلْأَذَى.

ولقد دَخَلَتْ فى غُرْفَتِهنَّ يَوْمًا مَشْيًا على أَطْرَافِ أَصَابِعِ رِجْلَيْها فى مُحَاوَلَةٍ لإخفاءِ دُمُوعِ الحُزْنِ التى كانتْ تَتَهَدَّدُ بِالانْسِكَابِ.ثم بَلَغَتْ مِنَ العُمْرِ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً بعدَ يومين مِنَ الحَادِثَةِ. وكانتْ فى المنزل لقضاء عُطْلَةِ الفَتْرَةِ الأُولَى من سَنَتِها النِّهَائِيَّةِ فى المَدْرَسَةِ الثَّانَوِيَّةِ. فَمَلأَهَا الشُّعُورُ بِأَنَّهَا قَدْ بَلَغَتْ أَشُدَّهَا و أَنَّهَا قَدْ نَضِجَتْ نُضُوجًا يَضْمَنُ لها اسْتِقْلاَلَهَا نظرًا إلى أنَّها فى السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها و أنها بَاتَتْ فى سَنَتِها الأخيرة. فَقَبِلَتْ دَعْوَةً مِنْ إِحْدَى صَدِيقَاتِها لِشُهُودِ حَفْلَةِ زَوَاجِ أُخْتِها الكَبِيرَةِ، مُسِيئَةً لِتَقْدِيرِ (أُمَّا).

ثم جاءتْ صديقتُها تلك لِتُسَلِّمَ إليها بِطَاقَةَ الدَّعْوَةِ الطَّوِيلَةَ الانْتِظَارِ بعدَ يَوْمٍ وَاحِدٍ مِن عِيدِ مِيلاَدِها. فلما غادرتْ صديقتُها،

تَحَرَّقَتْ عائشةُ شَوقًا فَلَمْ تَتَمالَكْ عن الانتظار حتى يعودَ (بابا) قبل أن تُخْبِرَ (أُمَّا) عَن الدَّعْوَةِ. فَتَوَجَّهَتْ إلي غُرْفَةِ الجُلُوسِ مُسْرِعَةً. فأَخْبَرَتْهَا عن ذلك. لقد أَخَذَتْهَا نَشْوَةُ السُّرُورِ فأَنْسَتْهَا أنَّ (أُمَّا) كانتْ قد أَكْرَهَتْهَا على رَدِّ دَعَوَاتٍ مُمَاثِلَةٍ سَابِقًا.

وبَدَا أنَّ حَيَاتَهَا سَتَخْطُو خُطْوَتَهَا الأُولَى. ولكنَّ الوَقْعَ كَانَ كَالمَوْتِ حين يَقِفُ لِلْمرْءِ بالمِرْصَادِ. فقالتْ (أُمَّا):

- مُسْتَحِيلٌ، لن تَشْهَدِى الحَفْلَةَ.

فَجَفَلَتْ عائشةُ قَائِلَةً:

- ولكنْ، لِمَ يا (أُمَّا)؟ إنَّنِي لَسْتُ مُسَافِرَةً إلى خَارِجِ المَدِينَةِ و لن أُمْضِيَ لَيْلَةً واحدةً هناك. سأَعُودُ إلى المنزل كلَّ يَوْمٍ قبلَ السَّادِسَةِ مَسَاءً.

- ليس لكِ وَقْتٌ لتلك الزِّيَارَاتِ.و فضلاً عن ذلك، مَنْ سيَعْتَنِي بالدَّارِ إذا كُنْتُ فى السُّوقِ أو زَارَتْنِي زَائِرَاتٌ؟ أجَوَابُ أَلْفُ لاَ.

فقالتْ عائشةُ مُصِرَّةً:

- ولكنَّ أَمِينَةَ ومَيْمُونَةَ مَوْجُودَتَانِ. وسَأَقُومُ بِوَاجِبَاتِى قبلَ أَنْ أَنْطَلِقَ.

- قُلْتُ لاَ، و إنَّ هذا لَفَصْلُ الخِطَابِ.

فوَقَفَتْ عائشةُ مُرْتَجًا عَلَيْهَا فى أَوَّلِ الأَمْرِ.ثم طَغَتْ على قَلْبِهَا تلكَ الكَرَاهِيَةُ التى كانتْ تُكِنُّهَا لـ(أُمًّا) والتى تَرَاكَمَتْ فى قَلْبِهَا على مَرِّ السَّنَوَاتِ مُتَوَلِّدَةً مما تَرْكَبُهَا بِهِ (أُمًّا) مِنَ المَكَارِيهِ. لقد حَاوَلَتْ أَنْ تَبْذُلَ لها الطَّاعَةَ ولكنَّ محاولتَها بَاءَتْ بالفَشْلِ. وما صَنَعَتْ إليها مِنْ صَنِيعَةٍ تُرِيدُ بها إِرْضَاءَهَا إلاَّ وقعتْ عندَ (أُمًّا) مَوْقِعَ الرَّفْضِ و الإِنْكَارِ. لقد حَصْحَصَ الحقُّ الآنَ. وباتتْ عائشةُ على يَقِينٍ مِنْ أَنَّ (أُمًّا) لن تَأْخُذَهَا بالحُسْنَى أَيًّا كانَ نوعُ إِحْسَانِهَا إِلَيْهَا.

فقالتْ بِصَوْتٍ قَوِيٍّ و حَادٍّ مُفْعَمَةً بالإِحْبَاطِ:

- يا (أُمًّا) !ما أَسْأَلُكِ إلاَّ أن أُلَبِّىَ دَعْوَةَ صَدِيقَةٍ مُقَرَّبَةٍ مِنِّى ولكنَّكِ تَرْفُضِينَ. ليسَ ذلك مِنَ العَدَالَةِ فى شىءٍ.

فأَفَاقَ غَيْظُهَا مِنْ سُبَاتِهِ الطَّوِيلِ. فمَضَتْ قائلةً:

- إنَّمَا مَنَعْتِنِي مِن تَلْبِيَةِ دَعْوةِ صَدِيقَتِي طاعةً للكَرَاهِيَةِ التى تُكِنُّهَا لى فى صَدْرِكِ. و لن تَحُولِى دونَ أن أكُونَ ابنةَ (بَابَا) المُفَضَّلَةَ أَبَدًا.

فَنَادَتْهَا (أُمَّا) لاَهِثَةً:

- يا عائشةُ.

- أنا آسفةٌ يا (أُمَّا)، ولكن، قد آنَ الأَوَانُ، ولا يَخْفَى ذلك عَلَيْنَا جميعًا. لقد اعْتَصَمْتُ بالصَّمْتِ سَنَوَاتٍ ولكنَّ ذلك سَيُصْبِحُ شيئًا مِنَ المَاضِى اعتبارًا منَ الآن. لقد سَئِمْتُ مِنَ الطَّرِيقَةِ الغَاشِمَةِ التى تُعَامِلِينَنى بِهَا. اسْمَعِينِي، مَا تُرْغِمِينَنِي عَلَى السَّمْعِ والطَّاعَةِ إلاَّ أَنَّنِي أَدِينُ لـ(بابا) بالاحْتِرَامِ وأُكِنُّ له حُبًّا. أنا ممنوعةٌ مِن ارتيادِ الأَمَاكنِ التى تَرُوقُنِي ومَنْهِيَّةٌ عَنِ الأَفْعَالِ التى تَحْلُو لِي. لا شَكَّ أنَّ مَرَدَّ ذلك إلى أَنَّنِي فى السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِن عُمْرِى وأننى لا أَزَالُ أَرْتَادُ المَدْرَسَةَ الثَّانَوِيَّةَ. ولكنْ فى القَرِيبِ العَاجِلِ، سأكونُ كَبِيرَةً بالكِفَايَةِ للرَّحِيلِ عَنْكِ وللقيام بما يَحْلُو لِي فِي الوَقْتِ الَّذِى يَرُوقُنِي.

فمَضَتْ عَائِشَةُ تَبُوحُ بِسَرِيرَةِ نَفْسِها وقد أُفْرِجَ عَنْ لِسَانِهَا بَعْدَ أَنْ قَبَعَ فِي زِنْزَانَةٍ مِن سِجْنِ (أُمَّا) رَدَهًا مِنَ الزَّمَنِ:

- سأَرَى مَنْ ستُسَاعِدُكِ عَلَى أَدَاءِ الوَاجِبَاتِ المَنْزِلِيَّةِ بما فى ذلك الطَّبْخُ والتَّنْظِيفُ والغَسْلُ. سأَرْحَلُ عَنْكِ بعدَ بِضْعِ سَنَوَاتٍ وعن شَكَاوَاكِ وأَوَامِرِكِ الغَاشِمَةِ وعن ظُلْمِكِ وجَوْرِكِ. يا (أُمَّا) لقد عَلَّمَنِي جَوْرُكِ أنَّ المَغْلُوبِينَ عَلَى أَمْرِهِمْ هُمْ الذين يُرْغَمُون على امْتِثَالِ الأَوَامِرِ. قد تَمْلِكِينَ القُدْرَةَ على إِرْغَامِي الآن ولكنَّ ذلك لن يَدُومَ و لن يستمرَّ إِلَى الأَبَدِ.

ثم انتظرتْ عائشةُ أن تَرُدَّ (أُمَّا) بِلَطَمَاتِها وإِهَانَاتِها المَأْلُوفَةِ ولكنَّ ذلك لم يَحْدُثْ. لقد تَمَلَّكَهَا الصَّمْتُ المَصْدُومُ. ثم خَرَجَتْ عائشةُ مِنَ الغُرْفَةِ تَارِكَةً (أُمَّا) فى صَدْمَتِهَا مُرْتَجِفَةً غَضَبًا مُنْفَرِجَةً مِنْ هَمِّها فَرِحَةً بِنَجَاتِهَا مِنَ الضَّرْبِ ومُتَعَجِّبَةً مِنْ جَيَشَانِهَا العَاطِفِيِّ.

لقد بلغتْ عائشةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِن عُمْرِها وآمَالُها لا تَزَالُ مُبَهْرَجَةً. وكُلَّما تَرَامَتْ طُمُوحَاتُهَا إلى الظَّفَر، تَهَشَّمَتْ عَلَى صَخْرَةٍ مِن خَيْبَةِ الأَمَل ثم لاَ تَلْبَثُ أَنْ تَتَلاَ شَى فَلاَ تَتَوَسَّمُ عائشةُ الفَرَجَ فى المُسْتَقْبَلِ القَرِيبِ.

وفى تلك الليلة، أَدْرَكَتْ عائشةُ وهِىَ على سَرِيرِها أَنَّهَا نَجَحَتْ فى إِلْقَاءِ الرُّعْبِ فى قَلْبِ (أُمَّا). وكانَ فى حُسْبَانِهَا أَنَّ (أُمَّا) سَتُبْلِغُ (بَابَا) جَيَشَانَهَا العَاطِفِىَّ و لكنَّها لم تُقْدِمْ عَلَى ذلك. لَعَلَّ مَفْعُولَ الصَّدْمَةِ لا يَزَالُ سَارِيًا فيها. وظَلَّتْ (أُمَّا) وَاجِمَةً طَوَالَ ذلك اليوم؛ مما جَعَل عائشةَ تَكْتَشِفُ ما تَتَمَتَّعُ بِه مِن قُوَّةٍ وما طَرَحَتْ على (أُمَّا) من تَهْدِيدٍ. فَعَاشَتْ مُعْتَضِدَةً بِجُرْأَتِها و قَنَاعَتِها حتى غَادَرَتِ المَنْزِلَ فى النِّهَايَةِ.

فَلَمَّا كَبَحَ السَّائِقُ السَّيَّارَةَ على نَحْوٍ فُجَائِيٍّ، انْقَطَعَ حَبْلُ أَفْكَارِ عَائِشَةَ. فاسْتَعَادَتْ انْتِبَاهَهَا. لقد وَصَلُوا إلى كَنو.

وكانَ جَمْعُ الشَّمْلِ بَيْنَ عَائِشَةَ و (مَامَا) مَشْهَدًا مُفْعَمًا بِالْبَهْجَةِ والسُّرُورِ. فَضَمَّتْ (مَامَا) عائشةَ إلى صَدْرِهَا بِكُلِّ ما أُوتِيَتْ مِن قُوَّةٍ.

فَبَكَتْ بُكَاءَ الفَرَحِ والأَمَل والتَّفَاؤُلِ. وأَعْمَلَتْ ذِهْنَهَا فى تلك الآلاَمِ التى اكْتَوَتْ بِنَارِهَا على مَرِّ السَّنَوَاتِ فى زَوَاجِها الذى كان يَغِيبُ فى طَيِّهِ عُنْصُرُ الحُبِّ. ثم أَعْمَلَتْ ذِهْنَهَا فى الطَّرِيقَةِ التى أُرْغِمَتْ بها على قَبُولِ يَدِ أَوَّلَ فى الزَّوَاجِ، رَجُلٍ مِنْ أَقْرِبَاءِها البَعِيدِين. فنَزَلَتْ عِندَ

رَغْبَةِ أَبَوَيْهَا المُتَشَدِّدَيْنِ مَخَافَةَ أَنْ يَتَبَرَّآ منها رَغْمَ احْتِجَاجِهَا على هَذَا الزَّوَاجِ أَوَّلَ مَرَّةٍ. كما أَعْمَلَتْ فِكْرَهَا فى كيفَ اضْطُرَّتْ إلى هِجْرَانِ ابْنَتِها لِتَعِيشَ تحتَ رَحْمَةِ رَابَّةٍ شِرِّيرَةٍ. فَهَزَّتْ رَأْسَها مُتَنَفِّسَةً الصُّعَدَاءَ. ستُصْبِحُ هذه الأحداثُ كُلُّها شَيْئًا مِنَ المَاضِى. لقد تَمَعْدَدَتْ عَائِشَةُ ولم تَعُدْ تلكَ الطِّفْلَةَ المُرَوَّعَةَ التى ظَفَرَتْهَا عَيْنَا وَالِدَهَا آخِرَ ما ظَفَرَتْهَا قبلَ سَنَوَاتٍ.

وتَمَّ تَقْدِيمُ عائشةَ إلى إِخْوَتِهَا وَأَخَوَاتِهَا مِنْ جِهَةِ الأُمِّ الذين لم تَجْتَمِعْ بِهِمْ قَطُّ. و كانَ زَوْجُ (مَامَا) غايةً فى اللُّطْفِ. فعَامَلَها (أَبَّا)- كما يُسَمِّيهِ أَوْلاَدُه- مُعَامَلَته لابْنَتِه مِن صُلْبِهِ.

ثم زَارَ مُخْتَارُ أُمَّ عَائِشَةَ فى أثناءِ وُجُودِهَا فى كَنُو، فَأَعْلَنَ رَسْمِيًّا عن نِيَّتِهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ عَائِشَةَ. وكان مُخْتَارُ لَيِّنَ الكَلاَمِ حَسَنَ المَنْظَرِ ومُتَدَيِّنًا. وما إِنْ أَفْرَغَ جَعْبَةَ بَيَانِه حتى وَقَعَ عندَ (ماما) و (أَبَّا) مَوْقِعَ الصِّهْرِ عندَ أَحْمَائِه. فَبَارَكَتْ (ماما) على ذلك واقْتَرَحَتْ عَلَيْهِ أَنْ يُقَدِّمَ نَفْسَه رَسْمِيًّا إِلَى أبى عائشة فى جُوسْ. فَوَضَعَ مختارُ هذا الاقتراحَ مَوْضِعَ التَّنْفِيذِ مِن قبل أن تُكْمِلَ عائشةُ عُطْلَتَها. وبعدَ أُسْبُوعَيْنِ من زِيَارَتِهِ لجُوسْ، قامتْ عَائِلَتُهُ بِزِيَارَةٍ رَسْمِيَّةٍ إلى (بابا) لِيَخْطُبُوا عائشةَ

إليه وَفْقًا لِلْعَادَةِ. فكَانَتِ السَّمَاءُ سَقْفَ سُرُورِهِ. فما عَتَّبَ أنْ قَبِلَ عَرْضَهُمْ مَغْمُورًا بِفَرَحٍ عَارِمٍ. ثم تَمَّتْ مَرَاسِمُ الخِطْبَةِ بَيْنَ مُخْتَارَ وعَائِشَةَ.

وقَدَّمَتْ عَائِلَةُ مُخْتَارَ هدَايَا الخِطْبَةِ إلى عَائِلَةِ عَائِشَةَ وهى فى فَتْرَتِها الأُولَى فى الجَامِعَةِ وَفْقًا للعَادَةِ المَوْرُوثَةِ فى المُجْتَمَعِ الهَوَسَاوِيِّ. وكانَ عَدَدُ الصَّنَادِيقِ ثَمَانِيَةً. وفى كلِّ صُنْدُوقٍ مِنْها دَسَاتِيجُ مِن نَوْعٍ واحدٍ مِنَ الهَدَايَا انْطِلاَقًا مِنَ الأَقْمِشَةِ المَخْرُومَةِ والأَقْمِشَةِ المُطَرَّزَةِ وُصُولاً إلى المُجَوْهَرَاتِ. ولقد انْشَرَحَ جَمِيعُ أَقْرِبَاءِ عائشةَ لذلك صَدْرًا ما عَدَا (أُمًّا) و ابْنَتَهَا أَمِينَةَ. و أَمَّا مَيْمُونَةُ فكان سُرُورُها سَافِرًا أَيْضًا. ورَادَ وِسَادُ (أُمًّا) مِنَ الغَمِّ تلك اللَّيْلَةَ. لقد باتَ كلُّ شَيْءٍ يَنْزَلِقُ مِنْ خِلاَلِ تَفَارِيجِ أَصابِعِهَا. وكانَ الوُسَطَاءُ الرُّوحَانِيُّونَ الذين كَانَتْ تَسْتَعِينُ بهم قد أَكَّدُوا لها أَنَّ عائشةَ لَنْ تَحْظَى بِخَطِيبٍ نَاهِيكَ مِنْ زَوْجٍ تَخُصُّهُ لِنَفْسِهَا. وكانتْ قد أَنْفَقَتْ أَمْوَالَهَا؛ بُغْيَةَ أَنْ تَظَلَّ عَائِشَةُ تَقْبَعُ فى مَنْزِلِ أبِيهَا ما دَبَّتِ الحَيَاةُ فى جَسَدِهَا، بعدَ زَوَاجِ بِنْتَيْهَا. لقد بَلَغَتْ مَيْمُونَةُ العِشْرِينَ مِن عُمْرِهَا

وبَلَغَتْ أَمِينَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنَ عمرها وكِلْتَاهُمَا أَكْبَرُ سِنًّا مِن عائشةَ بِكَثير ولكنْ، لم يَتَقَدَّمْ أَحَدٌ لِخِطْبَةِ أى واحدة منهما قَطُّ.

وكانتْ عائشةُ مُعْتَزَّةً بتِلْكَ اللَّحَظَاتِ التى تُمْضِيهَا مَعَ مُخْتَارَ. وكانتْ تَدِينُ له بالاحْتِرَامِ. وقَدْ تَوَلَّدَتْ مِنِ احْتِرَامِها هَذَا عَلاَقَةٌ قَوِيَّةٌ كَانَا يَعْتَزَّانِ بِهَا جَمِيعًا.

ثم حُدِّدَ يَوْمُ الزِّفَافِ لَمَّا كانتْ عائشةُ فى سَنَتِهَا الثَّانِيَةِ فى الجَامِعَةِ. فَتَطَلَّعَتْ إلى حُلُولِ ذلك اليَوْمِ مُفْعَمَةً بِأَفْكَارٍ حُبِّيَّةٍ رَاجِيَةً أَنْ تُحَقِّقَ مُسْتَقْبَلاً، أى ذلك المُسْتَقْبَل النَّيِّر الذى طَالَمَا حَلَمَتْ به بِوَصْفِهَا صَغِيرَةً.

ورَفَضَتْ (أُمَّا) أن تَضْرِبَ فى الإِجْرَاءَاتِ التَّحْضِيرِيَّةِ لهذا الزَّوَاجِ بِسَهْمٍ. لقد امْتَلأَ قَلْبُهَا حِقْدًا بحيث إنَّها لم تَتَوَسَّمِ الخيرَ فى هذا الزَّوَاجِ. ومِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، كانَ قَلْبُ عائشةَ يَمْتَلِأُ فَرَحًا بحيثُ إنَّها لم تُلاَحِظْ عُزُوفَ (أُمَّا).

وفَقَدَتْ عَائِشةُ الاحْتِكَاكَ مع مُخْتَارَ يَوْمَيْنِ قَبْلَ انْطِلاَقِ مَرَاسِمِ الزَّوَاجِ. وكانَ الأَصْدِقَاءُ والأَقْرِباءُ قَدْ أَخَذُواْ يَتَوَافَدُونَ تَشْرِيفًا لهذه الحَفْلَةِ. ثم انْقَطَعَتْ حَلْقَةُ الوَصْل بَيْنَ عَائِشَةَ و مُخْتَارَ بِشَكْلٍ

كَامِلٍ. ولم تَشُكَّ عَائِشَةُ فى إِخْلاَصِ مُخْتَارٍ عَلَى اعْتِبَارِ أنه لم يُخَالِفْهَا قطُّ بِخُلُقٍ يَبْعَثُ عَلَى الرِّيْبَةِ طَوَالَ خَمْسِ السَّنَوَاتِ التى مَضَتْ عليهما وهو يَخْطُبُ مَوَدَّتَهَا.

فَتَسَاءَلَتْ عَنْ سَبَبِ هذا الصَّمْتِ الفُجَائِيِّ. وبعدَ صَلاَةِ المَغْرِبِ، جَلَسَتْ تَدْعُو اللَّهَ رَبَّ العَالَمِين وتُسَبِّحُ لهَ بِمِسْبَحَتِهَا سَائِلَةً إِيَّاهُ أَنْ يَجْعَلَ حُلْمَ صَيْرُورَتِهَا زَوْجَةً لمختار مُتَحَقِّقًا.

وفَجْأَةً، أَنْهَضَهَا عَنْ دُعَائِهَا رَنِينُ الهَاتِفِ الذى كانَ بجانب سَرِيرِهَا. فَوَضَعَتِ المِسْبَحَةَ جَانِبًا ثَم تَنَاوَلَتِ السَّمَّاعَةَ.

إنه مُخْتَارُ. فَجَعَلَتْ تَبْكِى وتَضْحَكُ فى آنٍ وَاحِدٍ. فابْتَسَمَ مُخْتَارُ مِن جَانِبِه فقال مَازِحًا:

- يا عَزِيزَتى عَائِشَةُ، أَرْجُو أَنَّ الإِجْرَاءَاتِ التَّحْضِيرِيَّةَ تَسِيرُ وَفْقًا لِلْخُطَّةِ.

فَرَدَّتْ بِنَبْرَةٍ تَنْطَبِعُ عَلَيْهَا بَصَمَةُ السُّلْطَةِ:

- لا وُجُودَ لِلْإِجْرَاءَاتِ التَّحْضِيرِيَّةِ. إِنَّ الزَّوَاجَ مُلْغًى بما أَنَّكَ لَمْ تَعُدْ رَاغِبًا فيه.

- يا سلام! هَدِّئى مِنْ رَوْعِكِ يا عَائِشَةُ. أَنَا آسِفٌ لِلْغَايَةِ. إننى لم أَتَعَمَّدِ السُّكُوتَ. لقد كُنْتُ مُضْطَرًّا للسَّفَرِ إلى إنُوغُ فى مُهِمَّةٍ رَسْمِيَّةٍ طَارِئَةٍ. فَحَاوَلْتُ الاتِّصَالَ مِنْ هُنَاك و لكنَّ الشَّبَكَةَ كَانَتْ رَدِيئَةً. فَلَمَّا نَجَحْتُ أَخِيرًا بالأمس، تَنَاوَلَتْ (أُمَّا) السَّمَّاعَةَ، فَأَقْفَلْتُ الخَطَّ عليها. ولا يَخْفَى عليكِ السَّبَبُ، أليسَ كذلك؟ أنا آسِفٌ بكلِّ مَعْنَى الكَلِمَةِ.

فقالتْ على اسْتِحْيَاءٍ:

- إِذَنْ، متى تَرْجِعُ؟

- سأَنْضَمُّ إِلَيْكِ نَهَارَ الغَدِ و لكنَّ بَلُّو سيَرَاكِ هذا المساءَ لِيُسَلِّمَ إليكِ المَلاَبِسَ التى أريدُ أن تَرْتَدِيهَا إلى الحَفْلَةِ اللَّيْلِيَّةِ لَيْلَةَ الغَدِ.

- مِنْ فَضْلِكَ، ارْجِعْ مُبَكِّرًا. لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ حَفْلَةَ النِّسَاءِ النَّهَارِيَّةَ سَتَنْعَقِدُ غَدًا. وسَتَحْضُرُ صَدِيقَاتِى مِنَ الجَامِعَةِ صَبَاحَ الغَدِ.

فقال مَازِحًا:

- لا تُبَالِى. سَأَسْبِقُ إِشْبِينَةَ العَرُوسِ إلى هناك.

فانْشَرَحَ صَدْرُ عَائِشَةَ. سَتَتَحَقَّقُ أَحْلاَمُها أخيرًا. ثم وَدَّعَ أَحَدُهُمَا الآخَرَ بعدَ أن أَمْضَيَا ثَلاَثِينَ دَقِيقَةً يَتَخَاطَبَانِ. وما أَدْرَاهُمَا أَنَّ الأَقْلاَمَ قد رُفِعَتْ وصُحُفَ أَقْدَارِهِمَا قد جَفَّتْ.

# الفصل الثانى

أهذا الخبرُ حَقٌّ؟ وفَجْأَةً، وجدَتْ عائشةُ نَفْسَهَا مُتَصَارِعَةً مَعَ قُوَى أَشَدَّ مِنْهَا قُـوَّةً. وسرعان ما تَعَيَّقَ بَصَرُهَا ونَشِقَتْ فى حِبَالَةِ الحَيْرَةِ. فجعَلَتِ العُرُوقُ تَنْسَابُ مِنْ جَبِينِهَا فتَدْخُلُ فى عَيْنَيْهَا، وقد تَعَذَّرَ عَلَيْهَا البُكَاءُ.

فقالتْ فى مُحَاوَلَةٍ للصُّمُودِ:

- يا مُخْتَارُ.

ولكنْ، عَجَزَتْ عَنِ الصُّمُودِ. وفَجْأَةً، جعلتْ تَشْعُرُ بِتَلاَشِى قُوَّتِهَا. وشَعَرَتْ بِذِرَاعَى أُمِّهَا وخَالَتِها أمينةَ المُوَاسِيَةِ وهما تَلْفِظَان بِكَلاَمٍ يَنْقُصُهُ الوُضُوحُ. وفى الثَّانِيَةِ التَّالِيَةِ، سَمِعَتْ صَوْتَ أَبِيهَا يَقُولُ لها هَادِئًا ومُعَزِّيًا:

- يا عائشةُ، هَكَذَا قَدَّرَ اللهُ، فاصْبِرِى.

فجعلتْ تُحَمْلِقُ إلى وجهِه تَائِهَةً فى التفكير. ثم تذكَّرَتْ ما حَدَثَ مِن مكانٍ سَحِيقٍ. لقد نُعِىَ مختارُ إليها قبلَ قليلٍ. كانَ مختارُ قد لَقِىَ مَصْرَعَهُ تَبَعًا لِحَادِثَةِ سَيَّارَةٍ وقَعَتْ عَلَى

طُولِ الطَرِيقِ الذي بينَ زارِيَا و جُوسْ بِضْعَ سَاعَاتٍ قبلَ انطلاقِ مَرَاسِمِ الزَّوَاجِ. أ هذا الخبرُ حَقٌ بالفِعْلِ؟

أمُخْتَارُ مَيِّتٌ؟ لقد أَصْبَحَتْ عائشةُ تَسْبَحُ فى مكَانٍ مَّا بينَ العَالَمِ الدُّنْيَوىِّ وعَالَمِ ما وَرَاء الغَيْبِ. إنَّها مُتَيَقِّظَةٌ فى عَالمٍ مُضِبٌ ومُتَمَوِّجٍ ولكنَّ يَقْظَتَهَا غيرُ حَقِيقِيَّةٍ. ثم خُيِّلَ إليها أنَّها طَافِيَةٌ. فسَمِعَتْ نِيَاحَ نِسَاءٍ و عَوِيلَهُنَّ ولكنَّها لا ترى إلاَّ وَجْهَ مختار ولا تسمعُ إلاَّ صوتَهُ، ذلك الصَّوْتَ الذى كانَ يُؤَكِّدُ لها قبلَ بِضْعِ ساعاتٍ قائلاً:

- يا عائشةُ، سأكونُ فى طريقى صباحَ الغَدِ. وأخيرًا، سَنُصْبِحُ عَرُوسَيْن فى أَقَلَّ مِن ثمانٍ وأربعين ساعةً.

وظَلَّتْ عائشةُ تُجْهِدُ عَيْنَيْهَا و أُذُنَيْهَا لترى و تسمعَ مَزِيدًا مما قَالَهُ مختارُ. وظَلَّ وَجْهُهُ يَتَشَوَّهُ وصَوْتُهُ يَضْمَحِلُّ. ثم شعرتْ بِتَدَفُّقِ العَوَاطِفِ، وشعرتْ بِحُبٍّ مُمْتَزِجٍ بِالشُّعُورِ بالأَمْنِ الكَامِلِ، فَهَمَسَتْ قائلةً:

- يا مختارُ، أَنَا على يَقِينٍ مِن أَنَّكَ حَيٌّ تُرْزَقُ.

فَجَعَلَتْ أَهْدَابُ جَفْنَيْهَا تَرْتَعِشُ ثم انْغَلَقَا تِلْقَائِيًّا. فشعرتْ بِقُوَّةٍ مَجْهُولَةٍ تَسحبُها إلى مكانٍ مُظْلِمٍ. فحاولتْ أنْ تَتَشَبَّثَ بِصُورَةِ مختار بَاذِلَةً كُلَّ مَا فِي وُسْعِهَا مِنْ جُهْدٍ غَيْرَ مُتَوَانِيَةٍ فى عَزْمِها على أن لا تُخْلِيَ سَبِيلَهُ. لقد أَصْبَحَتْ هذه الصُّورَةُ هي الشيءَ الوَحِيدَ الذى يَقفُ مُنَادِيًا بَيْنَه و بينَ العَدَمِ. ثم خُيِّلَ إليها أَنَّها مَخْسُوفٌ بها الأرضَ و أَنَّها تَتَغَلْغَلُ فى أَعْمَاقِ الأرض عَاجِزَةً عن الصُّمُودِ. وبعدَ بِضْعِ ثَوَانٍ، اسْتَسْلَمَتْ للظُّلْمَةِ.

فقالتْ (مَامَا) بِصَوتٍ لَيِّنٍ:

- يا عائشةُ، يا عائشةُ، أَفِيقِى. إِنَّنِي أَنَا (مَامَا). أنتِ فى الـمُسْتَشْفَى.

فَأَصْبَحَ فى قُدْرَةِ عائشةَ أَنْ تَسْمَعَ صَوْتًا يَنْعَى مُخْتَارَ إِلَيْهَا وقد تَرَاءَى لها أنَّ كُتَلاً مُنْزَلِقَةً تَمُرُّ أَمَامَ عَيْنَيْهَا. أهذا الخَبَرُ حَقٌّ؟ فَأَمَرَتْ لِسَانَهَا بَيْنَ شَفَتَيْهَا الـمُتَشَقِّقَتَيْنِ تسهيلاً على نفسِها ازدرادَ بَعْضِ بُصَاقِهَا ولكنَّها وَجَدَتْ فَاهَا جَافًّا.ثم سَمِعَتْ صَوْتًا يُفِيضُ بِكَلاَمٍ ولكنَّه يَنْبَعِثُ مِن كانٍ سَحِيقٍ.

فقالتْ لَهَا أُمُّهَا قَوْلاً لَيِّنًا وهى تَهُزُّهَا رغبةً فى أن تَجْعَلَهَا تَسْتَعِيدُ وَعْيَهَا:-

- يا عائشةُ، أَفِيقِى. إنَّ قِيَامَتَكِ لَنْ تَقُومَ بسبب هذه الحَادِثَةِ. مِنْ فَضْلِكِ، تَمَالَكِى أَعْصَابَكِ.

لقد سَمِعَتْ عَائِشَةُ صَوْتَ أُمِّهَا ولكنَّها كانتْ تَحْتَ قَبْضَةِ الضَّعْفِ. فَنَادَتْ أُمَّهَا وعَيْنَاهَا مُغْمَضَتَانِ:

- يا (مَامَا) يا (مَامَا).
- أَنَا هنا يا عَائِشَةُ.

وكانَ ذِهْنُهَا يَدُورُ. كانتْ مجموعةٌ مُتَنَوِّعَةٌ من صُوَرٍ مُخْتَار تَتَدَفَّقُ إلى ذِهْنِهَا. فَرَأَتْ نَفْسَهَا مُتَمَسِّكَةً بِيَدَيْ مختارُ و لكنَّها لم تَتَذَكَّرْ أَيْنَ ومَتَى. ثم تَذَكَّرَتْ أَنَّهُ قد أَصْبَحَ فى عِدَادِ المَوْتَى. لقد اخْتَلَطَتِ الأُمُورُ فلم يَكُنْ فى وُسْعِها التَّمْيِيزُ بَيْنَهَا. فسألتْ أُمَّهَا مُتَلَعْثِمَةً:

- لماذا يا (مَامَا)؟ لماذا اختارَ مختارُ أن يَرْحَلَ عَنَّا الآن؟ لماذا؟

فَتَدَحْرَجَتْ دَمْعَةٌ مُنْفَرِدَةٌ إلى أَسْفَلِ خَدِّهَا الأَيْسَرِ، فما إِنْ أَفَاقَتْ حتى عَاوَدَهَا الإِغْمَاءُ.

وشَهِدَ الأَصْدِقَاءُ و الأَقْرِبَاءُ الدُّعَاءَ الذى انْعَقَدَ فِى اليَوْمِ الأَرْبَعِينَ بعد وَفَاةِ مُخْتَارَ فِدَاءً له. ومِنَ المُعْجِزَةِ أَنَّ عائشةَ صَمَدَتْ خلالَ هذه الأربعين يومًا. وكَانَتْ تَبْدُو ضَئِيلَةً مِنَ الهَمِّ وأَكْبَرَ مِنْ سِنِّهَا. وكَانَتْ تَسْتَصْعِبُ التَّصْدِيقَ والاعترافَ بأَنَّ نَعَامَةَ مُخْتَارَ قد شَالَتْ، ولكنَّ ذلكَ وَاقِعٌ أَجْبَرَهَا على الاعترافِ به هذا الحِدَادُ الذى قد مَضَتْ عليه أربعونَ يومًا.

وكانَ (بَابَا) و (مَامَا) و (أَبَّا) أَعْمِدَةً تستندُ إليهم قُوَّةُ عائشةَ.

وكانَ ذلك أَوَّلَ مَرَّةٍ يُسَوِّى فيها (بابا) و (مَامَا) خِلاَفَاتِهَا منذ رَحِيلِها عَنْهُ تَشْجِيعًا لِعائشةَ. فانْتَقَلَتْ (ماما) إلى جُوسْ بِصُورَةٍ مُؤَقَّتَةٍ وأَقَامَتْ فى مَنْزِلٍ قَرِيبٍ لها؛ بُغْيَةَ تَمْرِيضِ عائشةَ حتى تَتَعَافَى مِن صَدْمَتِها. فَأَثْلَجَ ذلك صَدْرَ (بابا) وقَدَّرَ هذه اللَّفْتَةَ الطَّيِّبَةَ التى صَدَرَتْ مِنْ (أَبَّا) الذى سَمَحَ لِـ(ماما) بِالمَجِىءِ كُلَّ تَقْدِيرٍ. لقد كَانَتِ هذه المَسْؤُولِيَّةُ صَعْبَةً ولكنَّهُمْ نَجَحُوا فى التَّعَامُلِ مَعَها بِشَكْلٍ جَيِّدٍ. ولم تَكُنْ تِلكَ المَسْؤُولِيَّةُ هَيِّنَةً نظرًا إلى أنَّ عائشةَ كَانَتْ قد انقلبتْ صَعْبَةَ المِرَاسِ. لقد اسْتَصْعَبَتْ تَصْدِيقَ ما يَحْدُثُ

حَوْلَهَا رَغْمَ أَنَّهُ حَقٌّ. فشعرتْ بِالوَحْشَةِ مُتَخَيِّلَةً كَمْ سَتَكُونُ الحَيَاةُ خَالِيَةً بِدُونِ مُخْتَارَ.

وفى الشُّهُورِ التَّالِيَةِ، فَرَضَتْ عائشةُ الإقَامَةَ الجَبْرِيَّةَ على نَفْسِهَا، فَأَصْبَحَتْ لا تَخْرُجُ مِنَ البَيْتِ إلاَّ مَرَّةً فى أُسْبُوعَيْنِ. وقَلَّمَا تُفِيضُ بِكَلاَمٍ مَفْهُومٍ بِوُضُوحٍ نَاهِيكَ مِنَ الخَوْضِ فى الأَحَادِيثِ المُتَعَدِّدَةِ المَوَاضِيعِ.

وصارَتِ الغايةُ مِن تَنَاوُلِ الطَّعَامِ عندها سَدَّ الضَّرُورَةِ ولَيْسَتِ الشِّبَعَ. فَضَنِيَتْ جَسَدًا ورُوحًا. ثُمَّ سَئِمَ (بابا) مِن مُحَاوَلَتِه التَّرْفِيهَ عَنْهَا. فلما فَشِلَ، اسْتَوْرَى (ماما) رَأْيَهَا. فَبَذَلَتْ قُصَارَى جُهْدها ولكنَّها طَابَتْ عَنِ المُحَاوَلَةِ نَفْسًا أيضا. فَأَصْبَحَ التَّعَامُلُ مَعَ عائشةَ أَمْرًا مُسْتَعْصِيًا على الجَميعِ.

ثم أَجْبَرَهَا وَالِدَاهَا على زيارةِ عَدَدٍ يَشِبُّ عن طَوْقِ الإحْصَاءِ مِنَ الوُسَطَاءِ الرُّوحَانِيِّينَ رغبةً فى شِفَاءِهَا ولكنَّ ما نَفَثَهُ الرُّقَاةُ فى مَاءِ زَمْزَمَ من الرُّقَى والأَدْعِيَةِ لم يَنْجَعْ فى عَائِشَةَ.

ثم بَدَا أَنَّهَا قد فَقَدَتْ رُوحَ المَحَبَّةِ. لم تَعُدِ الحَيَاةُ تُسَاوِى جَنَاحَ البَعُوضَةِ عندها. كانَ مُخْتَارُ حَيَاتَهَا وقد رَحِلَ عَنْهَا حَامِلاً مَعَه جَوْهَرَ

العَيْشِ. فعَجَفَ (بابا) و (مَامَا) نَفْسَيْهِمَا على عَائِشَةَ، وَاقِفَيْنِ بِجَانِبِهَا غَيْرَ مُتَوَانِيَيْنِ فى جُهْدِهِمَا.

فلما فَشِلَ كلُّ شَىْءٍ، أَجْبَرَاهَا أَخِيرًا على زيارةِ مُسْتَشَارٍ نَفْسِيٍّ. فاسْتَغْرَقَ ذلك وَقْتًا طَوِيلاً ولكنَّ عائشةَ تَعَلَّمَتْ كَيْفِيَّةَ التَّعَامُلِ مَعَ أَلَمِهَا وَكُرْبَتِها بالتَّدْرِيجِ وعَلَى تُؤَدَةٍ. لقد عَانَتْ نَوْعَ الأَلم الذى يَبْلُغُ ذُرْوَتَهُ عند الصَّدْمَةِ الأُولَى ثم يَتَحَوَّلُ إلى غَيْظٍ غَيْرِ قَابِلٍ للاحْتِوَاءِ. وهو نَوْعُ الشُّعُورِ الذى يَتَوَلَّدُ عندما يَقْطَعُ المَرْءُ الأَمَلَ بصورةٍ كَامِلَةٍ.

ثم تَمَالَكَتْ عَائِشَةُ أَعْصَابَهَا و قد أَصْبَحَتِ الأَيَّامُ تَتَطَوَّرُ إلى شُهُورٍ. وفى المَثَل: الزَّمَنُ دَوَاءٌ تَنْدَمِلُ به كُلُّ الجُرُوحِ. وبعدَ خمسةِ أَشْهُرٍ مِن وَفَاةِ مُخْتَار، تَمَّ إِقْنَاعُ عَائِشَة بِزِيَارَةِ عَمَّتِها أمِينَةَ فى كَدُونَا ظَنًّا مِنَ الجَمِيع أَنَّ تَغْيِيرَ البِيئَةِ سَيَنْجَعُ فيها. فَبَذَلَتْ عَمَّتُهَا أَمِينَةُ جُهْدَهَا فِى مُحَاوَلَةٍ للتَّرْفِيهِ عَنْهَا ولكنَّ عَائِشَةَ ظَلَّتْ مُتَشَبِّثَةً بِذِكْرَى مُخْتَار مُصَمِّمَةً عَلَى عَدَمِ إِفْلاَتِهِ.

فَأَمْضَتْ شَهْرَيْنِ فى كَدُونَا ثم عاتْ إلى جُوسْ.

فلما عَادَتْ عَائِشَةُ إلى جُوسْ، أَخْفَتْ جَمِيعَ صُوَرِ مُخْتَار مُزْمِعَةً على أن لا تَرَاهَا من جَدِيدٍ، وكَرِهَتْ أَنْ تَتَعَامَلَ مَعَ كُلِّ مَا مِن شَأْنِه أَنْ يُذَكِّرَهَا بِمَاضِيهَا.

لقد فَاتَ عَائِشَةَ عَامٌ دِرَاسِيٌّ وَاحِدٌ. فلما انطلقَ عَامٌ دِرَاسِيٌّ جَدِيدٌ، رَضِيَتْ بأن تَعُودَ إلى الجَامِعَةِ لِمُتَابَعَةِ بَرْنَامِجِها. فلما عادتْ إلى الجَامِعَةِ، صَارَتْ مُنْكَمِشَةً عَلَى نَفْسِهَا، لا تَلْوِى إلاَّ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ، دِرَاسَاتِهَا. فظلَّتْ كَذَلك غَيْرَ مُهْتَمَّةٍ بِأَيِّ نَشَاطٍ اجْتِمَاعِيٍّ. ثم اعْتَرَفَتْ بموتِ مُخْتَار أَخِيرًا مع مُرُورِ الشُّهُورِ، ولكنْ، على حِسَابِ سَعَادَتِها. ومَعَ هذا الاعتراف، شَدَّتْ حِزَامَهَا لأمرِ دِرَاسَاتِها. فانْقَمَعَتْ تَعَاسَتُهَا تَحْتَ ضُغُوطِ العَمَل. فَلَمَّا تَخَرَّجَتْ، كانتْ نَتَائِجُهَا بَاهِرَةً وَفْقًا لِتَوَقُّعِ كَثِيرٍ مِنَ الناس.

# الفصل الثالث

تسلَّمتْ عائشةُ رسالةَ الاستنفارِ استعدادًا للانخراطِ فى السلكِ الوطنيِّ للخِدْمَةِ الشبابيَّةِ. وكانت تلك اللحظةُ مَزِيجَةً مِنَ المرارةِ والحلاوة. وتَتَمَثَّلُ مَرَارَتُها فى أنَّ عائشةَ كانتْ مُتَمَنِّيَةً أَنْ يكونَ مختارُ حيًّا ليُهَنِّئَهَا بِنَجاحِها بتقدير الممتاز.و أَمَّا سَبَبُ اسْتِحْلاَئِهَا هذه اللَّحْظَةَ فَمَرَدُّ ذلكَ إِلَى أنها كانتْ مسرورةً بما حَقَّقَتْهُ مِنَ الإنجازِ والنجاحِ. وكانتْ ولايةُ صُكُتُو مَبْعَثَها لخدمةِ الوطنِ.

وظلَّتْ ذِكْرَى مختارَ تُبَلْبِلُ تَفْكِيرَ عائشةَ. وكُلَّمَا خَلَتْ يداها مِن أشغالِهما كانَ مختارُ شُغْلَهَا الشَّاغِلَ. ولكن، باتَ تفكيرُهَا فيه الآن يَزُولُ فى لحظاتٍ سَرِيعةٍ. لقد تَلاَشَى شكلُه على نحوٍ تدريجىٍّ إلى صورةٍ غيرِ جَلِيَّةٍ فى نفسِها وتَفَتَّتَتْ ذِكْرَيَاتُها عنه إلى حَقَائِقَ غيرِ واضحةِ المَلاَمِحِ تَبَعًا للأحداثِ المُتَلاَحِقَةِ التى تُفْرِزُها النشاطاتُ التى يقوم بها أَحِبَّاؤُهَا منذُ وفاتِه.

ثم أصبحتْ كأنَّها لم تَعُدْ تتذكَّرُ حياتَها مع مختار. لقد مرَّتْ سَنَوَاتٌ على وفاتِه مُرورًا سريعًا. مرَّتْ خمسُ سنواتٍ على ذلك وهى الآن فى الثالثةِ والعشرين من عُمرِها. ورفضتْ عائشةُ طَوَالَ هذه

الفترةِ أن ترتبطَ بعلاقةٍ مع الجنس الآخر أيًّا كانَ نوعُها. وظلَّ تَصَرُّفُهَا يُشَكِّلُ مصدرَ قَلَقٍ لدى (بابا) رغَم ما يبذُلُه مِنَ الدَّعْمِ و الشفقةِ عليها. وكُلَّمَا أُثِيرَ موضوعُ الزَّوَاجِ طارتْ نفسُها شَعَاعًا واختلقتْ عُذْرًا تَهَرُّبًا مِنَ الموضوعِ. وكانتْ فكرةُ الزَّوَاجِ خَطًّا أحمرَ بالنسبةِ لها. وكُلَّمَا حاولَ (بابا) أن يُقْنِعَهَا كانَ الفشلُ حليفَه. ووَدَّ (بابا) لو أَنَّها ترتبطُ بعلاقةٍ أو علاقتين لعلها تجدُ من يطلبُ يدَها فى الزَّوَاجِ، ولكنْ، كُلَّمَا طَرَقَ الموضوعَ تَهَرَّبَتْ منه بأدبٍ. ولم تُخْفِ (ماما) قَلَقَها تجاهَ موقف عائشة من الزَّوَاجِ أيضًا ولكنْ، مع مرورِ الوقتِ، نَجَحَ (أَبَّا) فى إقناعِها أن تتركَ عائشةَ وشأنَها.

وفى غضونِ ذلك، تلاحقتْ أحداثٌ كثيرةٌ. اكتشفَ (بابا) مكيدةَ رُقَيَّةَ، فتصالحَ مع أقاربِه الذين قطعتْ رُقَيَّةُ حَلْقَةَ الوصلِ بينه وبينَهم. وأصبحوا يزورون (بابا) كما يحلو لهم دونَ أن يخافوا الإحراجَ من قِبَلِ زوجتِه الحقيرةِ. فلما ضاقَ بها ذرعًا طلَّقَها. وعندئذٍ أدركَ أَنَّهَا كانتْ جَذْوَةَ شَرٍّ. وكانتْ بنتاها ميمونةُ وأمينةُ قد تزوَّجَتَا من أُسرتين فقيرتين خلافًا للأُسْرَتَيْنِ الوَاسِعَتَيِ النُّفُوذِ اللتين حَلَمَتْ بهما أُمُّهما. فعاملَهما (بابا) كما يُعاملُ ابنتَه مِن صُلْبِه. وفى المُقَابِلِ،

عاملتاه كما ينبغي لهما أن تُعَامِلاَ الأبَ الذى لم تَحْظَيَا به. و كانتْ أَمِينَةُ التى كانتْ تَحْذُو حَذْوَ أُمِّها رُقَيَّةَ قد جَدَّدَتْ صفحةَ حياتِها منذُ انهيارِ زواجِها عندما هُرِعَتْ إلى المنزلِ فتلَقَّتْ ترحيبًا حارًّا من عائشة بدلاً مِن أُمِّها.

ثم دفَنَ (بابا) و (ماما) خِلافَاتِهما. وصارَ أحدُهما إِلْفًا للآخر تطييبًا لخاطِرِ عائشةَ. وكان كلُّ شيءٍ جاريًا على أحسنِ ما يُرام ما عدا حياةَ عائشة. حسبَ ظَنِّها.

وفى البدايةِ، كانتْ تعتقدُ أنَّ الحياةَ فى مُعَسْكَرِ التَّوْجِيهِ التَّابِعِ للسِّلْكِ الوَطَنِيِّ للخدمةِ الشبابيَّةِ ستكونُ صَعْبَةً. ولكنَّ جمالَ المكانِ والنَّشَاطَاتِ التى يَفُورُ بها أَسَرَتْ قلبَها بَعدَ مُرور بِضعةِ أيَّامٍ على انضمامِها إلى المُخَيَّم.

ولقيتْ عائشةُ عمرَ فى الأسبوعِ الثَّانِى بعدَ انطلاقِ برنامجِ التَّوْجِيهِ. و كانَ قد اسْتُدْعِىَ لإلقاءِ محاضرةٍ بعنوان: "الحياةُ بعدَ المُعَسْكَرِ" بوصفِه مُحَاضِرًا فى جامعةِ صُكُتُو حيثُ انعقدَ البرنامجُ. فَمَسَّهُ جَسَدُها برفقٍ أثناءَ السَّيْرِ من غير قَصْدٍ. فقالتْ مُقْتَضِبَةً على نحوٍ فَظٍّ:

- أنا آسفةٌ.

لقد كانتْ متأخِّرَةً، وكانتْ تَوَّاقَةً إلى أَحَدِ المَقَاعِدِ الأَمَامِيَّةِ فى قاعةِ المحاضرةِ. ومن حُسْنِ حَظِّهَا، نالتِ المَقْعَدَ بمعونةِ صديقتِها، بِنْتَ، التى كانتْ قد احْتَجَزَتْ لها واحدًا مِنَ المقاعِدِ. وما إن جلستْ حتى غَشِيَها الإحساسُ بِالبَرْدِ مِن قِمَّةِ رأسِها إلى أَخْمَصِ قَدَمَيْها، فلمَّا رفعتْ بصرَها إذا هو يُحَمْلِقُ إليها جَاحِظَ العَيْنَيْنِ. فشعرتْ بالإحراج، فاستدارتْ عَنْهُ ثم عَدَّلَتْ جِلْسَتَها بهدوءٍ.

وبالنسبةِ لعمرَ الذى لايَزَالُ عَازِبًا، فإنَّ هذا يُمَثِّلُ انطلاقةً جديدةً. وفى تلكَ اللحظة، شعرَ بِتَحَوُّلٍ جديدٍ حولَه. فَخُيِّلَ إليه أنَّ الفتاةَ التى مَسَّهُ جسدُها برفقٍ وهى تمرُّ به من غير قَصْدٍ إنما هى مَلَكٌ من الملائكة. وكانَ كلُّ ما يُحِيطُ بها سَاطِعًا بنُورٍ لم يرَ عمرُ مِثْلَهُ قطُّ، فأيقنَ للوهلة الأولى أنَّ هذه الفتاةَ ستكونُ زوجتَه كائنةً مَن كانتْ.

لم يفهمْ عمرُ كيفَ دبَّ فى قلبِه هذا الإحساسُ وإنما وَمَضَ فيه كالبرقِ الخاطفِ ثم لم يلبثْ أن وَجَدَ نفسَه مُضْطَرًّا لقبولِه كحَقٍّ

اليَقِينِ. و كانتْ هذه الأفكارُ قصيرةَ العُمْرِ نظرًا لأنَّ مُنَسِّقَ البرنامجِ قَدَّمَهُ إلى كُرْسِيِّه، فقرَّرَ أن يُجَاذِبَها أطرافَ الحديثِ إثرَ المحاضرة. ثم قال فى نَفْسِه: ماذا لو غادرتِ القاعةَ بُعَيْدَ المحاضرة؟

فلما جاءَ دورُ السُّؤَالِ والجَوَابِ إثرَ المحاضرة، انحلَّ نصفُ مشكلةِ عمرَ. كانتْ عائشةُ فى عِدَادِ الذين تَفَاعَلُوا مع المحاضَرة عن طريقِ طَرْحِ سؤالٍ، فحاولَ عمرُ جِدَّ مُحَاوَلَةٍ أن يُجِيبَ عن سُؤَالِها بشكلٍ إيجابيٍّ مُعْطِيًا إيَّاها انطباعًا حسنًا. فعَلِمَ أَنَّ اسْمَهَا عائشةُ بَلُّو. وكانتْ عائشةُ مِن أَوَائِلِ النَّاسِ خُرُوجًا مِنْ قَاعَةِ المُحَاضَرَةِ وَفْقًا لما حَذِرَهُ عُمَرُ مِن قبل. فقَرَّرَ أن يقومَ بِزِيَارَتِها فى اليوم التَّالِى مُتَسَلِّحًا باسْمِهَا.

و كانتْ زيارةُ عُمَرَ لعائشةَ فى اليْوَمِ التَّالِى كَارِثَةً. لقد امْتَنَعَتْ مِنَ الخُرُوجِ لَمَّا أَرْسَلَ لها عُمَرُ. فعَقَدَ العَزْمَ على أن لا يَسْتَسْلِمَ بِسُهُولَةٍ. ومِن ذلك اليوم فصَاعِدًا، قَامَ عُمَرُ بِزِيَارَةِ مُعَسْكَرِ التَّوْجِيهِ بِشَكْلٍ يَوْمِيٍّ. فَاتَّخَذَهُ صَدِيقَاهُ، بَلُّو و زُبَيْرُ سُخْرَةً مُتَوَهِّمَيْنِ أَنَّه كانَ يُضَيِّعُ وَقْتَهُ فى امرأةٍ لا رغبةَ لها فيه. ولكنَّه رَفَضَ أن يَسْتَسْلِمَ.

ثم بُعِثَتْ عَائِشَةُ مِنْ مُعَسْكَرِ التَّوْجِيهِ إلى كُلِّيَّةِ الآدَابِ والدِّرَاسَاتِ الثَّقَافِيَّةِ فى صُكُتُو لِتَدْرِيسِ عِلْمِ الاجْتِمَاعِ. وما إنْ شَهِدَتْ مَبْعَثَهَا الرَّسْمِيَّ حيثُ يُتَوَقَّعُ مِنْهَا أن تُأَدِّىَ وَاجِبَهَا الأَوَّلِيَّ حتَّى زَوَّدَتْهُمْ بالوَثَائِقِ اللاَّزِمَةِ ثُمَّ اسْتَأْذَنَتْ فى زِيَارَةِ أَهْلِهَا فى جُوسْ اسْتِعْدَادًا لِإِمْضَاءِ سَنَةٍ فى صُكُتُو رَافِضَةً أن تَمْنَحَ عُمَرَ فُرْصَةَ اللِّقَاءِ قبلَ أن تُغَادِرَ مَدِينَةَ صُكُتُو.

وفى البدايةِ، كانَ عُمَرُ مُرْتَمِضًا ومُسْتَاءً مِنَ الطَّرِيقَةِ التى تُعَامِلُه بها عَائِشَةُ. ولكن، سرعان ما أَدْرَكَ أَنَّ تَصَرُّفَها لم يَشِذَّ عَنِ المَأْلُوفِ نَظَرًا إلى أَنَّها تَبْدُو سَاذَجَةً. ثم اقْتَفَى أَثَرَها استنادًا إلى المَعْلُومَاتِ التى جَمَعَها مِن صَدِيقَاتِها وزَمِيلاَتِها. فَوَصَلَ إِلَى جُوسْ بَعْدَ يَوْمٍ واحِدٍ مِنْ وُصُولِها فى صُحْبَةِ صَدِيقِه زُبَيْر.

فدانَ عُمَرُ لِـ(بابا) بالامْتِنَانِ على خَلْفِيَّةِ أَنَّه رَحَّبَ بهما كما يُرَحِّبُ الوَالِدُ بِأَوْلاَدِه.

وما كادَ يَنْتَهِى مِنْ إِرْعَاءِ عُمَرَ سَمْعَهُ حتَّى أَخْبَرَهُ سَبَبَ عُزُوفِ عَائِشَةَ عَنِ الرِّجَالِ. فَسَأَلَهُ أَنْ يَتَحَلَّى بِالصَّبْرِ وأَنْ يَتَعَامَلَ مَعَها بِحَذَرٍ. فَلَمَّا أَخْبَرَ عَائِشَةَ عن سببِ زِيَارَةِ عُمَرَ، احْتَجَّتْ عَلَى

ذَلِكَ فَوْرًا واحْتجَبَتْ عَنْهُ ولكنَّ (بابا) تَصَلَّبَ فى مَوْقِفِه. فَصَبَّ عَلَيْهَا جَامَ غَضَبِه مُهَدِّدًا إِيَّاهَا بِقَطْعِ العَلاَقَاتِ مَعَهَا مَا لَمْ تَكُفَّ عن تَحَدِّى أَوَامِرِه.

ونظرًا إلى أنَّه أَبٌ صَالِحٌ، سَكَّنَ غَضَبَهُ فى ما بَعْد وقَرَّرَ أَنْ يَلْجَأَ إِلَى قُوَّةِ الإِقْنَاعِ. فقال فى صَوْتٍ لَيِّنٍ:

- لا تَكُونِى حَمْقَاءَ يَا عَائِشَةُ. كُونِى حَكِيمَةً ومَنْطِقِيَّةً. أُنَاشِدُكِ باللَّهِ أَنْ تَعْتَرِفِى بِأَنَّ مَوْتَ مُخْتَارَ كانَ مِن مَشِيئَةِ اللَّهِ وأنه لَنْ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مَرَّةً أُخْرَى. ويَجِبُ عَلَيْكِ أَنْ تَنْبِذِى كُلَّ شَىْءٍ وَرَاءَ ظَهْرِكِ و تَسْأَلِى اللَّهَ أن يَرْبُطَ عَلَى قَلْبِكِ بِالصَّبْرِ. كما يَجِبُ عَلَيْكِ أن تُفَكِّرِى فى أَمْرِ الزَّوَاجِ؛ فإنَّه لا يَخْفَى عليكِ أَنَّكِ لم تَعُودِى شَابَّةً صَغِيرةً.

وكانَ (بابا) لَيِّنًا فى كَلاَمِه بحيث إنَّ كَلِمَاتِه نَجَحَتْ فى إِذَابَةِ قَلْبِهَا العَنِيدِ. وكانَ ذلك أَوَّلَ مَرَّةٍ يُنَاشِدُهَا (بَابَا) أَنْ تَمْتَثِلَ أَمْرَهُ إِكْرَامًا لِخَاطِرِهِ منذ ظُهُورِهَا فى حَيِّزِ الوُجُودِ. فَرَفَعَتْ عَائِشَةُ رَأْسَها، فقالتْ وعَيْنَاهَا تَغْرَوْرِقَانِ بِالدُّمُوعِ:

- لقد حَاوَلْتُ نِسْيَانَهُ يَا(بَابَا).

لقد قالتْ ذلك بِهُدُوءٍ وهى تَنْظُرُ إلى أَبِيهَا عَاجِزَةً عَنِ المُتَابَعَةِ نظرًا إلى أنَّ الدُّمُوعَ كانتْ قد أَخَذَتْ تَتَدَحْرَجُ إلى أَسْفَلِ خَدَّيْهَا تَدَحْرُجًا تِلْقَائِيًّا.

فَوَقَفَا هُنَاكَ يَتَوَاجَهَانِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ وقد أُرْتِجَ عَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا. فَأَسِفَتْ عائشةُ لأَبِيهَا. لقد بَذَلَ وُسْعَهُ سَعْيًا وَرَاءَ جَعْلِهَا فى حَالَةٍ مِزَاجِيَّةٍ طَيِّبَةٍ. ولا يَخْفَى عليها أنَّ مَوْقِفَها مِن الحَيَاةِ هو ما مَنَعَ أَبَاهَا مِنَ الزَّوَاجِ بَعْدَ طَلاَقِ (أُمَّا) وليس كِبَرُ سِنِّهِ. كما لا يَخْفَى عليها أنَّ صَبْرَ (بَابَا) قد يَنْفَدُ ما لم تَنْزِلْ على رَغَبِتِه وتَتَّخِذْ قَرَارًا عَاجِلاً. فنظرتْ إلى (بابا) على اسْتِحْيَاءٍ فقالتْ:

- سَأَرَاهُ.

وما إنْ أَفَاضَتْ بذلك حتى نَهَضَتْ فَتَوَجَّهَتْ إلى غُرْفَةِ الجُلُوسِ حيث كانَ عُمَرُ و زُبَيْرُ يَنْتَظِرَانِ مُتَحَلِّيَيْنِ بِالصَّبْرِ.

ثم عَادَتْ عَائِشَةُ إلى غُرْفَتِهَا بعدَ رَحِيلِ ضَيْفِها فَأَعْمَلَتْ ذِهْنَهَا فى ما أَدْلَى به عُمَرُ وفى رَغَبَتِه فيها وفى طمعِه فى الإِمْسَاكِ بِعِصْمَتِهَا. فَأَخَذَتْ تَنْشِجُ. إنَّ الأمورَ تَحْدُثُ أَسْرَعَ مما يَرُوقُهَا. لم تَكُدْ تَعْرِفُ عُمَرَ ولكنَّها عاجزةٌ عن رَدِّ طَلَبِ

(بابا). ليس بعدَ أنْ مَنَحَ عُمَرَ بَرَكَاتِه. يجبُ عليها أن تَتَحَرَّرَ أَخِيرًا مِنْ ذِكْرَياتِ مُخْتَار.

ولم يَكُنْ خَفِيًّا عليها أَنَّ أَوَانَ نَبْذِ المَاضِى وَرَاءَ ظَهْرِهَا إلى الأَبَدِ قد آنَ. فَفَتَحَتِ الدُّرْجَ التَّابِعَ لِجَانِبِ سَرِيرِهَا فأَخْرَجَتْ صُورَةَ مُخْتَار. فقالتْ فى نَفْسِها: "إنَّ مُخْتَارَ سَيَظَلُّ كما يَبْدُو فى هذه الصُّورَةِ. لا تَجَاعِيد ولا حَزَن ولا شَيْب ولن يكونَ أَكْبَرَ سِنًّا ولو بيوم وَاحِدٍ مما يبدو عليه فى الصُّوَرِ".ثم كَدَّتْ ذِهْنَهَا تَتَصَوَّرُ هَيْئَةَ مختار،فلم يَخْطُرْ بِبَالِها إلاَّ هَيْئَتُه الواردةُ فى تلك الصُّورَةِ التى تَحْمِلُهَا.

لقد آنَ أَوَانُ اتِّخَاذِ قَرَارٍ. فَشَهِقَتْ عائشةُ ثم زَفَرَتْ على تُؤَدَةٍ، لقد أَصْبَحَ حَتْمًا عليها أنْ تَبْدَأَ حياةً جديدةً. ثم فَتَحَتْ دِرَجَةَ خِزَانَتِها مِن جَدِيدٍ. فَدَفَعَتْ إِطَارَ الزُّجَاجَةِ إلى الدَّاخِل بِرِفْقٍ. لقد بَاتَتْ على يَقِينٍ مِنْ أَنَّ هذه اللَّحْظَةَ على جَانِبٍ عَظِيمٍ مِنَ الأَهَمِيَّةِ. إنَّها لَحْظَةُ تَحْرِيرِ حَيَاتِها أَخِيرًا ولو جُزْئِيًّا.

فقالتْ فى نفسِها: "مِنَ الغَرَابَةِ أَنَّ المَرَاحِلَ التى تَمُرُّ بها حَيَاةُ الإِنْسَانِ حَافِلَةٌ بالمُفَاجَآتِ. فما أَشْبَهَهَا بهذه الصُّورَةِ مُغْلَقَةً فى دُرْجٍ أو رسالةٍ مَرْمِيٍّ بِهَا فى صُنْدُوقِ بَرِيدٍ أو مِفْتَاحٍ مَفْصُولٍ مِنْ حَمَّالَةِ

مَفَاتِيحَ". ثم قالتْ فى نفسِها: " أَشْكُرُ اللَّهَ عَلَى إِصْرَارِ (بَابَا) و (مَامَا)". فما لَبِثَتْ أَنْ وَجَدَتْ نَفْسَها أَشَدَّ خِفَّةً و أَكْثَرَ شَبَابًا مِمَّا كانتْ عليه منذُ نَعْيِ مختار إليها.

وكانَ أَبَوَاها طَوِيلَي الأَنَاةِ و حَسَنَيِ التَّفَاهُمِ. كما كَانَا مُرَاعِيَيْنِ لِمَشَاعِرِهَا عندَ التَّعْبِيرِ عن قَلَقِهِمَا تُجَاهَهَا. وأفضلُ جَزَاءٍ يَسْتَحِقَّانِهِ مِنْهَا - حَسَبَ ظَنِّها - هو أن تَنْبِذَ المَاضِيَ وَرَاءَ ظَهْرِهَا وتَمْضِيَ قُدُمًا بِحَيَاتِهَا.

# الفصل الرابع

كانت عائشةُ تنظرُ إلى عمرَ نظرةَ صديقةٍ لصديقِها منذ كانتْ علاقةُ صداقتِهما فى مهدِها. وكانَ أَشْبَهَ عندها بالأخ الذى لم تَحْظَ به فى حياتِها. لقد تركتْه لكى يَتَغلَّبَ على عواطفِه. وعاملتْه بالطريقةِ التى تَرَاهَا مُنَاسِبةً. وسرعانَ ما صارَ مَلاَكَهَا الحارسَ فى مدينة صُكُتُو. ووفَّر لها الحمايةَ غَيْرَةً عليها، فلم يمنحْها فرصةَ النَّظَرِ إلى رجلٍ آخَرَ.

وكانَ عُمَرُ مُنْحَدِرًا مِن الأُسْرَةِ المَلَكِيَّةِ الشَّرِيفَةِ بِصُكُتُو.و رحَّبَ به (بابا) منذُ أَوَّلِ اليوم بكلِّ قلبِه فلم يَمنحْ عائشةَ فرصةً لتغيير موقفِها. و إنَّما أَلَحَّ عليها أن تَتَّخِذَ قرارًا بشأن مَن ستقضى سائرَ حياتِها معه سواءُ أكانَ عمرَ أم غيرَه من الرِّجالِ. وما كادتْ تَمْضِى شهورٌ حتى أخذَ مَوْقِفُ عائشةَ تجاهَ عمرَ يتغيَّرُ. وبدأَ ذلك لاَشُعُورِيًّا، ثم أُغْرِمَتْ به بالتدريجِ فى ما بعد.

وعلى الرَّغْمِ مِن أنَّها كانتْ تُحِبُّ أنْ تَكْرَهَ عمرَ كراهيةً شديدةً معتقدةً أنَّه كانَ مختالًا فخورًا وأنه لايستطيعُ أن يَسُدَّ مَسَدَّ مختار فإنَّ قلبَها كانَ يُكَذِّبُ موقفَها هذا. وكانتْ تُكِنُّ لعمرَ احترامًا

نوعًا مَّا وتُبَجِّلُه تَبْجِيلاً. ثم راحتْ تَسْتَحْلِى عمرَ مِن بعد ذلك، فنظرتْ إليه نظرةَ المرأةِ لمحبوبِها لا مُجَرَّدَ نظرتِها لأَخِيها أو لرجلٍ عاديٍّ أو رجلٍ تحترمُه، غير أنها حاولتْ أن تَطْوِىَ فُوادَها على ذلك.

ثم خطبَ عمرُ عائشةَ أسبوعين قبلَ انقضاءِ مُدَّةِ خدمتِها الوَطَنِيَّةِ، فما تمالكتْ عن قَبُولِ عرضِه رغمَ موقفِها السَّابِقِ. فلَّما خطبتْها أسرةُ عمرَ إلى أَبِيها، وافَقَ (بابا) على ذلك مَغْمُورًا بالفَرَحِ.

فحدَّدَ الطرفانِ يومًا مُرِيحًا للحفلة. ولمَّا اقتربَ الموعدُ، شعرتْ عائشةُ كأنَّ حِمْلاً ثقيلًا كانَ ينوءُ بكاهلِها قد وُضِعَ عنها. وكانَ فَرَحُ (بابا) أكبرَ مِن أن يُحِيطَ به وصفٌ دقيقٌ، كما كانَ سرورُه بعائشةَ سافراً. فضربَ كلٌّ من أعمامِها وعمَّاتِها وأخوالِها وخالاتِها وسائرِ أقرِباءِها فى إنجاحِ هذا الزَّوَاجِ بسهمٍ وافرٍ. ووَصَلَ جميعُ مَن يَعْنِيهِم أمرُ عائشةَ إلى جُوسْ أيَّامًا قبلَ أن تنطلقَ مراسمُ الزواج. وكان زواجُ عمر وعائشة حدثاً صَاخِبًا خلافًا لرغبةِ عائشة. وقد أطلقَ عليه بعضُ النَّاسِ: "زواجَ العام".

واستيقظتْ عائشةُ من نومِها مبكِّرةً قبلَ أذانِ الصُّبْحِ يومَ النِّكَاحِ الرَّسْمِيِّ الذى لا يشهدُه إلا الرِّجَالُ. ثم عادتْ إلى سريرِها بعدَ

الصَّلاَةِ، فتكوَّمَتْ عليه كهُرَيْرَةٍ مُرْتَعِبَةٍ. فجعلتْ تُجِيلُ فكرَها فى مختارَ مُتَسَائِلَةً عن ما قد تَصِيرُ إليه حياتُها لولا أنَّ الموتَ الزُّؤَافَ خَطَفَهُ. ولمَّا أخذتِ الشمسُ فى الطلوع، ألقتْ أشِعَّتُها خُطوطًا من الضوءِ من خِلال أستارِ غُرفتِها الخُضْرِ الدَّاكِنَةِ. وكانت قد طلبتْ من الحاضرين أن يمنحوها خلوةً على الرَّغْمِ مِن أنَّ معظمَ قريباتِها وصديقاتِها كُنَّ حاضراتٍ فى دارِ أبيها الليلةَ الفائتَةَ ليشهدْنَ الحدثَ الثقافيَّ الذى بشَّرَ ببداية الحفلة. وقد ارتدَيْنَ النسيجَ الجميلَ الذى اختارتْه صديقاتُ (ماما) لباسًا رسميًّا للحفلة. واستُؤْجِرَتْ فِرقةٌ موسيقيَّةٌ قامتْ بالعَزْفِ الحيِّ فى الحفلة.وكانت عائشةُ حَسَنَةَ الهِنْدامِ. وقد ارتدتْ قُمَاشًا سُوَيْسِرِيًّا مَخْرومًا غاليَ الثَّمَنِ. وكانَ أبوها قد اشتراه لها خصوصًا لهذه الحفلة. فابتسمتْ عائشةُ فى نفسِها لما تذكَّرتْ كيفَ جرَّتْها ابنةُ عَمِّ أُمِّها حفصةُ إلى باحةِ الرَّقْصِ رغمَ مُعَارَضَتِها للفكرة أوَّلَ مرةٍ. وما إن وطأتْ قدماها باحةَ الرقصِ حتى أخذتْ صديقاتُ أُمِّها وقريباتُها يَنْثُرْنَ عليها أوراقًا ماليَّةً مُتَفَاوِتَةَ الفِئَةِ جريًا على العادةِ الموروثةِ لدى الهوساويِّين.

وكانتْ مسرورةً بالعناية التى تَلَقَّتْها من صديقاتِها وعائلتِها. وكان الجميعُ يُعَامِلُونَها كَمَلِكَةٍ. وكانَ ذلك آخرَ يومٍ حياتِها العُزُوبيَّة. ورقصتْ أخواتُ عمرَ وقريباتُهُ على الباحةِ أيضًا بحماسةٍ فائقةٍ تعبيراً عن شدَّةِ فرحِهِنَّ بزواجِ أَخيهِنَّ. وشاركنَ فى نثر فئاتٍ متفاوتَةٍ مِنَ الأوراقِ الماليَّةِ على العَرُوسِ.

ولقد ظلَّتْ عائشةُ مُنْهَمِكَةً فى حُلْمِ اليقظةِ تائهةً فى التفكير فى مستقبلِها حتى طرقتْ صديقتُها خديجةُ البابَ قائلةً:

- استيقظى أيَّتُهَا العروسُ الكَسُولُ. نحنُ ننتظرُكِ فى الخارجِ.

فقفزتْ عائشةُ عن السريرِ قفزةً سريعةً وفتحتِ البابَ لصديقتِها. لقد ترعرعتِ الاثنتانِ معًا، وكانتا مُقَرَّبَتَيْنِ جدًّا، كما كانتا أقربَ إلى أُخْتَيْنِ مِنْهُمَا إلى صَدِيقَتَيْنِ. فدخلتْ خديجةُ فى الغرفةِ مُقَهْقِهَةً فعانقتْ عائشةَ قائلةً:

- إنَّ السَّيِّدَةَ حَوَّاءَ تطلبُ منكِ أن تَرْتَدِى ملابسَكِ قبلَ ثلاثينَ دقيقةً استعدادًا لحفلةِ التَّزْيِينِ بالحِنَّاءِ.

فدخلتْ عائشةُ فى الحمَّامِ فورًا للاغتسال.فأسرعتْ عِلمًا أنَّ النَّاسَ فى انتظارِها و تفاديًا مِن أن يَلُومَها أحدٌ على أيِّ خلَلٍ يطرأُ.

فجلستْ خديجةُ فى الغرفة تنتظرُ عودتَها رغبةً فى المُسَاعَدَةِ على تَزْيِينِهَا.

فلمَّا وطأتْ قدمَا عائشةَ الحديقةَ التى وراءَ الدَّارِ- مكانَ حفلةِ التَّزْيِينِ بالحِنَّاءِ — وجدَتِ المَسْرَحَ قد أخذَ زخرفَه وتَزَيَّنَ.

وكانتِ الضيوفُ حاضراتٍ، وقد جلسنَ ينتظرنَ وصولَ عائشة. ثم أرشدتْها إحدى عمَّاتِها إلى مقعدِها وَسْطَ عاصفةٍ مِنَ التَّصْفِيقِ والهُتَافِ مِن قِبَلِ الجمهورِ. وسرعان ما التفَّتْ حولَها جميعُ قريباتِها وصديقاتِها ضاحكاتٍ مازحاتٍ يُطْرِينَ جمالَها ويَتَكَهَّنَّ بالكيفيَّةِ التى سيتفاعلُ العريسُ بها إذا رَآى عَرُوسَه. ثم شرعتِ المُصَمِّمَةُ فى تَزْيِينِ يَدَىْ عائشةَ و رِجْلَيْها بالحِنَّاء. امرأَةٌ محترفةٌ ماهرةٌ فى هذا المجال تَمَّ استدعاؤُها من السُّودَان، دولةٍ فى شَمَالِ إفريقيا اشتهرتْ نساؤُها بحرفةِ التَّزْيِينِ بالحِنَّاءِ شُهرةً دوليَّةً.

فلما وصلَ أقرباءُ عمرَ إلى المكان، أَمْطَرَتْهُمْ عائلةُ عائشةَ وَابِلاً مِنَ الكَرَمِ مُحْسِنِينَ وفادتَهُمْ شَامِلِينَ لهم بعنايتِهم. لقد نزلوا عندهم ضيوفاً، فلا يستحقُّونَ إلاَّ التَّكْرِيمَ. وسَتَرُدُّ عائلةُ عمرَ بالمِثْلِ إذا رُوفقتِ العروسُ إلى أصهارِها ليلاً قبلَ زِفَافِها.

وجرتِ العادةُ فى المجتمعِ الهَوْسَاوِىِّ بأن تُقَدَّمَ العَرُوسُ إلى أحمائِها أوّلاً احترامًا لهم قبلَ أن تُزَفَّ.

ويُمَثِّلُ عقدُ النِّكَاحِ الذى انعقدَ إثرَ صلاةِ الظُّهْرِ فى المسجدِ الجامع ذُرْوةَ مَرَاسِمِ هذا الزَّوَاجِ. وشبَّ الحَشْدُ الذى شهدَ هذا العقدَ عن طوقِ السَّيْطَرَةِ. لقد تطلَّبَ ضبطُ الأمنِ والاستقرارِ فى مشهدِ هذا الزَّوَاجِ جهودًا مُتَضَافِرَةً مِنْ قِبَلِ عناصرِ أَجْهِزَةِ الأمنِ القوميِّ المختلفةِ. ولم يختفِ عن وجهِ (بابا) تعبيرُ الانبهار بحجمِ الحضور وفرحتُه العارمةُ. لقد كانَ مُوقِنًا بأنَّ عائشةَ بِنْتٌ مُبَارَكَةٌ وأنَّ خُطْوَةَ زَوَاجِها الأُولَى كانتْ على النَّهْجِ القَوِيمِ.

ولم تَخْدَعْ بعينى عائشةَ نعسةٌ تلك الليلةَ إثرَ عَقْدِ الزَّوَاجِ الرَّسْمِيِّ. فأيقظتْ صديقتيها، فجلستِ الثلاثُ يتجاذبنَ أطرافَ الحديث طيلةَ الليلة خَائِضَاتٍ فى الذِّكْرَيَاتِ المَاضِيَةِ مِنْ حَيَاتِهِنَّ بما فى ذلك لحظاتُ الفرحِ والترحِ الماضيةُ، الجديرةُ منها بالذِّكر وغيرُ الجديرةِ بالذِّكر. كما طَرَقْنَ موضوعاتٍ مختلفةً وثيقةَ العلاقةِ بالبنات. فلما سألتْها حليمةُ عن شعورِها مازحةً، كانَ جوابُها:

- لا أدرى، لا أدرى كيفَ أشعرُ ولا أدرى ماذا أشعرُ به؟

فقالتْ حليمةُ مُطَمْئِنَةً:

- إنَّ عمرَ لرجلٌ أيُّ رَجُلٍ.

فَتَمَلَّكَ عائشةَ الشعورُ بالتَّشَاؤُمِ ولكنَّها طَوَتْ فُؤادَها على ذلك. وضربتْ لَوْعَةُ البَيْنِ أطنابَها فى صدرِها فلم تَتَحَمَّلْ فِكْرَةَ الفراقِ بَيْنَهَا و بَيْنَ (بابا). لقد وثَّقَتْ أربعُ السَّنَوَاتِ التى مرَّتْ على علاقتِها مع (بَابَا) بعدَ رحيلِ (أُمَّا) أَوَاصِرَ التَّقَارُبِ بينَهما. وما إن أدَّت عائشةُ صلاةَ الصبح حتى انفجرتْ بِالْبُكَاءِ. فما تمالكتْ صديقتاها أن شاركتاها فى البكاء. وعلى الرَّغْمِ من ذلك، جعلتا تُوَاسِيَانِها وتُطَمْئِنَانِها مِرَارًا وتَكْرَارًا مُؤَكِّدَتَيْنِ لها بأنَّ الأمورَ ستكونُ على ما يُرامُ فى منزلِها الزَّوْجِيِّ.

وفى الثامنة صباحًا، ارتدتْ عائشةُ ملابسَ بَهِيَّةً اسْتِعْدَادًا لِيُطَافَ بها على أكابر أفراد عائلة زوجِها لتتزوَّدَ منهم بنصائحَ والبركةِ إعلانًا بِقُرْبِ نهايةِ الحفلةِ وإشعارًا بحلولِ أوانِ نقلِها إلى منزلِها الجديدِ. وزوَّدتْ (ماما) عائشةَ بخطبةِ وداعٍ تَمَيَّزَتْ بقُوَّتِها العاطفيَّة. فعانقتْ عائشةَ قائلةً:

- عزيزتى عائشةُ، لقد جاء دورُكِ. ما الزَّوَاجُ إلا جِسرٌ يتحتَّمُ عُبورُهُ على كلِّ امرأةٍ، وما هو إلا وقتُ الفِرَاقِ. وقتٌ تبينُ فيه العروسُ عن أبيها العزيزِ وجميعِ أَعِزَّائِها إلى بيئةٍ لم تطأْها قطُّ. صدِّقِينى، إنَّ تلك البيئةَ لهىَ مَقَرُّكِ الحقيقيُّ. احْتَرِمِى زوجَكِ وأهلَه يحترموكِ ويُحِبُّوكِ. وأَقِيمِى وجهَكِ للحَيِّ القَيُّومِ تَمْتَلِأْ حَيَاتُكِ نُورًا.

ثم عجزتْ (ماما) عَنِ المُتَابَعَةِ نظرًا لأنَّ عائشةَ راحتْ تَبْكِي بِدَمْعٍ هَتُونٍ. لقد بلغتْ خطبةُ (ماما) من عائشةَ كلَّ مبلغٍ، وجعلتْها تُدْرِكُ أنَّها على وشْكِ الرَّحِيلِ عن أهلِها إلى أهلٍ جَدِيدٍ، أهلٍ لا تعلمُ عنهم شيئًا سِوَى أنَّ ابنَهُم عمرَ أَمْسَكَ بِعِصْمَتِها وحالَ بينَها وبينَ أُسْرَتِها الذين كانتْ تَدِينُ لهم بالحُبِّ والوَلاَءِ.

فلما جاءَ دورُ (بابا)، أصرَّ على ضرورةِ حُضُورِ عُمَرَ. فلما أجابَ عمرُ رَنِينَ هاتفِه، سمعَ صوتَ أبى عائشة يأمرُه أن يحضرَ إلى غرفةِ جُلُوسِه، فامتلأَ خوفًا واستغرابًا. وكانَ وقتئذٍ فى خارجِ دارِ (بابا) ينتظرُ أن يرافقَ زوجتَه خُفْيَةً إلى منزلِه. فشقَّ طريقَه فورًا إلى غرفةِ

الجلوس مُتَّجِهًا صوبَ مجلسِ (بابا). فجلسَ على السَّجَّادَةِ التى كانتْ قريبةً من قَدَمَيْ (بابا) فقال وقد ضربَ بِذَقَنِه الأرضَ:

- أطالَ اللهُ بقاءَكَ، مساء الخير.

ولكنَّ (بابا) لم يَفْتُقْ رَتْقَ صَمْتِه وإنَّما نَظَرَ إليه فقالَ:

- يا بُنَيَّ، إنَّني أَهَبُ لكَ قِطْعَةً من قَلْبِي ودُرَّتِى، ابْنَتِي عائشةَ. وأُنْشِدُكَ باللهِ أن تشملَها بعنايتِكَ. ولا أُرِيدُ أن تتعرَّضَ مَشَاعِرُهَا لِلْجَرْحِ فى أَىِّ حالٍ مِنَ الأَحْوَالِ.

وما إن ذَكَرَ ذلك حتى مدَّ يديه فأمسكَ بإحداهما يدَ عُمَرَ وبالأخرى يدَ عائشةَ ثم ضمَّهما جميعًا. وعندئذٍ علمَ عمرُ أنَّ عائشةَ كانتْ جالسةً على مَقْرُبَةٍ منه. وكانَ قد دخلَ الغرفةَ مُضْطَرِبًا ومُتَحَرِّقًا شوقًا لمعرفةِ البَاعِثِ على نِدَاءِ (بابا) له بهذه الصُّورَةِ غيرِ المُتَوقَّعَةِ. فلم يَسْتَبِنِ الذين كانوا فيها. وكانتْ عائشةُ تَبْكِى صامتةً فانفجرتْ باكيةً بِدَمْعٍ هَتُونٍ؛ مما جعلَ (ماما) وصديقاتِ عائشةَ وسائرَ أفرادِ عائلتِها الذين تشرَّفوا بالحُضُورِ هناك ينفجرون بالبكاءِ. فلم تَسْمَعْ عائشةُ ما قالَه عمرُ ردًّا على مَطْلَبِ أبيها نتيجةَ أنَّها ضربتْ بذَقَنِها الأرضَ، ولكنَّها خَمَّنَتْ أنَّه إنَّما هزَّ رأسَهُ فقط حيث

إنها لم تسمعْه يتفوَّهُ بِبِنْتِ شَفَةٍ. وبينما كانتْ مُرْشَدَةٌ إلى الخَارِجِ، الْتَفَتَتْ فإذا أبوها يُكَفْكِفُ دموعَه التى كانَ يُحَاوِلُ إخفائَها. فهُرِعَتْ إليه راجعةً ثم تَشبَّثتْ به بكلِّ ما أُوتِيَتْ مِن قُوَّةٍ ممتنعةً عن الانطلاقِ؛ مما اضطرَّ (بابا) إلى مُرَافَقَتِها إلى السَّيَّارَةِ التى كانتْ فى انتظارِها لنقلِها إلى منزلِها الزَّوْجِيِّ فى جَوٍّ مَلِيءٍ بالرِّفْقِ والحُبِّ. منزلٌ تَتَمَنَّى أن تستقرَّ فيه ما دامتْ على قيدِ الحياةِ.

وكانتِ الشُّقَّةُ شاقَّةً وشَاسِعَةً. فلمَّا وصلوا إلى صُكُتُو قُبَيلَ العصر، تنفَّستْ عائشةُ الصُّعداءَ تَرْوِيحًا عن نَفْسِها مِن وَعْثَاءِ السَّفَرِ.

وكانَ منزلُ عمرَ ضمنَ المنازلِ التَّابِعَةِ للجَامِعَةِ الوَاقِعَةِ فى منطقةِ رُنْجِنْ سَمْبُو. ولقد انشرحَ صدرُ عائشةَ لما اكتشفتْ أنَّ أباها كانَ قد زوَّدَها بكلِّ وسائلِ الرَّاحَةِ. وكانَ بعضُ قريباتِها مِن جِهَّةِ أَبيها وأُمِّها قد شددنَ الرِّحالَ إلى صُكُتُو أسبوعًا قبلَ انطلاقِ الأحداثِ الرئيسيَّةِ لمَرَاسِمِ الزَّوَاجِ لأجلِ تزيينِ منزلِها. ويَتِمُّ هذا التزيينُ بِرِعَايَةِ أَبَوَيِ العَرُوسِ عادةً.

وأُغْدِقَتْ أَنْوَاعٌ مختلفةٌ مِن هَدَايَا الزَّوَاجِ على عائشةَ، منها الأدواتُ الإلكترونيَّةُ والأستارُ الفاخرةُ والسَّجَّادَةُ العاديَّةُ والعجميَّةُ وغيرُ ذلك من هَدَايَا الزَّوَاجِ.

وأشدُّها إثارةً لإعْجَابِ عائشةَ هي تلكَ الهديَّةُ التى أَهْدَاهَا لها أبوها. سيَّارةٌ جديدةٌ من شركة هُنْدَا أَكْوَدْ تَمَّ إيوَاؤُها فى مرأب مَنْزِلِهَا وأُلْصِقَت على مقعدِها الأماميِّ لَصِيقَةٌ مكتوبٌ عليها: أُهَنِّئُكِ يا عائشةُ و أتمنَّى لكِ التوفيقَ و أرجو أن تتَّخِذى ما مَضَى وراءَكِ ظِهْرِيًّا. كما أرجو أن تَشُدِّى لأمرِ هذا الزَّوَاجِ حِزَامَكِ. أنا حبيبُكِ دائمًا أبوك.

فانهارتْ عائشةُ باكيةً. ومن ثَمَّ قطعتْ وعدًا على نفسِها أن لا تُخَيِّبَ أملَ (بابا) وأن تجعلَ زواجَها قِصَّةَ نجاحٍ أيًّا كانتِ المِحَنُ.

# الفصل الخامس

تَشَبَّثَتْ عائشةُ بعزمها على أن تَظَلَّ زوجةً صالحةً ما دامتْ فى عصمة عمر رغمَ مُرُورِ شهورٍ على زواجِهما غيرَ مُبَالِيَةٍ بأنَّ راتِبَه الشهريَّ قاصرٌ عن سدِّ احتياجاتها. فبذلتْ كلَّ ما فى وُسْعِها من أجلِ تَكْمِلَةِ جُهْدِه براتبِها الشهريِّ. لقد حَظِيَتِ الآن بوظيفةِ الدَّوَامِ الكَامِلِ فى كُلِّيَّةِ الوِلاَيَةِ للآدابِ والدِّرَاسَاتِ الثَّقَافِيَّةِ حيث كانتْ قد أدَّتْ خدمتَها الوطنيَّة. و كانا أحيانًا، يَطْوِيَانِ بَطْنَيْهِما عن اللحم أسابيعَ طِوالاً، ولكنَّ عائشةَ لا تكترثُ لذلك عِلْمًا منها أنَّ غرسَ التمنِّي سيُثْمِرُ يومًا.

فلما تعطَّلَتْ سيَّارةُ عمرَ إذْ هُمَا فى شهرِهما الخامسِ من زواجِهما، باعتْ عائشةُ أَسْوِرَتَها مِنْ ذَهَبٍ الأكثرَ قِيمَةً شَدًّا على يَدِه وعَمَلاً عَلَى إعَادَةِ السيارةِ على الطريق. ولَمَّا أَضْرَبَ أعضاءُ هيئةِ التَّدْرِيسِ بالجامعات النيجيريَّةِ عن العمل وأعلنتِ الحكومةُ أنَّ الإضرابَ لا يَسْتَنِدُ إلى أَيِّ دَعْمٍ شَرْعِيٍّ، أصبحتْ عائشةُ قِوامَ الأسرةِ نتيجةَ أنَّ عمرَ كانَ محرومًا من راتبِه الشهريِّ بناءً على موقفِ حكومةِ ذلك العهدِ الجَازِمِ بِأَنَّهُ لا راتبَ لمَنْ لا يعملُ.

وحَبِلَت عائشةُ في غضون ذلك. فلما اقتربَ ميعادُ وضعِها والإضرابُ لا يزالُ على قدمٍ وساقٍ، اتَّفَقَا على أن تعودَ عائشةُ إلى أَهْلِهَا، إما إلى (بابا) أو إلى (ماما) حتى تضعَ حملَها جريًا على العادةِ الموروثةِ فى المجتمعِ الهَوْسَاوِيِّ. فوقعَ اختيارُ عائشةَ على منزل (بابا) تَأَثُّرًا بِغَيْبَتِه التى تُوحِشُها.

فمرَّت بالحَمل سالمةً. وكلما تحرَّك الجنينُ فى رحمها أَطْرَبَها الشوقُ إلى الاطِّلاع على ما يُخَبِّؤُهُ له المستقبلُ فى مَذَاخِره مغمورةً بمشاعرَ جديدةٍ مُفْرِحَةٍ.

فلما وصلتْ عائشةُ إلى جُوسْ أسبوعًا قبلَ تاريخِ وضعِها المُتَوَقَّعِ، خُيِّل إليها أنها مجردُ ضَيْفٍ فى بيتِ أبيها. وكانت غرفتُها السابقةُ قد طُلِيَتْ ورُتِّبَتْ. فوجدتْ بجانبِ سريرِها صندوقًا مليئًا بملابسِ الأَطْفَالِ هديَّةً من (بابا). وأمَّا سريرُ الطِّفْلِ وعربتُهُ اللذان اشتراهما (بابا) هديَّةً للطِّفْلِ المُنتَظَر فإنَّهما يبعثانِ بنشوةِ الفَرَحِ إلى أسفلِ عَمُودِ عائشة الفقريِّ. وإذا كان عمرُ عاجزًا عن الترحيب بِبِكرِ أولادِه بصورةٍ مُذْهِلَةٍ فإنَّ (بابا) قد قامَ بذلك.

وبعد خمسة أيَّامٍ، شعرتْ عائشةُ فجأةً بانهيار قُوَّتِها وقد خرجتْ مساءً لتَمْشِيَ الهُوَيْنَى كعادتِها. فعادتْ بسرعةٍ إلى المنزل؛ بغيةَ أن تستلقى فى غرفتها. وما كادتْ تستلقي حتى أخذَ الطلقُ يَضربُها بصورةٍ تدريجيَّةٍ ثم جعلَ يزدادُ عُنْفًا ثم أخذَ الجنينُ يركلُها فى رحِمها كأنه يحاولُ أن يَشُقَّ طريقَه من بطنها.

فأدارتْ عائشةُ ظهرَها إلى جانبٍ واحدٍ وهى تضرِبُ فخذَها اليُمْنَى بكفِّها وقد بلغَ منها الألمُ و اليأسُ مبلغًا كبيرًا. وجعلتْ تتساءلُ عن ما إذا كان الطلقُ على الأبوابِ مُدْرِكَةً تمامًا أنها تَفْتَقِرُ إِلَى مَنْ سَيُوَاسِيها و يُسْدِى لها النَّصِيحَةَ؛ الأمرُ الذى جعلها تَنْدَمُ على عدم اختيارها منزلَ (ماما). إنها حَقِيقَةً فى لحظة التجربة.

وفى غداة اليوم التالى، بدتْ عائشةُ مُرْهَقَةً وغائرةً بحيثُ إن (بابا) لم يتمالكْ أن نقلَها إلى المستشفى بسرعة لما رآى وضعَها. وفى مساءِ ذلك اليوم، أرسلَ (بابا) لأختِه الكبيرةِ، السَّيِّدَةِ (جُومَيْ) وقد بلغَ ألمُ المخاضِ من عائشةَ كلَّ مبلغٍ.

وما إن أرسلَ (بابا) لأختِه حتَّى وضعتْ عائشةُ ذاتَ بطنِها. فوضعتْها أنثى قُبَيْلَ مُنتصف الليل ولكنَّها أُغْمِيَ عليها بعدَ ذلك.

لقد طالَ عليها المخاضُ وأجهدَها ولكنَّ اللهَ يسَّر للطِّفْلَةِ السبيلَ اليومَ التالى. فلما أفاقتْ، كان (بابا) أوَّلَ من ظفرتْه عيناها، ثم رَأَتْ عمرَ بجانبِ سريرها فدلكتْ عينيها تَوْضِيحًا لِرُؤْيَتِهَا، ثم حاولتْ بضعفٍ أن تَنْهَضَ جَالِسَةً. فقال عمر:

- شفاكِ اللهُ يا عائشةُ. كيفَ تشعرين؟

فنظرَ إليها نظرةَ الأبِ الَّذِى تحقَّقَ حلمُه وانشرحَ صدرُه وامتلأَ إثارةً.

وفى اليوم السابع، سُمِّيَتِ الطفلةُ زينبَ. وكانتْ حفلةُ التسمية صَاخِبَةً. وشهدتْها (ماما) وصديقاتُها بصورةٍ مُذْهِلَةٍ. وكذلك أصدقاءُ عمرَ وأقرباؤُه. و أُهْدِيَتِ إلى الطفلةِ هدايَا تتراوحُ بين النقودِ والملابس.

فلما بلغتْ زينبُ أسبوعَها السادسَ، عادتْ عائشةُ إلى صكتو فى صحبةِ طفلتِها، فرحَّب بهما عمرُ ترحيبًا حارًّا. وكانتْ زينبُ أَهْدَأَ طِفْلَةٍ رأتْها عائشةُ فى حياتها. وكانتْ قُرَّةَ عينٍ للجميع. وكانتْ عائشةُ ممتنَّةً لذلك. وخطتْ زينبُ خطوتَها الأُولى وهى فى شهرها العاشر. وظهرتْ أُولى أسنانِها وهى فى شهرها الحادى عشر.

وأُدْخِلَتْ روضةَ الأطفالِ وعمرها ثلاثُ سنواتٍ، وحينئذٍ كانتْ عائشةُ حُبْلَى بطفلِها الثانى.

ثم أحرزَ كلٌّ من عمر وعائشة تقدُّمًا فى مهنَتِهما مع مرور السنوات. فحظي عمرُ بوظيفةٍ فى قسم التخطيط الاقتصاديِّ بوزارة الماليَّةِ فى أَبُوجَا بوساطةِ (بابا)، بعدَ مرور عشرة أعوامٍ على زواجِهِمَا. وكانت هذه الوظيفةُ الجديدةُ سُلَّمًا ترقَّى فيه عمرُ إلى قِمَّةِ النجاح. فترقَّى بصورةٍ تدريجيَّةٍ من منصب مساعدِ مديرِ التخطيط الاقتصاديِّ إلى منصبِ نائبِ المديرِ ومن ثَمَّ إلى منصبِ المدير. فاقتنعتْ عائشةُ بأنها أصبحتْ تعيشُ حلمَ حياتِها بناءً على هذه الترقية. ماذا تطمعُ فيه وبجانبها أربعةُ أولاد، اثنان منهم ذكران والأُخريان أُنثيان وزوجٌ ناجحٌ وأبٌ وَدُودٌ؟ وأصبحتْ زينبُ فى الثالثة عشرة من عمرها وصديقُ فى العاشرة من عمره وعائشةُ (الابنة) فى السابعة من عمرها وإبراهيمُ فى الخامسة من عمره.

ثم وجدتْ عائشةُ حياتَها السعيدةَ تتلاشى بين عشيَّةٍ و ضُحَاهَا عندما أخذَ عمرُ يقيمُ علاقاتٍ جنسيَّةً غيرَ شرعيَّةٍ مع سكرتيرته بعدَ خمسَ عشرةَ سنةً من زواجِهما. ومضى زمنٌ طويلٌ قبل

أن تكتشفَ عائشةُ ذلك. واشتبهتْ به أوَّلَ ما اشتبهتْ به عندما بدأ عمرُ يتصرَّفُ بغرابةٍ. فلما طَرَقَتْ عائشةُ الموضوعَ، جفلَ عمرُ فى ثوانٍ كثيرةٍ. لقد كانَ مُتَأَكِّدًا من أنَّ مغامراتِه كانتْ مصحوبةً بِحَذَرٍ. فَسَكَتَ دَقَائِقَ كَثِيرَةً وقد سيطرَ عَلَيْهِ الهُدُوءُ، وفجأةً، انفجرَ ضاحكًا.

فَسألتْه عائشةُ بهدوءٍ وقد كظمتْ غيظَها:

- ماذا يدعو إلى الضحك فى سؤالى؟

- انظرى يا عائشةُ، أعلمُ أن فريدةَ لا يَخْفَى جمالُها وذكاؤُها وأنها خفيفةُ الظِّلِّ ولكن، ليس بينى وبينها شىءٌ. ومما يبعثُ على الاستغراب أنَّكِ تمتعضين امتعاضًا غريبًا مِن لا شىء.

فاستشاطتْ عائشةُ غضبًا.ولم تَعُدْ أقلَّ غضبًا مِن ذِى قَبْل. فقالتْ:

- لِمَ لا أَسْتَشِيطُ غضبًا وزوجى يتسكَّعُ مع امرأةٍ لا تتحرَّجُ من إخبار مَن يُراعِيها السَّمْعَ بأن زوجى سيتزوَّجُها. ثم لما استفسرتُ منه عن ذلك، أثلجَ صدرى بإخبارى بأنَّ هذه

المرأةَ فائقةُ الجمالِ و أنها حلوةٌ، يا ترى! كِدتُ أنسى، و أنها تَتَمَتَّعُ بروحٍ مزاحيَّةٍ رائعةٍ.

وفجأةً، انقلبَ عمرُ مُحِبًّا. لقد أدركَ أنه كان مُغْرِقًا فى الثناء على فريدةَ فقال:

- هَوِّنِى عليكِ يا عائشةُ. أنا آسِفٌ، إنما قلتُ ذلك مزاحًا لا غَير. فى الحقيقة، لا أنوى أن أتزوَّجَ بامراةٍ أخرى عليكِ. يا عائشةُ، مِن فضلِكِ، تَجَاهَلِى كلَّ ما يطرقُ أذنيكِ مِن كلامِ الناسِ.

فاغْرَوْرَقَتْ عينا عائشةَ بالدموع، ولكنْ، على الأقلِّ، لا يَخْفَى عليها أنَّ عمرَ كان جادًّا فى ما أَدْلَى به؛ لأنَّ منظرَهُ يُصَدِّقُ ذلك.

وفى اليومِ التَّالِى، أمرَ عمرُ بنقل فريدةَ إلى قسمٍ آخرَ فى الوزارةِ تهدئةً لهواجسِ عائشة. فحلَّ محلَّها سكرتيرٌ رجلٌ جديدٌ. فعاشتْ عائشةُ مرتاحةَ البال طَوالَ أربع سنواتٍ إثرَ الحادثة دونَ أن تَشُوكَها مِن سُلُوكِ عمرَ شوكةٌ. وكانَ كُلَّمَا أرادَ أنْ يُقِيمَ علاقةً جنسيَّةً غيرَ شرعيَّةٍ فعلَ ذلك فى غِطَاءٍ عن عينيها. ومهما بذلتْ من

جهدٍ لتكتشفَ أَمْرَهُ فإنَّ جهدَها يَبُوءُ بالفشل. وفى أثناء ذلك، أحرزتْ مِهْنَةُ عمرَ تقدُّمًا باهرًا، فارتقى إلى منصبِ السِّكْرتِير الدَّائِمِ. فباتتْ عائشةُ مُقْتَنِعَةً بأنَّ خِتَامَ قَدَرِها مِسْكٌ. وعلى الرَّغْمِ مِنْ ذلك، كانتْ تَحْسَبُ أَلْفَ حِسَابٍ لنفيسةَ. ابنةٌ لابن عمِّ عمرَ مِنْ بَعِيدٍ.

# الفصل السادس

آوى عمرُ وعائشةُ نفيسةَ فى منزلِهما على خلفيَّةِ أنها قُبِلَت فى جامعةِ أَبُوجَا لدراسة الحقوق. وشعرَ أبوها الذى كانَ ابنَ عمِّ لعمرَ بأنْ يُودِعَها فى كَنَفِ عمر ليشملَها بعنايتِه نظراً إلى أنها ابنَةُ والدَيْها الوحيدةُ. فأكرمتْ عائشةُ مَثْوَاها. وكانت نفيسةُ أكبرَ من زينبَ بسنةٍ واحدةٍ؛ الأمر الذى جعل عائشةَ تعتقد أن ابنتَها زينبَ ستجعلُ منها قرينةً وزميلةً مثاليَّةً.

وكانت زينبُ قد أكملتْ دراستَها الثانوية ونالتْ قَبُولاً لدراسة علم المحاسبة فى جامعة أبوجا أيضًا. فبوَّءتْ عائشةُ البنتين جناحَ الضيف الذى بالطابق الأسفل مأوىً مُريحًا لهما.و جعلتْ تحت تصرُّفِهما سائقًا ينزلُ عندَ طلبِهما كلَّ وقتٍ. فسارت الأمورُ على أحسن ما يرام. فصارتِ الاثنتانِ صديقتين حميمتين.

وحاولَ عمرُ جاهدًا أن يعاملَ نفيسةَ كابنتِه من صُلْبِه ولكنَّ رونقَ شبابِها وَجَمَالَها وقفَا حجرَ عثرةٍ فى سبيله. فحاولَ أن يَطْوِيَ فؤادَه على أفكارِه السَّيِّئَةِ ولكنَّ ضبطَ نفسِه أخذَ فى التَّلاَشِى مع كرِّ الليل والنَّهَارِ بسببِ وجودِ نفيسةَ تحتَ سقفِه.

ومن ناحيةٍ أخرى، أخذتْ نفيسةُ علمًا بما تحملُ نظراتُ عُمَرَ فى طياتها وما يرمى إليه كلامُه عندما يختلى بها. وبعد شهورٍ، أصبحتْ نفيسةُ تنظرُ إلى عمر بوصفه رَجُلاً عاديًّا وليس بوصفه أَبًا. فنظرتْ إليه بوصفه رجلاً مَوْفُورَ الصِّحَّةِ سَهْلَ الانقيادِ تستطيعُ أن تتحكَّمَ به مستعينةً بجمالها. فبذلتْ في اغتنام أيّ فرصةٍ سانحةٍ للاختلاء به جهداً جبَّاراً، مع العلم بأنها تُشْعِلُ نارًا ربما لا تستطيعُ إطفاءَها.

وكانتْ قد اكتشفتْ ما تتمتَّعُ به من قُوَّةِ الجَمال والتَّأْثِيرِ الجِنْسِيِّ منذُ كانتْ فى السَّابِعَةَ عَشْرَةَ من عمرِها عندما كانتْ فى سنتِها الأخيرةِ فى المدرسة الثَّانَوِيَّةِ، إذ سافرتْ إلى كَنُو لقضاء أسبوعين من إجازتها فى منزلِ صديقتِها بلقيس. وكان أخو بلقيس قد رجعَ من إِسْبَانِيا لقضاء إجازته أيضاً. فلم يجدْها مثيرةً فحسب، ولكنْ، جعلَها تدركُ ما تتمتَّعُ به من التأثير الجنسيِّ فى الرجال أيضاً.

وهذا النَّوْعُ مِنَ التَّأْثِيرِ الجِنْسِيِّ الذى تتمتَّعُ به نفيسةُ لا يجدُه عمرُ فى عائشةَ غير أنَّ عائشةَ بالمقارنة إلى نفيسة امرأةٌ هادئةٌ و رابطةُ الجَأْشِ. وبعدَ ثمانيةَ عشرَ عامًا من زواجهما، باتَ نظرُ عمرَ

لعائشة أقربَ إلى أُخْتٍ منها إلى زوجة؛ لأنها لم تَعُد تتمتَّعُ بتلك الإثارة الجنسيَّة التى كانتْ تقودُهُ إلى الجُنُون قبلَ السَّنَوَاتِ المَاضِيَةِ. وكانتْ أُمًّا صالحةً حَسَنَةَ العِشْرَةِ. وكانَ عمرُ يُقدِّر لها ذلكَ حقَّ تقديرٍ غيرَ أنه يفتقرُ إلى دمٍ جديدٍ. وهذا الدم متوفِّرٌ فى نفيسة.

ولم يُثَبِّطْ عَزْمَ عمرَ عن مغازلة نفيسة كونُها غيرَ مُسْتَوْفِيَةٍ لعشرين سنةً من عمرِها. و اقتنع بأنَّ المرأةَ ما دامتْ فى الثامنةَ عشرةَ من عمرِها فإنها قد بلغتْ سِنَّ التَّمييز. إنَّها طالبةٌ جَامِعِيَّةٌ الآنَ ويانعةٌ للآكلين. وما أدرى عمرَ أنها طعامٌ ذو غُصَّةٍ.

لقد أيقنتْ نفيسةُ أنَّ عمرَ رجلُ حُلْمِها. لم يَشِتَّ بقلبِها وَجْدُ رَجُلٍ من الوهلة الأولى قطُّ غيره. وبعدَ أن جمعَهُمَا سقْفٌ واحدٌ على مدى شهورٍ، أصبحتْ أكثرَ تصديقًا لقلبِها. ولا يَهُمُّ كونُه ابنَ عمِّ أبيها ولاكونُه زوجًا لامرأة لطيفةٍ قامتْ عليها كما تقوم الأمُّ على ابنتِها. لقد كانتْ غايةً فى الأنانيَّةِ حيثُ أطلقتِ العِنَانَ للنَّفْسِ الأمَّارَةِ بالسوء لتركبَها بتسويلاتها. إنها بحاجةٍ إلى رجلٍ مَيْسُورِ الحَالِ. رجلٍ قادرٍ على أن يُؤَمِّنَ لها حياةً رغيدَةً. وكانَ عمرُ أفضلَ مُرَشَّحٍ لذلك.

وظلَّتِ العلاقةُ الغراميَّةُ القائمةُ بينَ عمرَ ونفيسةَ مزدهرةً سنتين كاملتين. وظلَّ عهدُ عائشة بنفيسةَ ابنةَ عمِّ عمر لا غير، وعهدُها بعمرَ ذلك الرَّجُلَ الوَدُودَ. كما ظلَّ عهدُها وعهدُ زينبَ بنفيسةَ تلك البنتَ الساذجةَ. وعلى نقيضٍ من ذلك، كانتْ نفيسةُ زَوَّارَةً مُتَرَدِّدَةً إلى مَضِيفِ عمرَ فى غطاءٍ عن عينى عائشةَ. ولَمَّا بلغتْ نفيسةُ سنتَها الأخيرةَ فى الجامعة، أبتْ إلاَّ أن تسمحَ لها عائشةُ بالانتقال إلى الجامعة للسُّكْنَى، فلم ترَ عائشةُ بذلك بأسًا. فسمحتْ لها حتى لا تَبْدُو قاسيةً عليها.

فلما تقدَّمتْ زينبُ بطلبٍ مُمَاثِلٍ، منعَها عمرُ بلا مُبَرِّر. وهكذا ظلَّت زينبُ طالبةً خارجيَّةً بينما تُقِيمُ نفيسةُ فى مسكنِ الجامعة. وكانَ ذلك فرصةً لها. فراحتْ تُرافِقُ عمرَ فى رحلاتهِ الرسميَّة، فما لبثتْ أنْ أصبحتْ امرأةً واسعةَ الخبرة فى شؤونِ الحياةِ الماديَّةِ. وكانتِ الأموالُ والرفاهيةُ تحتَ تصرُّفِها. وكانتْ تركبُ هَوَاها دونَ نكيرٍ من أبويها لكونها ابنتَهما الوحيدةَ.

فلما فطنتْ أُمُّ نفيسة لعلاقة ابنتِها مع عمرَ، انشرحتْ بذلك صدرًا. لقد أمسكتْ شبكتُها سمكةً كبيرةً. فما لبثتْ أن

أصحبتْ ضابطةَ العلاقاتِ بينَ عمر ونفيسة. خصوصًا، فى فترةِ الإجازات. إنَّ عمرَ لرجلٌ ثريٌّ وإنَّ مالَه لشيءٌ مرغوبٌ فيه لدى هذه الأسرة. ولم يَعُودوا يعتبرونَه فردًا من أفرادِ العائلة ولا عَمًّا لنفيسةَ ولكنْ أصبحوا يعتبرونَه ابنًا مستقبليًا بالمصاهرة.

ثم أخذتْ زيارةُ نفيسة لمنزل عمر تتقلَّصُ بصورةٍ تدريجيَّةٍ، ثم توقَّفتْ فى النهاية. فلما سألتْها عائشةُ، ما كانَ جوابُها إلاَّ أنْ قالتْ:

- ياسَيِّدَتِى، أنا غارقةٌ حتَّى أُذُنَيَّ فى الدِّرَاسَاتِ.

فلما شكتْ عائشةُ إلى أمِّ نفيسةَ أسلوبَ حياةِ ابنتِها الجديدَ، ما كانَ منها إلا أن تلقَّتْ شَكْوَاهَا بضحكٍ فقالتْ إنَّ عائشةَ تُولِى نفيسةَ عنايةً مُفْرِطَةً.

وليستْ عائشةُ وحدَها من لاحظَتْ تغيُّرًا فى أسلوب حياة نفيسة.

لقد حاولتْ زميلةٌ لنفيسة فى الفصل والغرفة أن تُحَذِّرَها غيرَ مَرَّةٍ ولكنَّ نفيسةَ تصامَّتْ عن تحذيراتِها. فلم تتملَّكْ سميرةَ الحَيْرَةُ حتى أخبرتْها نفيسةُ عن علاقتِها الغراميَّةِ مع عمرَ، وَصِيِّها وأبى صديقتِها زينبَ.

فشهقتْ سميرةُ فقالتْ مُستَغرِبَةً:

- ماذا أَصَابَكِ يا نفيسةُ؟ لماذا تَسْتَسْلِمِينَ لِجِمَاحِ نَفْسِكِ السَّخِيفَةِ؟ لقد كنتُ أَعُدُّكِ من النِّسَاءِ الذَّكِيَّاتِ.

- انظُرِى يا سميرةُ، إنَّ هذه العَلاَقَةَ تَرْقَى إلى الوقتِ الذى كنتُ أعيشُ فيه تحتَ سقفِه.

- يا نفيسةُ، كيفَ سمحتِ للسَّفَاهَةِ بأن تَبْطِشَ فِيكِ بباعٍ بَسِيطٍ؟ إنما يستغلُّكِ هذا الرجلُ. أَتَظُنِّينَ أنَّه لا يُحِبُّ زوجتَه؟ أم تَظُنِّينَ أنَّ زوجتَه سَتَقِفُ مكتوفةَ اليَدَيْنِ وتُشَاهِدُ زوجَها يتزوَّجُكِ؟

فقالتْ نفيسةُ ضاحكةً مُعْتَبِرَةً قَلَقَ سميرةَ زَوْبَعَةً فى فِنْجَانٍ:

- لن تَشُوكَنى منها شوكةٌ.

فقالت سميرةُ وقد استشاطتْ غَضَبًا:

- يا نفيسةُ، إنَّ هذا الأمرَ أكبرُ من مُجَرَّدِ أُضْحُوكَةٍ. لا تَسْخَرِى مِن نفسِك يا عزيزَتِى. هذا مستحيلٌ. إنما يَسْتَغِلُّكِ بحقِّ السَّمَاءِ!

فقالت نفيسةُ:

- إنه جادٌّ يا سميرةُ.

ثم أخرجتْ نفيسةُ عُودًا مِنَ السَّجَائِرِ من حقيبتِها فَنَفَثَتِ الدُّخَانَ نفثةً مُتَرَافِقَةً مع السُّعَالِ.

فَظَلَّتْ سميرةُ متفاجأةً. ثم شعرتْ بأنَّ مِن وَاجِبِ الصداقةِ أنْ تُنْقِذَ نفيسةَ مِنَ الهَلاَكِ. فقالتْ لاجئةً إلى مَلْجَئِها الأخيرِ:

- سأتَّصِلُ بأُمِّكِ يا نفيسةُ لأُحِيطَها علمًا بما تُحَاوِلِينَ أنْ تفعلى بنفسِكِ.

فضحكتْ نفيسةُ وَهِيَ تَنْفُثُ مَزِيدًا من الدُّخَانِ من مَنْخَرَيْهَا ثم قالتْ:

- لا تُضَيِّعِي وقتَكِ يا سميرةُ. إنَّ أُمِّى على علمٍ بما يَجْرِى الآن. لقد وَعَدَنِى عمرُ الأسبوعَ المَاضى أن يُطَلِّقَ زوجتَه إذا حاولتْ أن تُسِيءَ التصرُّفَ .

فقالتْ سميرةُ وهى تَهُزُّ رأسَها اسْتِنْكَارًا:

- إذا طَلَّقَ عمرُ زوجتَهُ بسببكِ فاعلمي أنَّكِ لن تُمْضِي معه أكثرَ مِن بضعةِ أشهرٍ. أيَّ نوعٍ من الحياة ستعيشينَ مع رجلٍ

فى سِنِّ أبيكِ؟ اسمعى يا نفيسةُ، إنَّ الرَّجُلَ الذى يخذلُ زوجتَه التى أَمْضَى عشرين عامًا معها عندما يجدُ امرأةً أخرى أحبَّ إليه غيرُ جديرٍ بالثِّقَةِ، وكذلك الرجل الذى يتخلَّى عن عائلتِه مِن أجلِ صديقةٍ. صَدِّقِينِي يا نفيسةُ، إذا طوَّعتْ له نفسُه فِعْلَ ذلك مَرَّةً فَستُطَوِّعُ له تكرارَ مِثْلِه مِرَارًا كثيرَةً.

- يا سميرةُ، لا تُقْلِقِينِي. لا أَدْرِى لماذا تنزعجين مِن أمرٍ تَافِهٍ. إننى أُحِبُّ عمرَ وسيكونُ لى.

- بالتوفيق

- لقد أصبحتُ مُتَوَّجَةً به، وعلى كلِّ حالٍ، شكرًا على ذلك.

فهَمَّتْ سميرةُ بإبْلاغِ زينبَ، ثُمَّ ضربتْ بالفكرة عُرْضَ الحائطِ عِلْمًا أن ذلك لن يُجْدِىَ نَفْعًا. كيفَ ستُدَافِعُ عن نفسِها إذا تولَّدَتْ أزمةٌ من ذلك؟ فقرَّرَتْ أن تَتَصَامَّ عن ذلك وتُرَاقِبَ نفيسةَ مكتوفةَ اليدين. فلم تطرقْ سميرةُ موضوعَ عمرَ مع نفيسةَ بعد ذلك.

# الفصل السابع

جعلَ عمرُ يدلكُ شعرَ رأسِه بِكَفَّيْهِ تهدئةً لقلقِه. فنظرَ إلى ساعة رسغِه. سيَصِلُ ضُيُوفُه فى بِضْعِ دقائقَ. وإذا تتوَّجَ هذا الاجتماعُ بالنجاح فإن ذلك سيُمَهِّدُ لاعتزاله الخدمةَ الحُكُومِيَّةَ. وستَكونُ أَنْجَحَ الصفقاتِ التى أبرمَها فى حياتِه العمليَّةِ. وستَجْلُبُ له مزيدًا مِن الأموالِ والدِّيَارِ والسَّيَّارَاتِ، وفضلاً عن ذلك، ستجعلُ نفيسةَ فى مُتَنَاوَلِ يَدِه.

وهذه هى الصفقةُ التى ينتظرانِ إبرامَها لكى يُعْلِنَا على رؤوسِ الأشهادِ أمرَهما وزواجَهما الوشيكَ الحُدُوثِ. السَّيِّدُ عمرُ إبراهيمُ، المِلْيُونِيرُ الكبيرُ هو زوجُ عائشةَ، أُمِّ أولادِهِ الأربعةِ ونفيسةَ التى سَتَلِدُ له أربعةَ أولادٍ آخَرِينَ.

لقد أحكمَ التَّخْطِيطَ لذلك. سيَعْتَزِلُ الخدمةَ الحكوميَّةَ ويُقِيمُ فى أَبُوجَا. ثم ينقلُ عائشةَ إلى صُكُتُو لتُقِيمَ فى منزلِه هناك ثم يُمْضِى هو ونفيسةُ شهرَ عَسَلِهما على الأقلِّ ثلاثَ سنواتٍ قبلَ أن يبدآ بالإنجابِ. سَيَتَلَذَّذُ بِرَوْنَقِ شَبَابِهَا حتى لا يرغب فى شىءٍ منها. لقد

علمَ أنه قد اشتراها هى وعائلتَها بمالِه وأنَّ له أن يتصرَّفَ بها كما يَحْلُو له دونَ اعتراضٍ من أحدٍ.

وكانتْ عائشةُ مُسَافِرةً إلى جُوسْ منذُ اليومين الماضيين لعيادة أبيها المريضِ فى صحبة أبناءها جميعًا. وكانوا فى فترة الإجازةِ الطويلةِ. وتَمَّ إطلاقُ سراحِ جَدِّهم من المستشفى منذ عهدٍ قريبٍ. وكان عمرُ لا يتوقَّعُ عودةَ عائشة قبلَ اليومين التاليين. وكانَ قد أَذِنَ للأولاد أن يُمْضُوا أُسبوعًا كاملاً عند جَدِّهِم. ولولا الخَدَمَةُ لكانتِ الدَّارُ خاليةً. ولكنَّهم – على الرغم من ذلك – لا يُشَكِّلُونَ خطرًا. ورَتَّبَ لأن يَجْلُبَ نفيسةَ مِن منزلِ صديقٍ له. وكان قد طلبَ مِنها الزيارةَ فى منزلِه الزَّوْجِيِّ لِيُمْضِيَا اللَّيْلَةَ مَعًا. لقد أصبحتِ الدُّنْيَا ترقصُ على نغماته.

ولقد تَمَّ اتخاذُ القرارِ التمهيديِّ بشأنِ ما سيحدثُ الآن قبلَ اليومين الماضيين. فلما اقترحَ مديرُ الماليَّةِ و الإمدادِ هذه الفكرةَ قبلَ الشَّهْرِ المَاضِى، لم يقعْ ذلك مِن عُمَرَ موقعَ الرِّضَا والقَبُولِ. إنَّ الفكرةَ تَنْطوِى على خَطَرٍ شديدٍ، خُصوصًا إذا أخذنا بعين الاعتبار الجهودَ التى تَبْذُلُها الحكومةُ القائمةُ لأجلِ استئصالِ شَأْفَةِ الفَسَادِ

الإداريِّ. و بعد أن تَرَوَّى عُمَرُ فى الأَمْرِ أَيَّامًا كثيرةً، قَرَّرَ أن يُجَازِفَ. إنَّ الصَّفْقَةَ دَسِمَةٌ جدًّا، وإنْ ردَّها فإنَّ المديرَ قد يعرضُها على الوزير، و بالتالى، يخسرُها هو بوصفِه سَكْرَتِيرًا دائمًا.

وبعدَ الاتفاق مع مُدير الماليَّةِ و الإمداد، كانَ نصيبُ عمرَ من الصفقة سِتَّةً وثلاثينَ مليونَ نَيْرَةٍ. و إضافةً إلى ذلك، أكَّدَ له المديرُ بأنَّ كافَّةَ المَهَارِبِ القَانُونِيَّةِ فى نَصِّ الاتفاق قد تَمَّ أخذُها بالحُسْبَانِ. كما أكَّدَ له بأنهم كانوا قد أبرموا صفقةً مُمَاثِلَةً مع السكرتيرِ الدَّائِم السَّابِقِ بنجاحٍ. وأخيرًا، سيَتِمُّ توقيعُ الاتفاق ذلك اليوم. مرحى! يا له من مبلغٍ ماليٍّ طائلٍ.

وانقطعَ حبلُ أفكارِه عندما دقَّت سكرتيرتُه البابَ لِتُعْلِمَه أنَّ مُديرَ الماليَّةِ والإمدادِ قد وَافَى فى صحبة الرجلين المُعَاهِدَيْنِ، السَّيِّدِ بُوبَ عبد الله والسَّيِّدِ بَلُّو شَيْحُ.

فلما دَنَوْا مِن منضدتِهِ، نهضَ إليهم عمرُ من مقعدِه فقابلَهم وَسَطَ مكتبِه الرَّدَاحِ. فصافحَهم جميعًا وَسْطَ ابتساماتٍ، ثم أرشدَهم إلى غُرفة جلوسِه الخاصَّةِ المُلْحَقَةِ بالمكتب. فلما استقرَّ بهم الجلوسُ، أمرَ عمرُ سكرتيرتَه أن تُقَدِّمَ لهم الشايَ. فامتثلتْ أمرَ

سيِّدِها على الرَّأْسِ والعَيْنِ. وما إن خرجتْ من المكتب حتى تَنَحْنَحَ مُدِيرُ الماليَّة، فألقى نظرةً على السَّيِّدِ بُوبَ فقال:

- يا بُوبَ، لقد كُنَّا صديقين منذ صِغَرِنا. ولذلك، لا داعى لِلَّفِّ والدَّوَرَانِ. هذه أَوَّلُ مَرَّةٍ يُشَارِكُ سَيِّدى فى هذ النوع من الصفقة.

فافْتَرَّ عُمَرُ افترارَ مُتَضَاحِكٍ فمَضَى المديرُ قائلاً:

- لا أُرِيدُ أن تُمْنَى هذه الصفقةُ بالفَشْلِ. ولا يَخْفَى على كُلٍّ منَّا نصيبُه وما يَنْطَوِى على هذه الصفقة من الفَوَائِدِ. ويجبُ أن تَبْقَى صفقتُنَا هذه فى طَيِّ الكِتْمَانِ. كما يجبُ أن لا يَطَّلِعَ عليها الطَّرَفُ الثالثُ. وإذا وُقِّعَ الشِّيكُ سَلَّمْتُمُوهُ حسبما جَرَى عليه الاتفاقُ. هل كلامى واضحٌ؟

ثم مَضَى المُدِيرُ يُوَضِّحُ الأدوارَ المختلفةَ التى تَقِفُ لكلٍّ منهم بالمِرْصَادِ. وَوُقِّعَتْ أوراقٌ وَسْطَ فَنَاجِينِ القهوة. واستغرقَ الاجتماعُ ساعةً و نصفَ ساعةٍ. فلما نَهَضُوا للمُغَادَرَةِ، رَافَقَهُمْ عُمَرُ إلى الباب. فوقفَ هناك يُشاهدُهم حتَّى تَوَارَوْا عن بصرِه. ثم شعرَ بالإرهاق. وفجأةً، تَمَلَّكَه الخوفُ. ثم بلغَ خوفُه مَبْلَغًا لم يسبقْ له مَثِيلٌ

فى حياتِه. ولكنَّ الصفقةَ قد أَصْبَحَتْ مُبْرَمةً. و سيصبح [illegible] كبيرًا، ورجلاً ثريًّا. وكانتْ نفيسةُ فى انتظارِه.

# الفصل الثامن

لما ألحَّ (بابا) على عائشةَ أن ترجعَ إلى أَبُوجَا ذلك اليومَ، كانَ ينتابُها شعورٌ بأنَّ ثَمَّةَ خَطْبًا مَّا، ولكنَّها لم تَقِفْ على هذا الأمر. وكانتْ خُطُوطُ الهاتفِ إلى أَبُوجَا من مدينة جُوسْ شَغَّالَةً ولكنَّها مع ذلك لم تُشْعِرْ عمرَ بقَرَارِها أن تعودَ إلى أَبُوجَا ذلك اليوم. وكان هاتِفُه الخَلَوِيُّ مُقْفَلاً منذُ ساعاتٍ. فأقبلتْ على رِحْلَتِها إلى أَبُوجَا دونَ إعلانٍ.

وكان عُمَرُ غارقًا حتى أُذُنَيْهِ فى العملِ ذلك اليوم. وبعدَ إبرام الصفقة، جلبَ نفيسةَ فى السابعة مساءً بُعَيْدَ صلاةِ المغرب مِن منزلِ صديقِه. وامْتَنَعَ أَنْ يُشَارِكَهُمْ فى تَنَاوُلِ العَشَاءِ مُحْتَجًّا بقوله:

- عندى موعدٌ فى الساعة السابعة ويجبُ أن لا يَفُوتَنِي.

فلما دخلَ عمرُ منزلَه الزَّوْجِيَّ ذلك المساء فى صحبةِ نفيسةَ بوصفِه مُحِبًّا لا وَصِيًّا، حاولَ أن يتعاملَ معها بصورة غير مُثِيرةٍ للشُّبْهَةِ نظرًا إلى أنَّ الخُدَّامَ موجودون. و كانتْ مُرْتَدِيَةً أبْهَى وأغْلى ملابسِها كأنَّها تَزَيَّنَتْ لحفلةِ زواجٍ. وكانتْ تبدو

جذَّابةً بحيث إنها قادرةٌ على أن تقودَ كلَّ رَجُلٍ مريضِ القلبِ مثل عُمَرَ إلى الجُنُونِ بِسُهُولَةٍ.

وتناولَ جزءً من عَشائه ثم جعلَ يَرْنُو إلى نفيسةَ بصورةٍ غيرِ منقطعةٍ. وما إن انتهى من تناوُلِ عشائه حتى سألَ خَدَمَةَ المنزلِ أن ينصرفوا.

لقد غابَ عن ذهنِه فكرةُ عائشةَ و أولادِها الذين سافروا إلى جُوسْ لعيادة جَدِّهم.فلما أرشدَ نفيسةَ إلى غرفة جلوسه فى الطابقِ العُلْوِيِّ، أخذتْهُ نَشْوَةُ جَذَلٍ لم يشعرْ بمثلها قطُّ. أَ مَرَدُّ ذلك إلى أنَّ هذه هى أوَّلُ مَرَّةٍ يُقيمُ فيها علاقةً جنسيَّةً غيرَ شرعيَّةٍ فى عُقْرِ دارِه الزوجيَّةِ أمْ إنَّ مَرَدَّهُ إلى شيءٍ آخرَ؟ إنَّ عُمَرَ نفسَه لا يستطيعُ بيانَ سبب هذا المزَاج الفُجَائيِّ. فجلسَ الاثنان مُدَّةً طويلةً دون أن يَفْتُقَا رَتْقَ صمتِهما. وأخيرًا، كَسَرَ عُمَرُ حَاجِزَ الصمتِ فقال بصوتٍ أَجَشّ:

- يا نفيسةُ

فنظرتْ إليه بغرابةٍ مُرْتَجًا عليها.

- هل تُدركين أنَّنا نُجْحِفُ بحقِّ عائشة؟

فأجابتْ:

- نعم، ولكنَّنا سنتزوَّجُ عما قريبٍ. فما العيبُ فى زيارتى المَنْزِلَ الَّذِى سَأُمْضِى فِيهِ حَيَاتِى الزَّوْجِيَّةَ فى المُسْتَقْبَلِ؟

فأخذَ قلبُها ينبضُ؛ لأنها ستكونُ زوجةً له. ثم كرَّرَ عمرُ:

- يا نفيسةُ.

- نعم؟

- هل تُحِبِّينَنى؟ إننى لا أتصوَّرُ أنَّ شابَّةً مثلَكِ سَتَسْمَحُ لرَجُلٍ فى سِنِّ أبيها بِأَنْ يُمْسِكَ بِعِصْمَتِهَا. إننى أشعرُ أننى فى عَالَمِ الأحلام وقد أُفِيقُ من حُلْمِى هذا عما قريبٍ.

فابتسمتْ نفيسةُ إلى عُمَرَ بَسْمَةً مُغْوِيَةً، فقالتْ:

- يا عُمَرُ، لقد أصبحتُ كبيرةً بالكفايةِ لمعرفة ما أُحِبُّه. فى وِسْعِنَا أن نُحَدِّدَ موعدَ الزَّوَاجِ هذه الليلةَ إن كانَ ذلك سيجعلُكَ فى حالةٍ مِزَاجِيَّةٍ طَيِّبَةٍ.

وفجأةً، شَعَرَ عمرُ بالابتهاج، فنهضَ إلى نفيسة، فأقامَها من مقعدِها ثم جرَّها إليه قائلا:

- لقد أَثْلَجْتِ صدرى يا نفيسةُ. إنَّ شيخوخَتى و تَقَاعُدِى سيكونانِ رَائِعَيْنِ. تعالَىْ، لقد كنتُ أحْتَفِظُ لَكِ بِهَدِيَّةٍ انتظارًا لهذه المناسبة.

فاتَّبَعَتْه بهدوءٍ إلى غرفة نومه.

فاختارتْ عائشةُ القُدُومَ مِن سَفَرِها تلكَ اللحظة دونَ إعلانٍ. وما إن دخلتْ فى البيتِ حتى جعلتْ تُحَدِّقُ إلى الشقَّةِ المُظْلِمَةِ و تعبيرُ الحَيْرَةِ يَرْتَسِمُ على وجهِها.

لماذا لم يخرجْ عُمَرُ الليلةَ؟ و لماذا اضطجعَ مُبَكِّرًا؟ فنظرتْ إلى ساعة رسغِها فإذا هى العاشرةُ والرُّبْعِ. و كانتْ جميعُ سيَّاراتِهم مَرْكُونَةً فى المرأب بِلاَ اسْتِثْنَاءٍ. فتوجَّهَتْ إلى البابِ، فَلَوَتْ مقبضَهُ فإذا البابُ الأماميُّ غيرُ مُغْلَقٍ. مما يعنى أنَّ جَيْمْسْ، خادمَ المنزلِ لَمَّا ينمْ. ولَمَّا دخلتْ، خرجَ جَيْمْسْ مِن المطبخِ. فقالَ جَافلاً:

- مرحبًا بِكِ يا سَيِّدَتِى. لم نَكُنْ نتوقَّعُ عودتَكِ اليوم.
- نعم، لقد كنتُ مُضْطَرَّةً للعودة اليوم. أينَ ربُّ المنزل؟
- إنه فى الطابق العلويِّ يا سيدتى. قد يكونُ نائمًا الآن. أَ أُقَدِّمُ لكِ طعامًا أم أُعِدُّ لكِ الشَّايَ؟

- لا، شكرًا لكَ يا جَيْمْسْ. أنا شَبْعَى. إنما أشعرُ بالإرهاق، وتشتدُ حاجتى إلى قسطٍ مِنَ الرَّاحَة.قُلْ للسَّائقِ أن يتركَ مَتَاعِى فى السَّيَّارَةِ حتى غدٍ. وله أن يخلدَ إلى الرَّاحَةِ إذا فَرِغَ من تناوُلِ الطعام الذى ستُقَدِّمُه له.
- أَجَلْ يا سَيِّدَتِى.

ثم انطلق جَيْمْسْ حتى إذا بلغَ البابَ وقفَ قُبَيْلَ أن يَخْطُوَ خطوةً إلى الخارج فقال:

- يا سَيِّدَتِى، لقد جاءتِ اليومَ من الجامعةِ السَّيِّدَةُ نفيسةُ. إنها موجودةٌ أيضا.

فقضتْ عائشةُ العجبَ من ذلك. لقد مَرَّ أكثرُ مِن أربعة أشهرٍ على زيارةِ نفيسةَ الأخيرةِ للمنزل.

- أين هى؟
- أَظُنُّها فى الغرفة المشتركَة بينها و بينَ زينبَ.
- طَيِّب، لكَ أن تنصرفَ يا جَيْمْسْ.

فخرجَ جَيْمْسْ مِنَ الباب. فتَحَيَّرَتْ عائشةُ عندما اكتشفتْ أنَّ غرفةَ الضيف خاليةٌ. أين هى؟ هل غادرتْ فى

هذه السَّاعَةِ المُتَأَخِّرَةِ؟ فاستدارَتْ لتَتَسَلَّقَ المَرَاقِيَ إلى غُرفةِ زوجِها. فلما وصلتْ إلى الطَّابَقِ العُلْوِيِّ، كان النُّورُ ساطِعًا فى الغرفةِ. وأخذتْ عِلْمًا بذلك مُلْقِمَةً عينَها خَصَاصَةَ بابِ الغرفةِ.

وفجأةً، تسمَّرَتْ واقفةً كجِسْمٍ انقلبَ تِمْثَالاً ويَدُها على مقبضِ البابِ. لقد سمعتْ صوتًا مُنْخَفِضًا من الغرفة يقول:

- تبدينَ جميلةً يا نفيسةُ. ما أَلْيَقَ هذه الملابسَ بكِ! كأنها لم تُصَمَّمْ إلا لأجلكِ.

ثم سمعتْ ضحكةً تَنْبَعِثُ مِنَ الغُرْفَةِ مُنْخَفِضَةً وتَفُوحُ منها رَائِحَةُ الإِغْوَاءِ، فعلمتْ دونَ ريبٍ و لا رَجْمِ غَيْبٍ أنَّ أَحَدَ الصوتين لزوجِها عمرَ و الآخَرَ لنفيسةَ. فأثارتْ صدمتَها ضحكَةُ نفيسةَ تلك فى اللحظة الأولى. فتسمَّرتْ واقفةً هناك وقد سَيْطَرَتْ عَلَيْهَا الحَيْرَةُ ويدُها على مقبض البابِ. هل تَدْمُرُ عليهما؟ ثم اتَّخَذَتْ مَوْقِفَهَا مُبَاشَرَةً. فاستدارتْ لاَجِئَةً إلى غُرفتِها الشخصيَّةِ، فوجدتْها مُغْلَقَةً. فدخلتْ غرفةَ الأولادِ وقد تملَّكَها الشعورُ بالإرهاق، وترتعدُ رُكْبَتَاهَا.

فجلستْ على أقربِ السَّرِيرِ إليها. وجعلتْ تبكى على خِيَانَةِ عمرَ لها وقد غطَّتْ وجهَها بِكَفَّيْها. فجلستْ هناكَ مُدَّةً طويلةً دونَ أن تتحرَّكَ.

لم تشعرْ عائشةُ بالحَرِّ الذى كانتِ الغرفةُ تكتوى به. وكانتْ لا تَلْوِى إلاَّ على الرُّعْبِ الذى كان يتملَّكُها. الزَّوْجُ الذى تعلَّمَتْ بالتَّدريجِ أن تُحِبَّه حُبًّا عميقًا وأن تَثِقَ به ثقةً كاملةً قد خانَها فى عُقْرِ دارِها الزَّوْجِيَّةِ. لقد قَدِمَتْ مِن سفرِها لتَجِدَ نفيسةَ، ابنةَ أخى زوجِها فى غرفته. فلما تذكَّرَتْ أنها قامتْ على نفيسةَ خيرَ القيامِ وأنها آوَتْها إلى ظِلِّ كرمِها بحُبٍّ خالصٍ، ازدادَ رُعْبُها. وذلك مما يجعلُ فَعْلَةَ عمرَ غيرَ مُغْتَفَرَةٍ. بنتٌ فى سِنِّ ابنتِها وصديقة ابْنَتِها، إصفافةً إلى أنها تعيشُ تحتَ سقفِها. هل مِن حُرْمَةٍ انتهاكُها أشدُّ قُبْحًا مِن هذه؟ لم تَكُفَّ عائشةُ عن التعجُّبِ من دورِ نفيسة فى هذه الحادثة. وظلَّتْ منهمكةً فى أمرِ زوجِها، عمرَ. قد تلجأُ معظمُ النساء إلى وضعِ اللَّوْمِ على المرأةِ المُتَطَفِّلَةِ فى مثلِ هذه القضيَّةِ، ولكنَّ عائشةَ آثرتْ أنْ تَصُبَّ لومَها على عُمَرَ. فنفيسةُ — بالنسبة لعائشةَ — بريئةٌ. لقد اكتشفتِ الآن سببَ بُرُودَةِ عمرَ وعدم مُبالاَتِه

فى الآونة الأخيرة. كانتْ تتوهَّمُ أنَّ مَرَدَّ ذلك إلى كَثْرَةِ أعمالِ المكتبِ. ولم يَعُد يَخْفَى عليها سببُ اختياره أن يَبِيتَ فى غرفتِه على انفراد. لقد حَصْحَصَتِ الدَّوَافِعُ وراءَ كثيرٍ من الأفعالِ و الأقوالِ الغَرَائِبِ التى صدرتْ منه مُؤَخَّرًا.

فحَنَتْ رأسَها حتَّى مَسَّتْ به ركبتيها، فامْتَخَطَتْ فى إزارِها. ثم جلستْ لا قِبلةَ لها و لا دِبرةَ. ماذا ستقولُ لعُمَرَ أو لنفيسة؟ أَتَتَّصِلُ بأَبَوَىْ نفيسةَ أم تَتَّصِلُ بأبيها هى؟ لا، إنَّ أباها إنما بدأَ يتماثَلُ للشِّفَاءِ إثرَ مرضٍ ألمَّ به. إنها لا ترغبُ فى أن تُقْحِمَه فى مشكلاتِها. حسبُه مشكلاتُه الشخصيَّة. إنَّ عُمْرَهُ الآن لا يأخذُهُ بالحُسْنَى. ماذا عن (ماما)؟ لا، مستحيلٌ! بل يجبُ عليها أنْ تعملَ على حلِّ مشكلاتِها بنفسِها.

فقامتْ عائشةُ وهى تَتَصَبَّبُ عَرَقًا، فقرَّرَتْ أن تذهبَ إلى الشُّرْفَةِ طلبًا لنسمةِ الهواء المُنْعِشَةِ. إنها لا تريدُ أن تُشَغِّلَ المُكَيِّفَ ولا النُّورَ؛ لأنها لا تريدُ أن يعلمَ عُمَرُ بوجودِها. على الأقلِّ ليس بعدُ. فاصطدمتْ بعُمَرَ فى ظلمة الشُّرْفَة. وكان قد خرجَ إلى هناك للتدخين. فأثارَ صدمةَ عُمَرَ بصورة شديدةٍ احْتِكَاكُهُ بجسمٍ أُنْثَوِيٍّ

بصورةٍ مُفَاجِأَةٍ. لقد كان على يقينٍ مِن أنَّ نفيسةَ تغتسلُ فى الحَمَّامِ. فَخَفِيَتْ عليه هُوِّيَّةُ هذا الجسم فى اللحظة الأولى. فقال بِحِدَّةٍ و قد أَمسكَ بعائشةَ:

- من هذه؟

فرجعتْ عائشةُ القهقرى وقلبُها ينبضُ بصورةٍ هائلةٍ. لقد أفقدَها صوتُه شجاعتَها، فلم تتمالكْ أعصابَها. ونتيجةً لذلك، انفجرتْ باكيةً. فقالتْ على مَضَضٍ وهى تدفعُه جانبًا فى محاولةٍ لأَنْ تَلْجَأَ إلى غرفة الأولاد بِسُرْعَةٍ:

- أنا عائشةُ.

فلما دخلتِ الغرفةَ، رَمَتْ بنفسِها على السَّريرِ ناشجةً. فانبطحتْ هناكَ على الوسادةِ و الدموعُ السَّاخِنَةُ تَنْسَكِبُ من عينيها و ترتعدُ فرائصُها على نحوٍ مُتَهَوِّرٍ كأنَّها تنظرُ إلى شَبَحٍ و هو ماثلٌ بين يديها.

فَتَسَمَّرَ عُمَرُ واقفًا حيث كانتْ قد تركتْه، فى ظُلْمَةٍ حَالِكَةِ الجِلْبَابِ. يستبدُّ به الشعورُ بالذنب و تتملَّكُه الصدمةُ والمُفَاجَأَةُ. فسألَ نفسَه: " أعائشةُ فى الدار؟ متى رجعتْ؟ وكم مضى على

وجودِها؟ وكم سمعًا اسْتَرَقَتْ إلينا؟ مِنَ المُفْتَرَضِ أن تكونَ فى جُوسْ حَالِيًّا".

ولم تَتَّصِلْ عائشةُ لتُحِيطَه علمًا بحُدُوثِ تَغَيُّرٍ فى الخُطَّةِ. لعلَّها اتَّصَلَتْ ولكنْ، لم يبالِ أحدٌ بأن يُخْبِرَهُ بذلك. هُنَالِكَ تذكَّرَ أنه لم يَتَّصِلْ بها منذُ مغادرتِها أَبُوجَا فى اليوم الماضى. فصاحَ قائلاً بصوتٍ جهوريٍّ له وقد ضغطَ كَفَّيْهِ معًا:

- يا لَلْهَوْل!

فوقفَ هناكَ مُتَرَدِّدًا، ثم هزَّ رأسَه مُسْتَغْرِبًا. فجعلتْ سلسلةٌ مِن أفكارٍ مُتَنَوِّعَةٍ تَدُورُ بِخَلَدِهِ؛ الأمرُ الذى جعلَ ذِكْرَ نفيسةَ يَنْطَوِى عن ذِهْنِه تلكَ اللحظةَ. فأدركَ تمامًا أنَّ مَشَاعِرَهُ تُجَاهَ نفيسةَ إنما كانتْ وليدةَ الهَوَسِ. لقد أصبحَ اهتمامُهُ الآنَ مُنْصَرِفًا إلى كيفيَّةِ إنقاذِ نفسِه و تهدئةِ عائشةَ و إنقاذِ أسْرَتِه مِن الكارثةِ الوشيكةِ الحُدُوثِ. لم يَكُنْ مِن قصدِه أن تكتشفَ عائشةُ علاقتَه مع نفيسة على هذا المنوال.

فاستدارَ عمرُ قاصدًا غرفةَ الأولاد. لقد اصبحَ الرجلُ الذى كان يُغَازِلُ نفيسةَ قبلَ السَّاعةِ الماضيةِ بَارِدًا ومُتَرَوِّيًا.

وكان قد وضعَ كلَّ شيءٍ على المِحَكِّ رَغْبَةً فِي إقناع نفيسة بأنه مُصَمِّمٌ على أن يَتَزَوَّجَهَا. فلم يَتَبَصَّرْ فى مَا سَيَعْقُبُ خِيَانَتَهُ هذه وما سَتَتَمَخَّضُ عَنْهُ مُغَامَرَتُهُ. فأدركَ أنَّ الوضعَ حَسَّاسٌ وأنَّ التَّعَامُلَ معه يَتَطَلَّبُ حَذَرًا شديدًا. لقد أصبحَ إرْضاءُ عائشة بكلِّ وسيلةٍ مُمْكِنَةٍ حَتْمًا على عُمَرَ. على الأقلّ، يجبُ عليه إقناعُها بأنَّ الأمورَ على مايرامُ فى هذه الليلة. فدخلَ فى الغرفة، فغَلَّقَ البابَ من وراءِهِ، فَأَوْقَدَ النُّورَ، ثم قَصَدَ السريرَ الذي كانتْ عائشةُ مستلقيةً عليه. فقال:

– يا عائشةُ ! يا عائشةُ!

فلما سمعتْ صوتَه، التفتتْ إليه ثم صرفتْ وجهَها عنه فَهَـْهَسَتْ ثم انبطحتْ على الوسادة. فجعلتْ تنشجُ مِن جديد. فتركَها عُمَرُ تَبْكِي مُدَّةً مِن الزمن دون أن يتفوَّهَ بكلمةٍ. ثم اشْتَدَّتْ حَاجَةُ عمرَ إلى مَزِيدٍ من السجائر، شَأْن مُدْمِنِ التَّدْخِينِ عِنْدَمَا تَشْتَدُّ عَلَيْهِ وَطْأَةُ التَّوَتُّرِ. فنهضَ من السرير، فشغَّلَ المُكَيِّفَ، و أشعلَ عُودًا من السجائر ثم عادَ إلى جانبِها، فجعلَ يُدَخِّنُ مُضْطَرِبًا كرَجُلٍ به جِنَّةٌ.

وبدلاً مِن أن يَشْعُرَ بالذنب ووَخْزِ الضمير، أخذَ على خاطرِه مِن نَشِيجِ عائشةَ المُثِيرِ للشفقة. ولا يُنْكِرُ عمرُ كونَه خائِنًا. ولا يَضَنُّ على عائشةَ بأَسَفِه لذلك. نعم، يَأْسَفُ لأنَّ عائشةَ اكتشفتْ علاقتَه مع نفيسة على هذا المنوال ولكنه لا يَأْسَفُ لأنه كان مُغْرَمًا بها. لقد أيقنَ أنَّ زواجَه مِن نفيسةَ أمرٌ لن يَحُولَ دونَ وقوعه شيءٌ. وإنما يَأْسَفُ على أنَّ عائشةَ اكتشفتْ علاقتَهما بهذه الطريقة. فقال:

- يا عائشةُ، لا أدرى ما ينبغى لى أن أقولَ لكِ الآن، أنا مُتَحَطِّمٌ جِدًّا، ولكنْ، ينبغى لكِ أن تُنْصِفِينِي بشأن هذه القضيَّةِ. سَأَشْرَحُ لَكِ تَفَاصِيلَ ذلك بِشَرْطٍ أَنْ يَكونَ ذلك غَدًا. وأَمَّا فى هذه اللَّيْلَةِ فَمُسْتَحِيلٌ. وأَعِدُكِ أَنَّ المياهَ ستعودُ إلى مَجَارِيهَا الطبيعيَّةِ. أنا آسفٌ بكل معنى الكلمة.

لقد تركَ صوتُه الباردُ الموزونُ الأثَرَ المَرْجُوَّ على عائشةَ، فكفَّتْ عن البكاء ثم نَهضتْ جالسةً فكفكفتْ دمعَها. وتَوَرَّمَتْ عَيْنَاها و احْمَرَّتَا نَتِيجَةَ بُكَاءِهَا. فنظرتْ إلى زوجها حائرةً. فقالتْ بغضبٍ:

- ماذا تعنى يا عمرُ؟ لِمَ يجبُ علىَّ أن أنتظرَ حتى غدٍ؟ لقد أَلْفَيْتُ نفيسةَ في غرفتنا ثم تجيبُ عن ذلك بأن أنتظرَ حتى غَدٍ.

فهزَّ عمرُ رأسَه وهو ينفضُ رمادَ السيكارة على السَّجَّادَةِ فقال:

- أنا لا أُنْكِرُ ذلك.
- لماذا ارتكبتَ هذا فى حَقِّى يا عُمَرُ؟ لماذا؟ لقد وضعتُ ثقتى فيكَ و فى نفيسةَ ثم ماذا فعلتُما؟

فقالَ وقد صرفَ عنها وجهَه:

- أنا أَفْهَمُكِ. إنَّنِي أَطْلُبُ مِنْكِ أن تنتظرى حتى غدٍ. إنَّ الوقتَ مُتَأَخِّرٌ جِدًّا بحيث لا يُعْقَلُ أن نُثِيرَ موضوعًا جَدَلِيًّا الآن. سنطرقُ الموضوعَ غدًا.

فجعلتِ الدموعُ تتدحرجُ إلى أسفل خَدَّىْ عائشة. لقد أيقنتْ أنها لن تحصلَ على شىء من عُمَرَ تلكَ الليلة. فكان لِزَامًا عليها أن تَبْقَى مُنْتَظِرَةً حتى اليوم التالى.

# الفصل التاسع

كان فَطورُ تلك الغدوة كارثةً. وكان التوتُّرُ مُخَيِّمًا على الأجواء. وكان القلقُ يستبدُّ بعمر. فجعل يسرحُ طَرْفَه إلى طَبَقِه شاعرًا بِطَرْفِ زوجته وهي ترمقهُ منتظرةً منه الجوابَ. وأما نفيسةُ فلم تهتمَّ بالخروج للفطور نظرًا إلى أنها كانتْ مُلِمَّةً بما حدثَ البارحةَ. لقد جثمتْ فى خارج باب الغرفة وتابعتْ كلَّ ما جرى بين عمر وعائشة. فلم تتسلَّلْ إلى الطابق الأسفل ثم قصدتْ جناحَ الضيف إلا بعدما سمعتْ عمرَ يُقْنِعُ عائشةَ بأن تخلدَ إلى النوم وَهُوَ عَلَى أُهْبَةِ الخُرُوجِ مِنَ الغُرْفَةِ. ومهما يكن من أمرٍ، فإن نفيسةَ قد باتتْ على علمٍ بأن عمرَ قد أصبحَ مِلكًا خَصَّتْ نفسَها به.

لامفرَّ لهما من الزواج. ولا يَخْفَي عليها أنَّ مِنَ الصَّعب أن تقبلَها عائشةُ ضرَّةً لها. ليس بعد هذا التقارُب الشديد. إنها ليستْ غبيَّةً. وقد أيقنتْ بناءً على ما استرقتْ إليهما مِنَ السَّمعِ أنَّ عمرَ كان يحملُ كلامَه مَحْمِلَ الجِدِّ عندما صرَّح لعائشة بأنه سيتزوجُها. الآن، لا مندوحةَ لها عن التفريق بين عمر وعائشة. ولن تتحمَّلَ

مشاركتَه أو مشاركةَ ثروته مع أحد. لا مع أولادِه ولا مع عائشة. لا تُكِنُّ لأحدٍ منهم خَرْدَلَةً من الشفقة. ما أشدَّ أنانيَّتَها وما أَكْنَدَها!

ثُمَّ الْتَمَعَ بَرْقُ أَمَلٍ عَائِشَةَ عندما انضمَّ إليها عمرُ بعد الفطور فى غرفتها. ولكن، لم يجرؤْ على مواجهتها. كان يستبدُّ به وخزُ الضمير. فخاف أن يُفاتحَها فى الموضوع ولكن، لم يجدْ من ذلك بُدًّا، فقال:

- عائشةُ، لقد استغلقَ عليَّ الكلامُ. لا أدرى من أين أبدأُ.

فقالتْ بجفاء:

- ابدأْ من البداية.

- يا عائشة، تقعُ أحداثٌ بينى وبين نفيسة مُؤخَّرًا.

فقاطعتْه هنا قائلةً:

- لا يَخْفَى عليَّ ذلك.

- لا تُعَقِّدِى عليَّ الأمرَ يا عائشةُ.

فصرفتْ وجهَها عنه. فمَضَى قائلاً:

- يجوزُ لى أن أَتَزَوَّجَ بِعَدَدٍ لا يزيدُ على أربع زوجاتٍ بوصفى مُسْلِمًا، مَا دُمْتُ مَيْسُورَ الحَالِ. ولا أشعرُ بِعَدَمِ القُدْرَةِ عَلَى

القِيَامِ بذلك. ومِنْ هذا المُنْطَلَقِ، أُرِيدُ أَنْ أَحِيطَكِ علمًا بِأَنَّنِي مُزْمِعٌ عَلَى الإِمْسَاكِ بِعِصْمَةِ نَفِيسَةَ.

فعَبَّرَ عن ما فى نفسِه مصادفةً كأنه يُبَشِّرُها بسيارةٍ جديدةٍ اشتراها. فجلستْ عائشةُ حائرةً. لقد كانت تتوَقَّعُ الأَسْوَأَ، وعلى الرغم من ذلك، لما طَرَقَ الخبرُ أذنيها وَجَدَتْهُ مُؤْلِمًا.

- عارٌ عليكَ يا عمر. لقد كنتُ غبيَّةً إذ أَوْلَيْتُكَ ثِقَتِي. أهذا ثمنُ كونى زوجةً مُتفاهِمَةً؟

فأشعلَ عمرُ عُودًا من سجائره بحذرٍ دون أن يجرؤَ على النظر إلى عائشة فقال:

- أيَحرُمُ علىَّ أن أتزوَّجَ عليكِ يا عائشة؟

- لقد خُنْتَنِي يا عمرُ. حسبيَ اللهُ ونعمَ الوكيل.

- ماذا ترمين إليه يا عائشةُ؟ يجوزُ لى — إذا شئتُ - أن أتزوَّجَ بنفيسة عليكِ جوازَ زواجِى بك.

فقالتْ مُسْتَسْلِمَةً لنوبةِ غضبٍ:

- انظرْ يا عمرُ، لا تضحكْ على عَقْلِى. مُرْ نفيسةَ أن ترحلَ عن منزلى بأمتعتها الآن. أَعْنِي الآن.

- لماذا؟

فأجابتْ غاضبةً:

- لا أعتقدُ أنني أدينُ لكَ بشرحٍ. لقد أكرمتُ مثواهَا على خلفيَّةِ أنني وثقتُ بها. ولكنَّني قد غيَّرتُ رأيي الآن. ولم أَعُدْ أرغبُ في رؤيتها في منزلي مرة أخرى.

- لن يُغيِّرَ موقفُكِ هذا شيئًا يا عائشةُ. وفضلاً عن ذلك، بِيَدِي عَقْدُ مِلكيّة هذا المنزل. كما يعودُ إليَّ تقريرُ من يَبْقَى فيه ومن يُغادِرُه.

فحدَّقتْ عائشةُ إلى عمر وقد ألقمَها الحجرَ. فجعلتْ نبضاتُ قلبِها تزدادُ سرعةً. ما أشدَّ ألمَها وما أجدرَ أَلاَّ تتحمَّلَه! فنظرتْ إلى زوجها نظرةَ مَن انتابَه كابوسٌ. فصاحتْ قائلةً:

- أتعني باختصارٍ أنَّ نفيسةَ ستبقى في هذا المنزل. إذا كان هذا موقفَكَ فإني لن أتحمَّلَ ذلك يا عمرُ. إن بقيتْ نفيسةُ غادرتُ أنا بلا تردُّد. هل سمعتَ ما قلتُ؟ أحملُ كلامي محملَ الجِدِّ. إن لم تغادرْ نفيسةُ الآن تنازلتُ لها عن هذا المنزل.

فقال عمرُ بنبرة متهكِّمةٍ:

- أترحلين على أنني أريدُ أن أتزوَّجَ عليكِ؟

- لا أرْحَلُ بِسَبَبِ ذلك، وإنما أُرِيدُ الرَّحِيلَ نظرًا إلى أنَّكَ تتعاملُ مع الأمر بطريقة أَمْتَعِضُ منها. لِمَاذا تريدُ أن تتزوَّجَ بنفيسة؟ لِمَ لا تتزوَّجُ بامرأةٍ أخرى؟

فهزَّ عمرُ كتفَه دونَ مبالاةٍ فقال:

- لا أَهَمِّيَّةَ لِسُؤَالِكِ مَا دُمْتُ قد عَقَدْتُ العَزْمَ عَلَى أَنْ أتخذَها زَوْجَةً جديدةً.

- إذنْ، سأرحلُ عنكَ.

فظنَّ عمرُ أن عائشةَ كانتْ تخدعُه فقال مُحايِدًا:

- أنتِ وشأنكِ، افعلي ما يناسبُ مِزَاجَكِ.

فأَغْضَتْ عائشةُ على القَذَى، فاستدارتْ تريدُ أن تخرجَ من الغرفة. فأمسكَ عمرُ بذراعها. فقال بجفاءٍ:

- لا تكوني غبيَّةً يا عائشةُ.

فانتزعتْ ذراعَها من يديه بقوة فانْطَلَقَتْ جاريةً من الغرفة إلى غرفتها. فلما دخلتْ غرفتَها، انبطحتْ على سريرها عاجزةً عن

البُكاء. لقد جفَّتْ ينابيعُ دمعِها مِن لَوْعَةِ حزنِها. إنها لوعةٌ جرَّعَها إياها عمرُ ونفيسةُ قسرًا فتجرَّعَتْها ولا تكادُ تُسِيغُها.

وإن دلَّ تصرُّفُ عمرَ هذا علي شيءٍ فإنما يدلُّ علي أنَّ سَدًّا مَنِيعًا سيقفُ حائلاً بين عائشةَ وسعادةِ الحياة ما دامتْ مع عمرَ. وبالنسبة له، قد أصبحَ الحُبُّ مَيِّتًا؛ ولذلكَ، يبذلُ كلَّ وُسْعِه نَحْوَ إِعْدَامِ عَائِشَةَ. وكانتْ امرأةً متواضعةً. ولكن، أنْ تَسُومَها فتاةٌ في سِنِّ ابنتِها خسفًا في عُقْرِ دارِها مما يَمَسُّ كبرياءَها بالسُّوء. وهل ثمةَ ضربةٌ أشدُّ وقعًا ومَرارةً مِن ضربةِ الغَدر والخيانةِ الزوجيَّةِ؟

فجلسَ عمرُ في الغرفة مفكِّرًا. وعلي الرغم من أنه يعلمُ أنه لم يكنْ مُنْصِفًا، فإن له القناعةَ بأنه قد أوضحَ لعائشةَ موقفَه بما فيه الكفايةُ. ومِنَ الجيِّد أنه لم يدعْها تسيطرُ علي الوضع. ولكنَّه يعلمُ في سويداء قلبِه أنَّ مِنَ المُسْتَحْسَنِ أن تبتعدَ نفيسةُ عن المنزل حتى حين.

# الفصل العاشر

مضتْ ثلاثةُ أسابيعَ عِجَافٍ دون أن يطرقَ عمرُ موضوعَ زواجِه الوشيكِ الحدوثِ. وكانتْ نفيسةُ قد غادرت المنزلَ. وكان ذلك أبعثَ علي الطمأنينة عند عمرَ. غير أن غيابَها لم يُغيِّر شيئًا؛ لقد أَصْبَحَ عُمَرُ وعَائِشَةُ يتخاطَبَانِ بألفاظٍ أُحاديَّةِ المَقْطَعِ.ثم حاولتْ عائشةُ أن تتكيَّفَ مع الوضع مع مرور الأيام رغمَ كونِها واعيةً للبَوْنِ البَعِيدِ الذى يُقِيمُ سدًّا بينها وبين زوجها.

وأفشلَ أبوها تهديدَها بالرحيل عن عمرَ. وناشدَها بالله وأشارَ عليها أن تبقى فى منزلها الزوجيّ فقال:

- أين ستذهبين بعد أربعة أبناء يا عائشة؟ إننى لا أتوسَّمُ المَنْطِقِيَّةَ فى رحيلك عن عمر الآن. إن إبراهيمَ فى العاشرة من عمره، وزينبَ على قاب قوسين من التَّخَرُّجِ من الجامعة. وسيعودُ صديقُ إلى الدولة في بضعة أسابيع. ولا شكَّ أن حاجتَهم تشتدُّ إليكِ، ولاسيَّما عائشة (الابنة) التى لا تزالُ ترتادُ المدرسةَ الثانويَّةَ. فإذا غادرتِ فمَنْ سَيُغْدِقُهُمْ بالحُبِّ الأموميِّ الذي تَمَسُّ حاجتُهم إليه؟

فقالت عائشةُ بعنادٍ:

- إن في وسعِهم أن يعتنوا بأنفسهم.

- يا عائشةُ، تمالَكِي أعصابَكِ وقَلِّبي هذه الفكرةَ. سأعاودُ الاتِّصالَ صباحَ الغد. أنا على يقينٍ من أنكِ إذا سألتِ أُمَّكِ فإنها ستُخبركِ بنوعِ الألم الذي يَتَوَلَّدُ مِن رحيل المرأة عن زوجها وأبنائِها. إياكِ أن تَدَعِي التاريخَ يُكرِّرُ نفسَه. لا تَرْضَيِنَّ بأن يُصِيبَكِ مثلُ ما أَصَابَهَا. ولا تَرْضَيِنَّ بأن يُصِيبَ أحفادي الفاتنين مثلُ ما أَصَابَكِ.

لم تفهم عائشةُ سببَ تصلُّب أبيها فى موقفه. ما طلبتْ منه إلا أن يأذنَ لها في الانفصال عن عمرَ ولكنه أبى أن يأذنَ لها.

- يا أبتِ، لماذا أبيتَ أن تسمحَ لى بالرحيل؟ لا تَدَعْ مَخَالِبَ الجُنُونِ تَنْشَبُ فِيَّ.

- لن يُصِيبَكِ مرضُ الجنون يا عائشةُ. ابقَىْ هناك وقُومِى على أبنائكِ حتى تَتَزَوَّجَ ابنتاكِ، زينبُ وعائشةُ (الابنة) زواجًا حَافِلاً بِالسَّعَادَةِ. كيف تريدين أن تَأْتَسِيَا بكِ؟ أَتُرِيدِينَ أن

تتخلَّيا عن منزلهما الزوجيِّ بسبب مناوشةٍ تافهةٍ تحصلُ بينهما وبين زوجيهما؟

لم تقدر عائشةُ على الإجابة عن سؤال (بابا) هذا. فاعتصمتْ بالبُكاء.

- يا عائشةُ، عِدِينِي أنَّكِ لا ترحلين عن عمر.

فوعدتْه عائشةُ أن تبقى فى عصمة عمر استرضاءً له.

وجلسَ (بابا) بجانب الهاتف إثرَ هذا الحوار مُدَّةً طويلةً. لقد أيقنَ أن تشجيعَها على البقاء لن يكون هَيِّنًا. وامتعضَ من الطريقة التى عاملَ عمرُ عائشةَ بها.ثم تذكَّرَ أنه هو الذي أجبرَ عائشةَ على قَبول عرض عمر للزواج قبل العشرين سنةً ماضيةً.

وساعدَ (بابا) عمرَ على نيل الترقية من مُجَرَّدِ مُحَاضِرٍ إلى أحد أربابِ المناصب العليا فى الإدارة المدنيَّة تطييبًا لخاطرِ عائشة. واستغلَّ كلَّ ما يتمتع به من علاقةٍ لتحقيق ذلك. وأخيرًا، انظرْ إلى ما آل إليه الأمرُ. فتناول الهاتفَ؛ بغيةَ أن يتَّصلَ بعُمرَ، فجعلَ يتردَّدُ فى ذلك. ثم جعل يتساءلُ عن ما سيقوله لعمر فيما لو تناولَ الهاتفَ. وأخيرًا، وضعَ هاتفَه جانبًا وقد سَيْطَرَ عليه اليأسُ.

ثم قال رافعًا يديه إلى السماء:

- اللهم لا تدعْ هذا يحدثُ لابنتى الوحيدة.

لقد أيقنَ (بابا) أنه عاجزٌ عن القيام بشىءٍ من أجل وقف عمر نظرًا إلى أنه كان قد عقدَ عزمَه على عَدَمِ التَّدَخُّلِ فى القَضِيَّةِ. فأصبحَ الدعاءُ ملجأَه الأخيرَ.

فلما عادَ الأولادُ إلى أَبُوجَا من مدينة جُوسْ بعد مَا قَضَوا أُسْبُوعًا وَاحِدًا هناك، أثارتْ هذه التطوُّراتُ فى المنزل صدمتَهم. فواجهتْ زينبُ أباها تسألُه عن سبب أفعاله، فهدَّدها أبوها تَهَرُّبًا مِن سُؤَالِهَا. وكذلك هدَّدَهم جميعًا بالتخلِّى عن الواجباتِ الماليَّةِ التى لَهُمْ عَلَيْهِ. فسخطتْ عائشةُ على زينبَ نتيجةً لمواجهتها أباها. وحَذَّرَتْها من تكرار ذلك.

وبعد أسبوعٍ من هذه الحادثة، ذهب عمرُ فى صحبة اثنين من أصدقائه إلى عائلة نفيسة يخطبونَها إليهم. فوافقوا على إنكاحه ابنتَهم دونَ العبرة بأنه فى سِنِّ أبيها وأنه قريب لها من بعيد. فلما طرق هذا الخبرُ آذانَ سائر أفراد الأسرة أُصِيبَ معظمُهم بالصدمة. وأما أمُّ نفيسة فقد حاولتْ أن تُقنِعَهم بما حفزها إلى قَبول هذا

العرض بقلبٍ رحيبٍ. لطالما حلمتْ بأنَّ نفيسةَ سيتزوَّجُها رجلٌ ثريٌّ يكفيهم مؤونةَ العيش.

فابتعدتْ نفيسةُ عن منزل عائشة بعد الحادثة الأخيرة غير أنها تُمضى أوقاتَ فراغِها مع عمر. فأصبح عمرُ أكثرَ ارتياحًا كلما كانتْ تفيسةُ فى صحبته فى الناس بعد ذُيوعِ خبر العلاقة التى بينهما. ولم يَعُد يشعرُ بالخجل أو الذنب. ولم يكترثْ لواقعِ أنَّ نفيسةَ وزينبَ تِرْبَانِ.

فلما اقتربَ موعدُ الزفاف، بذل عمرُ كلَّ غالٍ ونفيسٍ إرضاءً لنفيسةَ وأبويها. ثم طفق يعود إلى المنزل مُتأخِّرًا كلَّ ليلة. وأحيانًا يبيتُ فى خارج المنزل تَهَرُّبًا من مسؤوليَّاته العائليَّة. وحاولَ إجبارَ عائشة على المساهمة فى شؤون الزواج، ولكنَّها رفضتْ أن تضربَ فيها بسهمٍ ونصيبٍ مُحتَجَّةً بأن ذلك غيرُ منطقيٍّ. فظلَّ عمرُ غضبانَ عليها نتيجةً لعدم اكتراثِها لأمر زواجه. ثم قرَّر أَنْ يُجَوِّعَهَا مِنْ خِلاَلِ حِرْمَانِهَا جَمِيعَ وَسَائِلِ الدَّعْمِ المَالِيِّ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ ذلكَ سَيَكُونُ أَنْجَعَ السُّبُلِ للانْتِقَامِ مِنْهَا.

ولكنَّ عائشةَ لم تبالِ بذلك نظرًا إلى أنَّ لها فى المصرف مُدَخَّراتٍ ماليَّةً كافيةً لها مدةً طويلةً. وَلاَ يُقْلِقُهَا إلاَّ ذلك التَّداعِى الذى آلتْ إليه عائلتُها التى كانت من قبل زاخرةً بالسعادة. فما أبلجتْ شمسُ الحقيقة أمامَ عينى عائشةَ حتى يوم الترتيب التقليديِّ لجهاز العروس. وحدَثَتْ هذه الصدمةُ عندما رأتْ سيَّارةً مشحونةً بأثاثٍ تنساقُ إلى داخل منزلها. فلما قرعتِ البوَّابةَ النساءُ اللاتى يُرَافِقْنَ الأَثَاثَ بُغْيَةَ تَرْتِيبِهِ بَعْدَ تَفْرِيغِهِ مِنَ السَّيَّارَةِ، فتحتْها عائشةُ فوقفتْ تُحدِّقُ إليهنَّ غيرَ مُصدِّقةٍ لما تراه عيناها. أ هذا حقٌّ؟ وفجأةً، شعرتْ بأنها مأخوذةٌ على حين غرَّةٍ. فاعترضتْ سبيلَهنَّ مُحتَجَّةً بأن المنزلَ منزلُها وأنه لا يَحِقُّ لأحدٍ أن يُباغِتَها فى منزلها. فدفعتْها عمَّةُ نفيسةَ جانبًا دون انتظار إذنها، فطلبتْ من سائر النساء أن يدخلنَ.

إنهنَّ غَنيَّاتٌ عن الطَّلَبِ مِن عائشةَ أن تطوفَ بهنَّ على المنزل. لقد قام عمرُ بذلك قبلَ خمسة الأيام الماضيةِ. فأُصِيبَتْ عائشةُ بصدمةٍ، فوقفتْ حائرةً بائرةً لا قِبلةَ لها و لا دِبرةَ. ثم خطرَ ببالها أن تطردهنَّ من المنزل مستعينةً بالبوَّابين. وأخيرًا، لجأتْ إلى

عدم التَّصْعِيدِ. ماذا سيكونُ رأيُ (بابا) فيها؟ فعادتْ إلى غرفتها، فجلستْ على حافة سريرِها تستعيدُ ذِكْرَيَاتِ العشرين عامًا منصرمًا.

ثم قطعَ حبلَ أفكارِها رنينُ الهاتفِ. فنظرتْ إلى ساعة رسغِها فإذا هى قد أمضتْ أكثرَ من ثلاث ساعاتٍ جالسةً هناك. فتناولتِ الهاتفَ إثرَ رنينِه السابعِ فإذا صوتُ عمرَ ينطلقُ وهو يقولُ غاضبًا:

- ماذا دهاكِ يا عائشةُ؟ من تُخَالِينَ نفسَكِ؟

ما ردَّتْ عليه عائشةُ ولكنه كان على يقين من أنَّ بِيَدِهَا السماعةَ. فأضافَ قائلاً:

- لقد عِيلَ صبرِى يا عائشةُ. هل تفهمين؟ لماذا أسأتِ معاملةَ ضيوفى اليوم؟

- هل وَشَيْنَ بى إليكَ؟ لابأسَ، ينبغى لَكَ أن تعاقبَنى بما أنَّكَ أنتَ الآمرُ النَّاهِى.

فقال صائحًا:

- صهْ يا عائشةُ. قلتُ صهْ. لا تكونى غبيَّةً ! أنا فى طريقى إلى المنزل للقاءكِ الآن.

وما إن صدرتْ منه الكلمةُ الأخيرةُ حتى وضعَ السمَّاعةَ.

فجلستْ، تحملُ سماعةَ الهاتفِ بيدها وقد استغلقَ الكلامُ عليها. فحينئذ بدأتْ تدركُ كُنْهَ ما قاله عمرُ. فشعرتْ بالإهانة؛ الأمرُ الذى جعلَ فرائصَها ترتعدُ ثم أخذتْ تنشجُ.

ولو أنها تعرَّضَتْ لِلَّطْمِ والضربِ مِن قبل عمرَ لكانَ ذلك أخفَّ ألمًا وتأثيرًا مما تفوَّهَ به.

فقرعتْ زينبُ البابَ وقد رجعتْ من المكتبة، فدخلتْ غرفةَ أمِّها. فوجدتْ عائشةَ ناشجةً. فعلمتْ دونَ إرهاقِ مُخِّها أنَّ لِمَا يُبْكِى أُمَّها علاقةً بأولئك النساء المُزَيِّنَاتِ جناحَ الضيفِ بكل اهتمامٍ فى الطابق الأسفل. وهو المكانُ الذى ستتبوَّؤُه العروسُ. وكانتْ زينبُ قد قرأتْ عليهنَّ السلامَ عِنْدَما مَرَّتْ عَلَيْهِنَّ ولكنهنَّ لم يرددنَ عليها السلامَ. ثم حاولتْ أن تواسىَ أُمَّها ولكن، سرعان ما انضمَّتْ إليها. فجلستِ الاثنتان تنشجان.

فلما دَمَرَ عليهما عمرُ، وجدهما غارقتين فى البكاء. فلم يردعْه الوضعُ الذى وجدهما فيه من التعبير عن شعوره. فقال وهو واقفٌ بين يدى عائشة :

- لقد طفحَ الكيلُ يا عائشةُ. لقد بذلتُ ما فى وسعى من جهدٍ فى محاولةٍ لجعلكِ تفهمين وتعقلين. ولكن، يبدو أنَّ عقلَكِ قد طار. دَعِينِي أقولُ لكِ شيئًا.

فقال مُشِيرًا إليها وقد ذَكَتْ نارُ غضبِه:

- إنى سأتزوجُ بنفيسة، شِئْتِ أم أبيتِ. أنتِ الآن بين أمرين: إما أن تقبليها ضرَّةً وإما أن ترفضيها. وإن رفضتِها فَبَابُ منزلِ أبيكِ مفتوحٌ على مصراعيه. ولا أشكُّ فى أن (بابا) سيُرحِّبُ بكِ. وَلاَ يَمْنَعُكِ أَحَدٌ مِنَ المُغَادَرَةِ بعدَ أخذكِ أُهْبَتَكِ. إنى لن أتحمَّلَ جُنونَكِ تحت سقفى.

ثم هَسْهَسَ غضبًا، فولَّى مُدبِرًا، فإذا زينبُ تشنُّ عليه هجمةً شَرِسَةً وقد ازمهرَّتْ متفاجأةً بِجَيَشَانِه العاطفيِّ فقالتْ:

- يا أبتِ، أَتَسُومُ أُمَّنَا ذُلاً إِكْرَامًا لِخَاطِرِ امرأةٍ بغىٍّ حقيرةٍ؟

فما كان جوابُه إلا أن أوسعَها لطمةً مُعْمِيَةً. فقال:

- بنتٌ غبيَّةٌ! إياكِ وهذا الموضوع. إنَّ المرأةَ التى تَصِفُهَا بأنها بَغِيًّا ستُصبحُ رَابَّتَكِ. من اليوم فصاعدًا، إذا تفوَّهْتِ، أُكرِّرُ،

إذا تفوَّهْتِ بكلمةٍ مُهينَةٍ فى حقها فإنِّي، واللهِ، سَأَطْرُدُكِ مِن هذا المنزل.

لقد كانتْ زينبُ مصدومةً بحيث إن البكاء لم يطاوعْها. إنَّ أباها لم يلطمْها قطُّ. فوقع أبوها منها تلك اللحظة موقعَ الشيطان من الناسك. فحسمتْ من فورها أن لا تحترمَ أباها أبدًا. فرمقتْه بنظرةٍ تتناجَى فيها الهمومُ ثم ابتسمتْ ابتسامةً تشوبُها الكآبةُ. فما لَبِثَتْ أن خرجتْ من الغرفة.

وأَما عائشةُ فإنها لم تُصَدِّقْ أنَّ الرجلَ الذى كان يقفُ بين يديها هو ذلك عمرُ الذى كان يُغدِقُ أهلَه بالحبِّ، والذى كانتْ قد أمضتْ معه نصفَ حياتها. إنه يبدو كَأَنَّ بِهِ جِنَّةً الآن. وقضتِ العجبَ من أنَّ عمرَ هذا الذى لم يضربْ أحداً من أبناءه قطُّ، صفعَ ابنتَه المفضَّلةَ على مرئى ومسمعٍ منها. فأيقنتْ أن علاقتَها مع عمر قد انتهتْ وأن الأمورَ لن تعودَ إلى سابقِ عهدِها. كما علمتْ بالبديهة أنها ستكونُ هدفَه التالى.

وكانتْ قد ضحَّتْ بحياتها ومهنتها وكلِّ ما تملكه من أجل عمر. وهذا هو الجزاءُ الذى نالتْه. لقد كان تصريحُ عمر واضحًا. إنه لم يَعُد يرغبُ فيها.

- يا عمرُ، لقد أمضينا عشرين سنةً معًا، أى عقدين من الزمن وأنا أعتقد أنه لا يسودُ فى أجوائنا إلا المحبةُ والصبرُ. ومنحتُكَ كلَّ شىءٍ يا عمرُ. وطِبْتُ عن مهنتى وحياتى نفسًا؛ بغيةَ إرضاءِكَ. ولم يكنْ قصدى سِوى أن أكونَ زوجةً صالحةً. ألا تعتقدُ أننى أستحقُّ منكَ المعاملةَ الأفضلَ؟

فجلس عمرُ واجمًا وقد ارتسمَ فى وجهه منظرٌ يشوبُه الغضبُ، فبقى مُرتَجًا عليه.فقالتْ عائشةُ.

- يا عمرُ، أجبْ عن السؤال التالى: أيَّ خطأٍ ارتكبتُ لأستحقَّ معاملتَكَ هذه؟ أَجِبْ يا عمر!

فهسهس عمرُ ثم خرج من الغرفة صافقًا البابَ وراءه بقوة. فأيقنتْ عائشةُ أن هذا بدايةُ نهايةِ علاقتِهما. لقد كانت الحياةُ قاسيةً ولكن، إلى من ستلجأ؟ أ إلى أبيها العجوز الصالح؟ لاشكَّ أنه

سيُرحِّبُ بها وبأبناءها. إنه هو أوْثَقُ العُرَى البَشَرِيَّةِ التى إذا اسْتَمْسَكَتْ عائشةُ بِهَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهَا وَلَمْ تَخَفْ انْقِطَاعَهَا.

فلما دخلتْ زينبُ غرفةَ والدتها ساعتين بعد الحادثة مُتورِّمَةَ الوجهِ، وجدتْ أمَّها مُتَلَبِّسَةً بأداءِ صلاةِ العصر. وبعد الصلاة، نظرتْ إلى والدتها الواجمةِ فقالتْ:

- يا أمى، يجب عليكِ أن ترحلى عن هذا المنزل. تَوَجَّهِى إلى مكان ما وإلا أرداكِ أبونا قتيلاً قبل أن تنتبهى.

فَتنفَّسَتْ عائشةُ الصعداءَ ثم نهضتْ من سجَّادتها فجلستْ على السرير فقالتْ:

- لقد قلَّبتُ الفكرةَ أيضًا يا زينبُ. لا أعتقدُ أن فى وسعى أن أعيشَ تحت سقفٍ واحدٍ مع أبيكِ بعد الآن. لقد طفحَ الكيلُ.

لماذا تتشبَّثُ عائشةُ بهذا الرَّجُلِ الذى لم يَعُد يرغبُ فيها؟ و الذى قد ألحقَ الدمارَ بكل ما فيه سعادتُها وبكل ما هو عزيزٌ عندها؟

ثم هزَّتْ رأسَها بهدوءٍ فقالت:

- يا زينب، سأغادرُ إلى جُوسْ غدًا. أعلم أن أبى سيواسينى. ابقَىْ أنتِ لكي تعتنى بأُخْتِكِ الصَّغِيرَةِ. سأذهبُ مع إبراهيم.
- واللهِ يا أمى، لن أبقى هنا. وإن بقيتُ فإنَّ السماوات سيتفطَّرنَ من فَوْقِهِنَّ. لايخفى عليكِ أَنَّنِي لَنْ أَتَحَمَّلَ العَيْشَ فِي سقفٍ واحدٍ مع نفيسة. وسيظلُّ الأمرُ كذلك حتى آخر رمقٍ مِن حياتى.
- يا زينبُ، مهما يكنْ من أمرٍ، فلا تُجَرِّعِى والدَكِ غُصَصَ الغيظِ.

فجعلتْ عائشةُ ترمقُ زينبَ بعينيها المُحْمَرَّتَيْن المُتَوَرِّمَتَيْن. وحسبُ هذه النَّظرةِ أن تَحْمِلَ زينبَ على امتثال أمر والدتِها.

وما إن خرجتْ زينبُ من الغرفةِ حتى دخلتْ فيها جميلةُ، زوجةُ الدكتور بَلُّو. وكانتْ تَشُدُّ أَزْرَ عائشةَ منذ بدايةِ هذه الأزمةِ. وكانتْ نصيحتُها الوحيدةُ إلى عائشة أن تعتصمَ بالصبر. كما كانتْ مُتمرِّسَةً بالنوائبِ والخُصُوماتِ الزوجيَّةِ. وكان زوجُها قد تزوَّجَ عليها

امرأتين. ومِن واقعِ التجربة، تعلَّمتْ أنه ليس كلُّ ما يلمعُ ذهبًا وأن الزوجةَ الأولى تُمثِّلُ دورَ مَلِكَةِ المنزلِ طالما أنَّها تعتصمُ بالصبر. فلما دخلتْ على عائشةَ، أُصِيبَتْ بصدمةٍ عندما أخبرتْها قرارَها أن ترحلَ عن منزل عمر. وكانتْ جميلةُ وجميعُ صديقاتِهما مصدوماتٍ بخبر زواجِ عمر. وكُنَّ قبل ذلك يَنْظُرْنَ إلى عائشة على أنها وَثَنٌ يُعْبَدُ وأنَّ عمرَ كان بها حَفِيًّا وأنَّ مِن المستحيل أن تَشُوكَها منه شَوْكَةٌ. فلم يخطرْ بِبَالِ أحدٍ أنَّ عمرَ قادرٌ على أن يتزوَّجَ امرأةً أخرى على عائشة. ليس بعد أن عاشَا عَقْدَيْنِ من حياتهما الزوجيَّة المُتَمَيِّزَةِ بسِلميَّتها. ولكنَّ بيتَ القصيدِ مِن زيارتها لعائشة أن تُوَاسِيَهَا.

- لا يا عائشةُ، لماذا تريدين أن تُلْحِقِي أذى جسيمًا بنفسك؟ إنَّ من الواجبِ أن تَكُونِي قد توقَّعْتِ مثلَ هذا القرار مِن عمرَ منذ زمنٍ طويلٍ. لا يخفى عليكِ كيف يَتصرَّفُ أزواجُنا. إنهم يستمتعون بتعدُّدِ أزواجهم ويَرْغَبُونَ فِي إشباعِ كبرياءِهم إن أمكنَ ذلك.

- ولكن، يا جميلةُ، ألا تَرَيْنَ كيف يتعاملُ عمرُ مع الأمورِ فى الآونة الأخيرةِ؟ لقد تَغيَّر بشكلٍ جذريٍّ بسبب هذه البنت

التى يقال لها نفيسة. لِمَ نفيسةُ بحقِّ السماء؟ لقد عاملتُها كما كنتُ أعاملُ ابنتى.

وكانتْ عائشةُ على علمٍ بأنها غيرُ قادرةٍ على الإجابة عن هذا السؤال.

- عائشةُ، إنَّ الرجلَ إذا عقدَ عزمَه على الزواج فإنَّ رَدْعَهُ عن ذلك مستحيلٌ؛ لأنه دائمًا سيُحاولُ إقناعَكِ بأنَّ مِن حقِّه أن يفعلَ ما يحلو له. ولا أزالُ أناشدُكِ بالله أن تعتصمى بالصبر وأن تتعامَىْ عن أفعالِه. تَجَاهَلِيه إن أمكنَكِ ذلك. وأَمْهِلِيهِمَا ستةَ أشهرٍ فإنه سيعودُ إليكِ لتُطعِميه بيدِك.

ثم قلَّبتْ عائشةُ كلامَ جميلةَ فقالتْ:

- يا جميلةُ، لولا أنَّ عمرَ قد تغيَّرَ تغيُّرًا جذريًّا لَوَضَعْتُ نَصِيحَتَكِ هذه مَوْضِعَ التَّنْفِيذِ ولكنه قد تغيَّرَ بصورةٍ كاملةٍ. إنه باتَ يعودُ إلى المنزل بالليل مُتأخِّرًا ويمتنعُ من أكلِ طعامِ البيت. وفضلاً عن ذلك، يُمضِى أيَّامًا فى خارج البيت دونَ أن أعلمَ مُتقلَّبَه ومَثْوَاه.

وأضافتْ قائلةً وقد أَصْبَحَتْ تُواجِهُ جميلةَ:

- يا جميلةُ، أتعلمين الأمرَ الأشدَّ إزعاجًا؟ تصرُّفُه تجاهَ الأولاد.

فقاطعتْها جميلةُ قائلةً :

- تجاهليه يا عائشةُ، إنه سيأتى إليكِ يومًا مُعتَذِرًا إليكِ وإلى أولادِكِ مما يفعله الآن. وكما سبقَ أن قُلْتُ، ركِّزِى على أعمالِكِ ولا تُلْقِى إليه بالاً فإن كلَّ عملِ سَوْءٍ يُصبحُ شيئًا مِن الماضِى يومًا مَّا.

وبعدَ مُضِيِّ زمنٍ طويلٍ على انصراف جميلة، جلستْ عائشةُ فى مكانها مُتروِّيَةً فى حِوارِهما. وكلما حاولتْ إقناعَ نفسِها بأنَّ نصيحةَ جميلةَ قابلةٌ للتطبيق ازدادتْ تَشاؤُمًا. وبالتالى،استسلمتْ لقرارِهَا الأوَّل.

وفى مساءِ ذلك اليوم، اتَّصلتْ عائشةُ بـ (بابا) عبر الهاتف تُخبِرُه عن ورطتِها وقرارِها بصورة مُوجَزَةٍ. ولكنَّ جهدَه لإقناعِها بالبقاء فى بيتها الزوجيِّ باءَ بالفشل. فساعدتْها زينبُ على ترتيب غرفتها بهدوء. ثم أخذتْ معها عددًا لا يُستَهانُ به من ثيابها. فرتَّبتْها فى خمسةِ صناديقَ شَمْشُونِيَّةٍ.كما أخذتْ معها جميعَ مُجَوْهَرَاتِها. فلما انتهتْ من توضيب أغراضِها رمقتِ الغرفةَ ببصرها. فجلستْ على

سريرها مصدومةً ومستغربةً لما حلَّ بها. فبكتْ بشكلٍ لم يسبق له مثيلٌ.

وفى السادسة صباحَ اليومِ التالى، قرعتْ عائشةُ بَابَ عمرَ. فأجابَ مُتكرِّهًا:

- نعمْ، تَفضَّلِى.

فدفعتْ عائشةُ البابَ برفقٍ ثم دخلتْ. فوجدتْ نفسَها فى حَيْرَةٍ كاملةٍ، فما أَمَرَّتْ وما أَحْلَتْ. بل جعلتْ تُحدِّقُ إلى عمرَ مُشمَئِزَّةً منه. فنهضَ عمرُ جالسًا بسرعة فقال:

- أين تذهبين فى السادسة صباحَ يومِ السبت حَسَنَةَ الهِنْدَامِ؟

وأضافَ مازحًا:

- أم تَأْخُذِينَ أُهْبَتَكِ اسْتِعْدَادًا لاسْتِقْبَالِ ضَرَّتِكِ؟

أما عائشةُ فإنها لم يَرُقْهَا المزاحُ؛ لأنها فى حالةٍ مزاجيَّةٍ سيِّئةٍ ذلك الصباح. وكانتْ على علمٍ بأنَّ قرارَهَا سيصدمُ عمرَ ولكنَّها غيرُ مكترثةٍ علمًا منها أن المياهَ لن تعودَ إلى مجاريها الطبيعيَّةِ. كما كانتْ على علمٍ بأن أهلَ نفيسةَ سيُحاولون التحرُّشَ بها إذا زَفُّوا العروسَ مساءَ ذلك اليوم. فكان أخفُّ الضررين عندها الرحيلَ عن البيت

قبل وصولهم علمًا أنَّ ما حدثَ لها فى اليوم الماضى إهانةٌ مكتملةُ الأركانِ، لن تنساها مدى حياتها. فأجابتْ دون أن تصرفَ عينيها عنه:

- جُوسْ.

- هل أنتِ مُتأكِّدَةٌ من أنكِ على ما يرام يا عائشة؟

فسألتْه وقد استشاطتْ غضبًا:

- ماذا ترمى إليه يا عمرُ؟ أترى أننى مجنونةٌ؟

- نعم، أرى شيئًا من قَبِيل ذلك. وبالمناسبة، لِمَ تُسافرين إلى جُوسْ؟

فردَّتْ عليه الصَّاعَ صاعًا دون الشعور بوَخْزِ الضَّميرِ فقالتْ:

- لأَتروَّى فى أمر حياتى. وبعبارةٍ أخرى، لأستأنفَ الحياةَ من جديدٍ.

فقال مُحَايِدًا:

- أنتِ وشأنك. افعلى ما ترينَهُ مناسبًا. أعلمُ أننى قد حاولتُ جاهدًا أن أجعلَ دوافعى وراءَ زواجى بنفيسة فى مُتنَاوَلِ فَهْمِكِ، ولكنكِ أبيتِ إلا أن تفعلى ما تُسَوِّلُه لكِ نفسُكِ.

إنى أَطْلُبُ منكِ أن تكونى مخلصةً وأن تُخبِرِي كلَّ من جاءكِ مُسْتَفْسِرًا عَنْ سَبَبِ رَحِيلِكِ أننى لم أُخْرِجْكِ مِن منزلى. وإذا تروَّيتِ فى أمرِ حياتِك كما قلتِ، فأبلغينى قرارَكِ.

ثم تناول عمرُ منشفتَه فقصدَ إلى الحمَّامِ. فاعترضتْ عائشةُ سبيلَه. فأخذتْ تَجُرُّ قميصَه وتُغَضِّنُه؛ الأمر الذى لم تجرؤْ عليه عائشةُ طَوَالَ العشرين عامًا مِن زواجهما. لقد أخذتْ عمرَ على حين غِرَّةٍ. ولكنَّه ابتسمَ وهزَّ رأسَه. لقد بلغتْ منه الصدمةُ بحيث إنه فقدَ القدرةَ على الكلام.

- هل أنتَ بحاجةٍ إلى معرفة قرارى حقًّا؟

فأومأ عمرُ برأسه موافقًا. فقالتْ :

- إذن، أريدُ الطلاقَ.

- هل أنتِ متأكِّدةٌ مِن أن ذلك مُبتَغاكِ؟ أ تُريدين الطلاقَ حقًّا؟ خَلِّي سبيلى قبلَ أن أُطَلِّقَكِ.

- لا، يجب أن تتلفَّظَ به أولاً.

- لا بأسَ، خَلِّى سبيلى يا عائشةُ.

فلما امتنعتْ عائشةُ من إخْلاَءِ سَبِيلِهِ، دفعَها عمرُ جانبًا بغضبٍ، ثم دخل الحمَّامَ صافقًا البابَ مِن وراءِه دونَ أن يلتفتَ إلى الوراء. فامتعضتْ عائشةُ من ردِّ فعلِ عمرَ. وكانتْ تتوقَّعُ منه أن يغمرها بكلماتٍ رُومَنْسِيَّةٍ، وأن يُناشدَها بالله أن تُعِيدَ النظرَ فى موقِفها ويُخبرَها بأنه سيتدارك تلك الأخطاءَ التى ارتكبَها فى حقِّها. ولكنه لم يفعل شيئًا من قبيل ذلك. فشعرتْ عائشةُ بكراهيةٍ شديدةٍ تجاهَ زوجها أولَ مرةٍ منذ اندلاع هذه الأزمة. وأُصِيبَتْ بالضعف والدُّوَار ثم غَيَّقَتِ الدموعُ بصرَها. فوقفتْ لا قِبلةَ لها ولادِبرةَ. وأخيرًا خرجتْ مِن غرفة عمر.

فبات عمرُ على يقينٍ من أنَّ غَيْبَةَ عائشةَ ستُوحِشُه. وارتمضَ لها عندما سمعَ وقعَ قدميها وهى تخرجُ من الغرفة. فأشفقَ عليها بسبب إقحامِها فى وضعها الراهنِ. ولا يَخْفَى عليه ما يُثيرُ مَخاوِفَها. وفى مُقدِّمتِها أنَّ امرأةً أخرى ستُشارِكُها فى زوجِها.

وكان يعلمُ أنهما سيتصالحانِ. ولكنَّهما بحاجةٍ إلى الانفصالِ فى الوقت الراهنِ، وقرارُ عائشةَ أن تعتزلَه أفضلُ لهما. و بعد ساعةٍ،

شَدَّتْ عائشةُ الرِّحَالَ إلى مدينة جُوسْ، إلى مَن تشعرُ بأنَّه وحدَه القادرُ على مُواساتِها.

# الفصل الحادى عشر

انعقد الزَّواجُ. وكان حسبَ رأى الناس أغلَى وأبهرَ زواجٍ ذلك العام. وتَداولتْه ألسنةُ الناس شهورًا بعده. وامتنع معظمُ أصدقاءِ عمر من شهوده. لقد بلغتْ منهم الصدمةُ بحيث يَتعذَّرُ عليهم قَبُولُ ما فعلَه عمرُ.

وأما الذين شهدوا الحفلةَ، فقد رافقتْ معظمَهم إليها أزواجُهم الثانيةُ أو أخدانُهم أو صديقاتُهم. وشَارَكَ عمرُ فى كافةِ أَحْداثِ الزواج بغضِّ النظر عن كِبَرِ سِنِّه استرضاءً لنفيسة. فشاركَ فى الحفلةِ الليليَّةِ والوليمةِ وحفلةِ العَشاء، كما أجبرتْه نفيسةُ على عقد حفلة الكُوكْتِيل. ونثرَ الاوراقَ الماليَّةَ على الفِرَقِ المُوسيقيَّةِ بدون حَذَرٍ. وكانتْ نفيسةُ مسرورةً، وكذلك أبواها. وأَبَا أقرباءُ عمرَ الصُّكُتِيُّونَ أن يشهدوا الحفلة. لقد بلغتْ منهم الطريقةُ التى عاملَ عمرُ عائشةَ بها كلَّ مبلغٍ. وكانوا يَعْتَزُّونَ بعائشة؛ لأنَّها زوجةٌ صَالِحَةٌ.

و بدأ عمرُ إجازتَه السنويَّةَ بعد مرور أربعة أيام على الحفلة. فقرَّرَ أن يقومَ برحلةٍ سِياحيَّةٍ استمتاعًا بشهرِ عسلِه. فرافقتْه نفيسةُ إلى خمس دُوَلٍ أُورُوبِيَّةٍ. فلما رجعا من سفرهما بعد تسعةٍ وعشرين

يومًا، بدا عليهما نضرةُ النعيم. وبدا كلٌّ منهما أقلَّ من عمره الحقيقيِّ.

فأبلغتْ نفيسةُ عمرَ تلك الليلةَ قرارهَا بشأن خُدَّامِ المنزل. فوافقَها على ذلك علمًا منه أنهم لن يتعاونوا معها لأنَّ ما حدثَ كان على مسمعٍ ومرئى منهم جميعًا.

وكانوا يدينون لعائشةَ بالولاء. وظلُّوا كذلك حتى يوم رحيلها. وما إن اتَّصلتْ نفيسةُ بوالدتِها عبرَ الهاتف حتى رتَّبتْ لها كلَّ شيءٍ. ستَصِلُ مجموعةٌ جديدةٌ من خَدَمَةِ المنزل فى اليوم التالى.

ثم عاد عمرُ إلى العمل بعد مرور خمسة أيامٍ على انقضاء شهرِ عسلِه. فَدَمَرَتْ زينبُ على الغرفة نهارَ ذلك اليوم.فجفلتْ نفيسةُ وهى على أُهْبَةِ النزول إلى الطابق الأسفل. فاتَّجَهَتْ زينبُ صوبَها مُتَحَلِّيَةً بجسارةٍ. فقالتْ نفيسةُ:

- هذه غرفةٌ خاصةٌ. ماذا جاء بكِ هنا؟

- إنها دارُ أبى ولا يَحِقُّ لكِ أن تطرحى علىَّ ذلك السؤالَ.

فقالتْ نفيسةُ ضاحكةً:

- إنها دارُ أبيكِ ودارُ زوجى أيضًا.

فقالتْ زينبُ:

- يا نفيسةُ.

- أَسْتَمِيحُكِ عذرًا، ناديني: "السيدة"! إنني الآن فى عصمةِ عمرَ. لا فرقَ بيني وبين والدتِكِ. حَبَّذَا لو أَدركتِ ذلكَ بسرعةٍ و استسلمتِ للأمرِ الواقعِ. مِنَ اليوم فصاعدًا نَادِيني: "السيدة نفيسة".

فبَرْطَمَتْ زينبُ غضبًا. لقد جرحَها كلامُ نفيسة جرحًا عميقًا فقالتْ :

- يا نفيسةُ، إنني أُشفِقُ عليكِ. إنَّ اغترارَ أبى بصِبَاكِ لايعنى بالضرورة أنَّكِ ستَحْظَيْنَ بالسعادة وطُولِ البَقَاءِ فى هذا المنزل. ألا تتمتعين بالضمير الحيِّ؟ ألا تعرفين معنى الشرف؟ لقد آوتْكِ أمِّى إلى ظلِّ كرمِها وأغدقتْ عليكِ عنايتَها كما تُغدِقُها على أبناءِها. وأَعطتْكِ من كلِّ ما سألتِها.ثم تجرئين على نسفِ منزلها و إِقَامَةِ سَدٍّ بينها وبين سعادتِها. هل تُدركين أنَّكِ لا تسرقين منها زوجَها فحسب ولكن تُحاولين

جلاءَنا نحن أبناءها من المنزل الذى بأيدينا عقدُ مِلْكِيَّتِه أيضًا؟

فقالتْ نفيسةُ:

- ماذا ترمين إليه بقولكِ إنَّ عقدَ مِلكيَّة هذا المنزل بأيديكم؟

فمضتْ زينبُ قائلةً:

- لحظةً يا نفيسةُ، إنَّنِي لم أَنْتَهِ بَعْدُ. لَسْتُ هنا لأجلِ التَّوَسُّلِ إِلَيْكِ نِيَابَةً عَنْ أُمِّى. كلاَّ! لقد ثبتَ الفراقُ بينها و بين أبى على حدٍّ علمِنا نحن أبناءها. إنما جئتُ لأُخْبِرَكِ كم أنا مُشفِقَةٌ عليكِ. سَتُبْلِجُ شَمْسُ الحَقِيقَةِ أَمَامَ عَيْنَيْكِ يومًا مَّا ثم تندمين على أفعالِكِ بصورةٍ هائلةٍ و لاتَ حينَ ندامة.

فقالتْ نفيسةُ وقد بلغ ضحكُها الآن مبلغَ الجِدِّ:

- يا زينبُ، انْتَبِهِى لكلامِكِ. أَعِدُكِ أنَّ عمرَ سيظلُّ مُحِبًّا لى ولن ينجحَ أحدٌ فى إِقَامَةِ حائلٍ بينى وبينه أبدًا.

- على فرضِ أنه سَئِمَ مِنكِ، فماذا ستفعلين إذا عاملَكِ كما عاملَ والدتى؟ أو ماذا ستفعلين إذا وجدَ امرءةً أخرى أكثرَ منكِ صِبًا وجَمالاً؟

- إنه لن يفعلَ ذلك. أنا متأكِّدةٌ.

فجعلتْ أنفاسُ نفيسةَ تزدادُ سرعةً. فقالتْ:

- اخْرجي من غرفتي. اخرجي من منزلي وإلا رفعتُكِ إلى رجالِ الدرك.

- لا بأسَ يا نفيسةُ، سأخرجُ. ولكنْ، ستندمين على لقاءِكِ أبي. هذا وعدٌ غيرُ مكذوبٍ.

فاستدارتْ زينبُ، ثم خرجتْ من المنزل ماشيَةً حتى وصلتْ إلى المرأب حيث كانتْ قد ركنتْ سيَّارتَها مُتحرِّقَةً غضبًا و مرتجفةً من فرقِ رأسِها إلى أخمص قدميها. لقد تعرَّضتْ لإهانةٍ لم تتعرَّضْ لمثلها قطُّ. ولكنَّها لن تَمْنَحَ نَفِيسَةَ أَيَّ فُرْصَةٍ للاطِّلاَعِ عَلَى كَمْ بَلَغَ مِنْهَا جُرْحُهَا. نعم، لن تَمْنَحَهَا فُرْصَةَ الاطِّلاَعِ على شِدَّةِ تَأَثُّرِهَا بِسُلُوكِ أَبِيهَا حتى لا يكون ذلك مَصْدَرَ المُتْعَةِ عندها. على الأقلّ، لقد أوصلتْ إليها الرسالةَ.

# الفصل الثانى عشر

حاولَ (بابا) أن يجعلَ عائشةَ تشعرُ بالارتياح. ثم زَارَتْهَا أمُّها فى صحبة زوجها بعد مرور ثلاثة أسابيع على وصولها إلى جوس. فزوَّداها بما تحتاجُ إليه من النَّصَائِحِ. ثم تباحثَ (بابا) معها بمستقبلها بعد رحيل أُمِّها مع زوجِها.

ولقد اقترحَ زوجُ (ماما) على عائشة قبل رحيلهما أن تَطْلُبَ – على الأقل – وظيفةَ التعليم مع حكومة الولاية بدلاً من البقاء فى البيت عاطلةً عن العمل رغمَ اعْتِزَالِهَا الخِدْمَةَ تَحْتَ الإدارةِ المدنيَّةِ منذُ عشرة أعوامٍ استرضاءً لعمر. فأَخْبَرَها (بابا) أنَّ فى وسعه أن يُؤَمِّنَ لها وظيفةً تحت جامعة جُوسْ على اعتبارِ أنَّ رئيسَ الجامعة كان وَلاَ يَزَالُ صديقًا له. فَشَبَّ فرحُ عائشةَ عَنْ طَوْقِ الوَصْفِ مِمَّا جَعَلَ الكَلاَمَ يَسْتَغْلِقُ عَلَيْهَا.

فنهضتْ إلى أبيها لتُعانقَه. وفى اليوم التالى، تناولَ (بابا) جميعَ مُسَوِّغَاتِ تَعْيِينِهَا فانطلقَ بها إلى الجامعة. ومن حُسن حظِّهما، كانتْ للجامعةِ وظيفةٌ شاغرةٌ فى كليَّة الدراسات الثقافيَّة. فحُدِّدَ الأسبوعُ التالى موعدًا للمقابلة الشخصيَّة. فلما عادَ (بابا) إلى المنزل

ذلك اليوم، كان ابتسامُه عَرِيضًا. وأما عائشةُ فلم تتصوَّرْ أنْ يتحقَّقَ ذلك بهذه السهولة.

ثم سُلِّمَتْ رسالةُ التعيين إلى عائشة نفسَ اليوم الذى انعقدتِ المقابلةُ فيه. فكانتْ شديدةَ السرور. ثم جعلتْ تَذْرَعُ غرفتَها جِيئَةً وذَهَابًا ليلةَ ذلك اليوم وتدورُ فى خَلَدِهَا الأحداثُ التى وقعتْ بضعةَ الأسابيع الماضيةِ. وسرعان ما أوحشتْها غَيْبَةُ عمر بِشِدَّةٍ. وكان ذلك مصدرَ حزنِها. وكان حُبُّها لِعُمَرَ غَيْرَ مُتَمَايِنٍ. وكان الاثنان مُقرَّبَين جدًّا من قبل.

لقد أثارتِ الطريقةُ الفجائيَّةُ التى طَوَى بها عمرُ كشحَه عن عائشةَ صدمتَها بصورة مُؤْلِمَةٍ. كما أَخَذَتْ على خَاطِرِهَا مِنَ الطريقة التى هَجَرَها عُمَرُ بها و اسْتَغْنَى عنها بعدَ كلِّ صنائعِها وتَضْحِيَاتِها التى قَدَّمَتْهَا إِكْرَامًا لِخَاطِرِه. وكانَ يَمْلَأُ صَدْرَهَا الشُّعُورُ بالظُّلْمِ والغَضَبِ.

وكانتْ فى أول الأمر تتوقَّعُ منه اتِّصالةً هاتفيَّةً يُقدِّمُ إليها من خلالها اعتذارَه ثم يَرتجعُها. و لكن، على العكسِ من ذلك، أرسلَ لها

جميعَ الأولادِ بحجَّةِ أنهم يَثُورُونَ ضِدَّ زوجتِه الجديدةِ وأنه لم يَعُد يرغبُ فيهم.

وظلَّتْ تتساءلُ عن ما ارتكبتْه في حقِّ عمرَ لتستأهلَ منه هذه المعاملةَ القاسيةَ. وكانتْ لا تؤمنُ بأنها قد رَحَلَتْ عن عمرَ وأنَّ زواجَهما قد لَفَظَ نَفَسَه الأَخِيرَ وأنَّها باتتْ تعيشُ منفردةً فى عالمٍ تَغِيبُ عنه بسماتُ عمر ونصائحُه ونُكَتُه البايخَةُ. والأهمُّ من ذلك كُلِّه، الحُبُّ الذى كانتْ تَتوهَّمُ أنه كان يُكِنُّه لها. فوقفتْ هناك ترمقُ ببصرها صورةً كبيرةً لعمر مُعلَّقَةً على الجدار بجانب سريرها. وكان تَفْكِيرُها وقتئذٍ مَقْصُورًا على حالتِه قبل أن يَتغيَّرَ، عندما لقيتْه أوَّلَ ما لقيتْه فى مُخَيَّمِ التَّوْجِيهِ ذلك اليوم.

وفجأةً، امتلأَ قلبُها حُزْنًا وألمًا. فانفجرتْ ناشجةً نَشْجًا يُخَيِّمُ عليه الصَّمْتُ و يَسْتَثِيرُ الشفقةَ. ثم نامتْ مِلْأَ جفنيها أوَّلَ مرةٍ تلك الليلةَ بصورةٍ مُثيرةٍ للمفاجأةِ منذ أسابيع. فلما نظرتْ إلى نفسها فى المرآة غداةَ اليوم التالى تفاجأتْ حينما رأتْ أَسَارِيرَ وَجْهِهَا تَبْرُقُ سُرُورًا بِخِلاَفِ ذلك الوجهِ الواجمِ العبوسِ الذى أَلِفَتْ

مشاهدتَه. فأيقنتْ أنَّ عجلةَ حياتِها ستُواصِلُ تقدُّمَها وأن المستقبلَ مؤكَّدٌ بِغضِّ النَّظرِ عن الأحداثِ التى تتثالُ على مشهدِ حياتِها.

فلما رجعَ صديقُ بعدَ أسبوعٍ مِن الحادثة، صُدِمَ بما رأى مِنَ التَّغيُّراتِ فى المنزل. كان أبوه قد تغيَّرَ بشكلٍ جذريٍّ، ولم يَعُد يعبأ به. فبذلَ قُصارى جهدِه فى محاولةٍ لجعل وجه أبيه يخلو له، ولكنَّ محاولتَه باءتْ بالفشل. لقد باتَ مُنْهَمِكًا فى أمر نفيسة. ثم قرر بعد يومين من وصوله أن يُغادِرَ إلى جُوسْ للانضمام إلى أمه وسائر إخوانه. فكرهَ أن تعلمَ أمُّه كمْ أَثَّرَ فيه أسلوبُ حياةِ أبيه الجديدُ. ونتيجةً لذلكَ، كان يَتَهَرَّبُ مِن موضوع أبيه فى حضرة أمه.

وأما عائشةُ فقد كانَتْ تَكْتُمُ عَنْه تَفَاصِيلَ ما حدثَ فى غيبته تفاديًا من إقحام أولادها فى هذه المُعَادَلَةِ القائمة بينها وبين والدِهم. وأرادتْ أن ينظرَ الأولادُ إلى أبيهم على أنَّه ذلك الرجلُ الذى كانوا يُغْدِقُونَ عليه حبَّهم واحترامَهم.

وكان (بابا) يَنْبُوعًا تَسْتَقِى مِنْه عائشةُ سُلْوَانَهَا. وعلى الرغم من أنها كانتْ تتقاضَى راتبًا شهريًّا لدعم نفسِها وأولادِها فإنه كانَ على قدمِ الاستعداد دائمًا لدعمِها ماليًّا. وكلما احتجَّتْ عائشةُ

على هذا الدعم شفقةً عليه كان (بابا) يتلقَّى احتجاجَها بالضحك ثم يُنَفِّسُ عنها كُرَبَها. ثم أدخلَ (بابا) إبراهيمَ فى مدرسة جيِّدة ونقلَ عائشةَ (الابنةَ) إلى جُوسْ لمتابعة دراساتها فى المدرسةِ الثانويَّة.

وذاتَ يومِ جمعةٍ، بعدَ مرورِ ثلاثة أشهرٍ تقريبًا على رحيلِ عائشةَ عن منزل عمر، دخلَ (بابا) فى غرفتِها غريبَ الهيئةِ حزينَ الوجهِ. وكانتْ وَقْتَئِذٍ قد انتهتْ من أداء صلاةِ العصر. فنظرتْ إليه مرتعبةً فقالتْ:

- يا أبتِ، ما خطبُكَ؟

فاستدارَ تجاهَها على تُؤَدَةٍ، فوقفَ عند منضدةِ الزِّينَةِ وقْفةً قصيرةً مستمسكًا بإطار المنضدة كأنه على وشكِ أن يتعثَّرَ.

- ما خطبُكَ يا أبى؟ هل أنتَ على ما يُرام؟

فجلس على المقعد التابع لمنضدة الزينة، فحاولَ أن يكبتَ دمعَه. فقال:

- نعم، أنا على ما يُرامُ يا عائشةُ .

ثم مَضَى قائلاً:

- يا عائشةُ، الصبرُ أَوْلَى. اعتَصِمِى بالصبر و ....

فعجزَ عن المتابعة. ثم حنى رأسَه الطاعنَ فى السِّنِ نحو رُكبَتَيْه فلم ترَ عائشةُ إلا الدموعَ، دموعَ الحزنِ. لم ترَ عائشةُ أباها يبدو بهذه الهيئة الحزينةِ قطُّ. فنهضتْ مِن السجَّادة التى أدَّتْ صلاتَها عليها إلى جانب أبيها نهضةً سريعةً. فقالتْ:

- يا أبتِ، ماذا حدثَ؟ مَن ماتَ؟ هل لقيَتْ (ماما) حتْفَها؟

- إنه إبراهيمُ يا عائشةُ.

وفجأةً، استأنفَ نِظرتَه العديمةَ المغزى من جديدٍ. فقفذتْ عائشةُ عليه فَتَشَبَّثَتْ به تشبُّثَ الأُخْطُبُوط بمسوكه. فسألتْ:

- إبراهيمُ؟

فأومأَ (بابا) برأسهِ مُثْبِتًا. فقال:

- لقد اصطدمَ بدرَّاجةٍ ناريَّةٍ وهو يركبُ درَّاجتَه الهوائيَّةَ أمامَ دارِ صديقه. وحدثَ ذلك قُرَابَةَ الثلاثين دقيقةً ماضيَةً.

فوقفَ وقْفةً قصيرةً ينظرُ إليها نظرةً مُناشِدةً. وكان ذلك أَوَّلَ مَرَّةٍ تُدْرِكُ عائشةُ بشكلٍ فجائيٍّ أنَّ أباها كان قد طعنَ فى السِّنِ. فقالت:

- أتعنى أنه قد... ياسلام! لا تتفوَّهْ بذلك يا (بابا).

فطفقتْ تَبْكِى.

- يا عائشةُ إنه ميِّتٌ.

فنفذتْ فيها كلمةُ (ميِّتٌ) كالسَّهم. فرمتْ نفسَها على السرير نائحةً بحُرْقَةٍ.

أَ مَضَتْ على عائشةَ ساعاتٌ أم أيامٌ؟ لا تعرفُ ذلك. وبدَا وَضْعُهَا كأنها قد أمضتْ رَدَحًا مِنَ الدهر فى الظلام. واستبدَّ بها الشعورُ بأنها فى قبضةِ قُوى مجهولةٍ وأنها لم تَعُد تُسَيْطِرُ على نفسِها. وكانتْ قد سمعتْ صوتًا مُماثِلاً وشَمَّتْ رائحةً مُماثلةً قبل السنوات الماضية عندما لَقِىَ مختارُ مصرعَه. فطغى ذلك على أفكارِها بصورةٍ واضحةٍ. فعلمتْ بلا ريبٍ ولا رجمِ غيبٍ أنها قد قطعتِ المسافةَ كلَّها مشيًا وعليها أن ترجعَ عَوْدَهَا على بَدْئِها كرجلٍ تاهَ بأرضِ فَلاَةٍ.

فسمعتْ صوتًا يبكى، ففتحتْ عينيها فإذا النائحون قد اجتمعوا فى الدار بمن فيهم أصدقاؤُها وأقاربُها وجيرانُها وكلُّ مَن يَضحكُ بضحكِها ويَغضبُ بغضبِها. وحينئذٍ تذكَّرتْ أن إبراهيمَ، ابنَها قد تُوُفِّىَ وأنها لم تهتمَّ برؤية جثتِه. ولحُسنِ حظِّها، لمَّا يُدْفَنْ ولكنْ، قد تمَّ غسلُه وتكفينُه حسبَ التعليم الإسلامي.ثم رُوفِقَتْ إلى

غرفة (بابا) حيث ألقتْ نظرةً على جثته وقدَّمتْ له دعاءَ الوداعِ. فقضتِ العجبَ مِن أن قطرةً من الدمع لم تسقطْ مِن عينها.

ثم دعتْ له عائشةُ كلَّ يومٍ بإخلاصٍ وحماسةٍ سَائلةً اللَّهَ أنْ يُطَيِّبَ ثَرَاه. فمرَّتْ أيامُ الحِداد الثلاثةُ مُرُورَ الكِرامِ. وكانَ أقرباءُ عمرَ وأصدقاؤُه شهودًا فى المأتم. ونالَ موتُ إبراهيمَ مِن أُمِّ عمرَ مَنَالاً كبيرًا. وأما عمرُ فإنه لم يشهدِ المأتمَ طَوالَ فترةِ الحِداد. وانتهى الخبرُ إلى عائشة فى ما بعد، أنَّ عمرَ كان غائبًا عن منزلِه عندما تمَّ الاتصالُ به لنعى ابنِه إليه. كانَ مُسافِرًا فى رحلةٍ رسميَّةٍ استغرقتْ عشرةَ أيامٍ. فلما اتصلَ بزوجتهِ عبرَ الهاتفِ، طَوَتْ فُؤادَها على الخبر فلم تُخبرْه بالوفاة.

ولم ينتهِ إلى عمر هذا الخبرُ الصادمُ إلا بعدَ مُرورِ يومين على عَودتِه منَ السفر إثرَ زيارةِ وفدِ المرزئةِ مِن أحبابِه إليه فى منزلِه لتعزيتِه. فطلبَ مِن أعزِّ أصدقائِه، ناصرَ، أن يُرافِقَه إلى جُوسْ اليومَ التالى. ولكنَّ عائشةَ وأولادَها احتجبوا عنه، فلم يمنحوه فرصةَ المقابلة. فما رحَّبَ به إلا (بابا). فوقف عمرُ ساكتًا بضعَ لحظاتٍ فى محاولةٍ

للتغلُّبِ على عواطفِه. فعدلَ منكبيه ثم شبكَ يديه على ظهرِه منعًا من التلويح بهما تلقائيًّا.

فأشار إليه (بابا) أن يتَّبِعَه، فمشى كلٌّ منهما وعثَ اللسانِ، فما أمرَّ منهما أحدٌ وما أَحْلَى. وكانَ ذلكَ أوَّلَ لِقاءٍ يجمعُ (بابا) وعمرَ منذُ رحيلِ عائشةَ عن منزلِه. فاتَّبعَه عمرُ كرجلٍ آليٍّ. فواصلاَ سيرَهما حتى بلغَا خلفَ الدار عند الفضاء. فقال (بابا) بصوتٍ يعلوه الرِّفقِ:

- هنا دفنَّا ابنَكَ.

وما إن تفوَّهَ بذلك حتى ولَّى مُدبِرًا فتوجَّه إلى داره وقد تركَ عمرَ بجانب القبر. وكان ذلك أوَّلَ مرةٍ ينسحقُ عمرُ حزنًا منذُ ولدتْه أمُّه. لقد تقطَّعَتْ به الأسبابُ، فوقفَ لا قِبلةَ له ولا دِبرةَ. لن يُعيدَ البُكاءُ ابنَه المُتوَفَّ إلى الحياة. ابنٌ شغلتْه أشغالُه عن شُهودِ جنازتِه. ثم انهارَ فبكى بحُرْقَةٍ يتفجَّعُ على هذه الخسارةِ التى بدأَ يشعرُ بها أولَ مرةٍ. ونَدِمَ ذلك اليوم على الفِراق الذى ثبتَ بينه وبين عائشةَ. فلما كان على أُهْبَةِ الرحيلِ، عجز عن توديعِ (بابا) من شدَّةِ خجله.

وكان إبراهيمُ أقربَ أولادِ عائشةَ إليها. وبعدَ مُرورِ أربعين يومًا على وفاةِ إبراهيمَ، رزمتْ عائشةُ أغراضَه فى صندوقٍ واسعٍ فأخفتْه فى غرفةِ الخَزْنِ. وهُنالِكَ بدأتْ تشعرُ بألمِ خسارتِها. لقد كانَ إبراهيمُ يافعًا جدًّا حسبَ رأيِ عائشةَ. فبكتْ أوَّل مرَّةٍ منذ وفاتِه بشكلٍ غيرِ مسبوقٍ.

لقد كانتْ هناكَ رابطةٌ مُمَيَّزَةٌ بين الاثنين منذ ولادتِه. ولايعنى ذلك أنَّه كانَ أحبَّ إليها مِن سائرِ أولادِها. بل كانَ أحيانًا مُمَيَّزًا نَوْعًا مَّا. كما كانَ التقارُبُ بينهما مُمَيَّزًا أيضًا بصورةٍ لا يُمكنُ توضيحُها. وهكذا وافتْه المنيَّةُ فى لمحةِ بصرٍ دونَ إشعارٍ سابقٍ.ثم أَرِقَتْ عائشةُ ذاتَ ليلةٍ حالِكَةِ الجلْبَابِ، فقرَّرَتْ فيها أن تُواجِهَ قدرَها بجَسارَةٍ. لقد خدعتْها الحياةُ بطُرُقٍ مُختَلِفةٍ ولكنَّها لن تطيبَ عن الأمل نفسًا.

# الفصل الثالث عشر

أخبرتْ نفيسةُ عمرَ بأنها ترغبُ فى الاحتفالِ بِعِيدِ مِيلَادِه بعدَ مُرورِ شهرين على وفاةِ ابنِه. فتلقَّى هذا الخبرَ بالضحك ظَنًّا مِنه أنها كانتْ مازحةً. فلما ألحَّتْ عليه أن يُزوِّدَها بالمال للإجراءات التحضيريَّة، شعرَ بأنَّ أوانَ الاحتجاجِ على طلباتها الماليَّةِ اللاَّمُتَنَاهِيَةِ قد آنَ. وكانَ يُكِنُّ لها ضَغِينةً على خَلفيَّة أنها لم تتعاطَفْ معه عَلَى ثَكَلِهِ وَلَدَه إبراهيمَ. وإنما نَوَّهَتْ بذلك مرَّةً فقط دونَ مبالاةٍ.

واعتبرَ عمرُ ذلك فرصةً ذهبيَّةً لمعاقبتها وتأديبها جزاءً بما انشغلتْ عن هُمُومِه نَكالاً مِنه. وجزمَ أن يجعلَها تدفعُ ثمنَ تفريقِها بينه وبين أفرادِ عائلتِه الذين كانَ حُبُّهُمْ لا يَتَمَايَنُ. فأعطاها كلَّ ما سألتْه مما يَمُتُّ إلى الحفلةِ بصِلَةٍ ثم قطعَ لها الوعدَ بأن يَعُودَ إلى المنزل يومَ الحفلة قبلَ الميعادِ مُضْمِرًا فى نفسِه خطَّةً أُخرى. وكانَ على يقينٍ مِن أنَّ تلك الخطَّةَ ستجرَحُ مَشاعِرَ نفيسةَ. لقد جعلتْه وفاةُ إبراهيمَ يُدرِكُ أخطاءَه نوعا مَّا. ولا يزالُ يرتمضُ - كلَّما تذكَّر- مِن أنَّ عائشةَ تَجَاهَلَتْهُ عندما سافرَ إلى جُوسْ إثرَ وفاةِ إبراهيمَ.

فلما حاولَ (بابا) أن يَجْمَعَ بين عائشة و عمرَ، تسلَّلَتْ مِنَ البيت. ولايَخْفَى على عمرَ أنه كان قد أجْحَفَ بحقِّ عائشةَ ولكنَّه لم يتوقَّعْ تلك ردودَ الأفعالِ السلبيَّةَ التى تلقَّاها منها ذلك اليوم. فاحْتَجَبَ الأَوْلاَدُ عَنْهُ تَأَسِّيًا بِأُمِّهِمْ. فأوصدوا فى وَجْهِهِ البابَ فى غرفة عائشةَ نَاشِقِينَ فيها حتى بعدَ مُرورِ رَدَحٍ من الزمن على انطلاقِه. لقد انسحقَ ذلك اليوم ندمًا على كلِّ ما حدثَ. فقرَّر أن يتصالَحَ مع عائشةَ. ومما يبعثُ على الغرابةِ أنَّ عائشةَ ترفضُ أن تُجيبَ عن اتِّصالاتِه الهاتفيَّةِ؛ مما جعلَه يُدركُ أن زيارتَه لها لن تتمخَّضَ عن النتيجةِ المرجوَّة. وكان (بابا) قد نَأى بنفسِه عن هذه المُعَادَلَةِ.

وكلما كوَّر اللهُ الليلَ على النهارِ وكوَّر النهارَ على الليلِ كانَ عمرُ أكثرَ إدراكًا لمدى عدمِ صلاحيَّةِ نفيسةَ للزَّواج. وشتَّان ما بينها وبين عائشةَ. كانتْ نفيسةُ وَقِحَةً ومُدلَّلَةً تدليلاً به شَقَذٌ ونَقَذٌ. كما كانتْ قليلةَ الأدبِ، شديدةَ التبذيرِ والإلحاحِ فى الطلبِ. ولا خبرةَ لها بفنِّ الطَّهْيِ والتدبيرِ المنزليِّ. ولا يَرْتَقى أَدَاؤُهَا للوَاجِبَاتِ المَنْزِلِيَّةِ إلى المُسْتَوَى الَّذِى يُرْضِى عُمَرَ؛ الأمر الذى جعلَه يشترى أطعمةَ

ضُيوفِه من المطاعمِ غالبًا ويُعرِضُ عن طعامِ نفيسةَ؛ لأنه لا يَهْنَأُ ولا يَمْرَأُ. وأما نفيسةُ فإنها لا ترى بأسًا بشراء الأطعمة المطبوخة من المطاعم للضيوف. وترى أنَّ ذلك مشكلةُ عمرَ وليس مشكلتَها. لقد تزوَّجَها لتكونَ رَيْحَانَةً وليستْ قَهْرَمَانَةً. وكلما تطاولَ عليهما العمرُ كان عمرُ أكثرَ إدراكًا لواقعِ أنَّ نفيسةَ — بالنسبة له – أقربُ إلى صديقةٍ منها إلى زوجةٍ. وأما نفيسةُ فإنها لم تَطِبْ عن معظمِ خصالِها القَذِرَةِ نفسًا ولكنَّها كانتْ تبذلُ جهدًا كبيرًا من أجلِ رَأْبِ الصَّدْعِ بينها وبين عمرَ إذا نشب خلافٌ بينهما نظرًا إلى أنَّهَا غَيْرُ مُستَعِدَّةٍ لخسارته لأيِّ سببٍ من الأسبابِ.

وغادرَ عمرُ مكتبَه إلى النادى يومَ عيد ميلاده والساعةُ الخامسةُ مساءً بدلاً مِنَ الرَّوَاحِ إلى أهله. وأقفلَ هاتفَه حتى لا يتلقَّى اتصالاً هاتفيًّا من أحد. والتقى بعضَ أصدقاءِه هناك. فأمضى معهم وقتًا مُمتعًا فَوَقَعُوا فى الرَّفْشِ و القَفْشِ يُغازلون النساءَ ويأكلون ويشربون. فلم يُفكِّرْ فى العودة إلى أهلِه إلا بعد العاشرة ليلاً وقد باتَ بعضُ المدعوِّين الذين شهدوا الحفلةَ فى منزله على أُهْبَةِ الانصرافِ إلى منازلهم. فنظرتْ نفيسةُ إلى ساعةِ رُسْغِها فإذا هى

الحاديةَ عشرةَ وخمسَ عشرةَ دقيقةً. فقال عمرُ غيرَ مُبالٍ وهو يترنَّحُ ويَشُقُّ طريقَه فى ردهتِه الغاصَّةِ بالناس:

- مرحبًا بكم جميعًا.

فلما استقرَّ به الجلوسُ قال:

- أرجو أنكم قضيتُم وقتًا مُمْتِعًا فى غيابِ صاحبِ الحفلة.

و من ينظرْ إليه من الوهلة الأُولى يُدْرِكْ أنه كان ثَمِلاً. فما رأتْه نفيسةُ من قبل على تلكَ الهيئةِ قطُّ. فجعلتْ تنظرُ إليه مَكْتُوفَةَ اليدينِ وقد طَغَى بها الدمُ. فحاولتْ إخفاءَ غضبِها عن الحاضرينَ. لماذا أَرْبَكَها بين صديقاتِها وعائلتِها؟ كيف يَجْرُؤُ على ذلك؟ فقالتْ نفيسةُ رغمَ أنفِها:

- هلا أجلبُ لكَ طعامًا ؟

فقال:

- لا، شكرًا لكِ. لستُ فى الحقيقة جوعانَ ولكنْ، سأتناولُ قطعةً من الكَعْكَةِ.

فلما تناولَ الكعكةَ، جعلَ يترنَّحُ حولَ المكان يُريدُ أن يقولَ وداعًا للضيوف. وكان المدعوُّون قد أخذوا ينصرفون بصورةٍ لها

دلالاتُها الواضحةُ. فلما غادرتِ الدفعةُ الأخيرةُ مِن الضيوف، تناولَ عمرُ زجاجةً من الماء ثم توجَّهَ إلى الطابق العُلْوِيِّ من المبنى قاصدًا غرفتَه مُتجاهِلاً نفيسةَ.

فجلستْ نفيسةُ وحدَها دقائقَ كثيرةً مُنْهَمِكَةً فى التفكير فى كيفيَّة التعامُل مع الوضْعِ. وفجأةً، نهضتْ مِن مجلسِها وقد هاجَ هائجُها. فشعرتْ بأن تنفجرَ باكيةً. وهمَّتْ بأن تصرخَ فى وجهِ عمرَ وتقولُ له لقد طفحَ الكيلُ. إنَّ عمرَ قد سامَها ذُلاًّ، ولم تكنْ هذه هى المرَّةَ الأُولَى التى أهانَها فيها عمرُ. ولا يَخْفَى عليها أنَّ عمرَ قامَ بذلك عن سابقِ تصوُّرٍ وتصميمٍ. وكانَا يَدُقَّانِ بينَهما عِطْرَ مَنْشَمٍ منذ وفاةِ إبراهيمَ. ولم تَعُدِ الأوضاعُ كسابقِ عهدِها منذئذٍ. ولكنْ، هل كانتْ نفيسةُ مسؤولةً عن وفاةِ إبراهيمَ؟ وبينما تدخلُ نفيسةُ فى الغرفة إذ خرجَ عمرُ مِن الحمَّام. فقالتْ دونَ أن تنتظرَ أن يعترفَ بحضورِها:

- إننى لم أَعُدْ أفهمُكَ. كنتَ تعلمُ أننى أعددتُ هذه الحفلةَ اليومَ و أننى كنتُ قد دعوتُ أصدقاءَنا إلى هذا العَشاء المُتَمَيِّزِ، وكنتُ قد ناشدتُكَ بالله أن لا تعودَ مِن العمل

مُتأخِّرًا. فماذا فعلتَ بعد ذلك؟ لقد عُدتَ فى الحاديةَ عشرةَ وخمسَ عشرةَ دقيقةً فى حين أنَّ الضيوفَ وصلوا هنا قبل الثَّامِنَةِ، ولم تَتَحَرَّجْ مِن أن تسألَ إنْ كانَ الجميعُ قد أمضوا وقتًا مُمتِعًا فى غِيابِ المُحتَفِل.

فسألَها باهتمامٍ قائلاً:

- هل انتهيتِ ؟

- لا.

فمضَتْ قائلةً:

- كيف تجرؤُ على التأخُّر وقد علمتَ أنَّ اليومَ مُمَيَّزٌ بالنسبةِ لى؟ ألم تَعُد تعبأُ بى؟

وفجأةً، انفجرتْ ناشجةً.

- انظرى يا نفيسةُ، امْنَحِينِي قسطاً من الراحة. إننى تعبانُ وتشتدُّ حاجتى إلى الرَّاحَة. لو كانتْ عائشةُ فى مكانِكِ لما خالفَتْنِي بِمِثْلِ خُلْقِكِ.

و كانَ مُجَرَّدُ ذكرِ اسمِ عائشةَ بمثابةِ صَفْعَةٍ فى وجه نفيسةَ فقالتْ:

- يا عمرُ، يُمكِنُكَ أن ترتجعَ عائشةَ. لقد ضيَّقْتَ الخِنَاقَ عليَّ منذ وفاةِ ابنِكَ. هل قَتَلْتُه؟

فقال عمرُ مُهَمْهِمًا:

- صَهٍ يا غبيَّةُ! لا تتمتَّعِينَ بالضمير الحيِّ.

فامتلأتْ نفيسةُ رُعْباً. لقد باتتْ على يقينٍ من أنها تخوضُ معركةً فاشلةً.

لم تتصوَّرْ نفيسةُ طوالَ السنتين اللتين مضتَا على تودُّد عمر إليها وتسعةِ الأشهر التى مضتْ على زَوَاجِهما أنَّ عمرَ سيبدو عنيدًا لهذه الدرجة يومًا. وكان قبل ذلك يُعامِلُها كَمَلِكَةٍ, ولكن الآن يبدو أن التَّوَلَةَ قد بطلتْ.

وظلَّتْ نفيسةُ مكتئبةً تغضبُ على عمرَ عدَّةَ أيَّامٍ بعدَ وقوع هذه الحادثة. ثم أدركتْ أن عمرَ قد باتَ ينزلقُ تدريجيًّا من قبضتِها. وأصبحَ الآن يشكو من كلِّ أفعالِها جهرةً؛ مما جعلَها تشتبهُ به. لعل هناك امرأةً يُواعدُها. إنَّ الرجلَ إذا كان فى هيئة عمر فلا يلزمُه سِوى أن يُفَرْقِعَ إِصْبَعَهُ فرقعةً واحدةً فإنَّ نصفَ دَسْتَجَةٍ مِن النساءِ سيأتين إليه مُذْعِنَاتٍ. وكانتْ تعرفُ كُنْهَ معرفةٍ متى يبدأُ الرجلُ مثلُ عمرَ

بالمواعدة. كما لا يَخْفَى عليها بناءً على خِبْرَتِها الطويلةِ متى بدأَ عمرُ يُقيمُ علاقاتٍ جنسيَّةً غيرَ شرعيَّةٍ فى خارجِ منزلِه.

# الفصل الرابع عشر

أصبحتْ حياةُ نفيسةَ الزوجِيَّةُ تَنْزَلِقُ مِن سيِّءٍ إلى أسوأَ على كرِّ الليلِ والنهارِ. وباتَ عمرُ أكبرَ مِن عمرِه الحقيقيِّ بعدَ اجتيازِه خمسينَ من عمره. وجعلتْ رُقْعَةُ شَيْبِه تَتَّسِعُ على سَوَادِ شعرِ رأسِه الدَّاكِنِ المُتَلَأْلِئِ كما أَصْبَحَ يفقدُ وزنًا بصورةٍ تدريجيَّةٍ.

وبعد ثمانيةِ أَشْهُرٍ، نشبَ نزاعٌ حامِي الوَطِيسِ بينَ عمرَ ونفيسةَ. كانتْ تَسْتَجْدِي عمرَ مائةَ ألفِ ليرةٍ منذُ أيَّامٍ لتشترىَ بها أَلْبِسَةً جديدةً، ولكنَّ عمرَ ادَّعى أنه ينقصُه المالُ. وكانتْ نفيسةُ غيرَ واعِيَةٍ أنَّ الصفقةَ التى أبرمَها عمرُ قُبَيْلَ زواجِهما كانتْ قد جعلتْه زِرًّا من أزْرَارِ المالِ. وكلما جمحتْ بها مطالبُها الماليَّةُ لدى عمرَ، كانتْ أشدَّ غضبًا عليه. فجعلتْ تتساءلُ عن سببِ شكواه دائمًا مِن عدم المال. وتفاديًا مِن خَلْقِ مَشَاهِدَ، كانَ عمرُ يَغِيبُ عن المنزلِ معظمَ الليالى ولا يعودُ إلا بعدَ تأكُّدِه من أنَّ النومَ قد ضربَ كلَّ أُذُنِ نفيسةَ؛ مما جعلَها تُكِنُّ له ضغينةً وغيرةً. ثم حسمتْ بأنَّ مَرَدَّ عُزُوفِهِ عَنْهَا إلى أنَّ له امْرَأَةً أُخْرَى يُغْرَمُ بِحُبِّهَا.

وذاتَ غداةِ سبتٍ، لما بلغ حملُ نفيسةَ ثمانيةَ أشهُر، خرجَ عمرُ من المنزِل فى العاشرة صباحًا فلم يعد حتى الواحدة ليلاً؛ مما أغاظَ نفيسةَ أيَّما إغاظةٍ. و مِن فرطِ غيظِها أطعمتِ الكلابَ طعامَه. فلما عادَ عمرُ، وجدَ المائدةَ خاليةً من الطعامِ. فأيقظَ نفيسةَ.

- أين طعامى يا نفيسة؟

- أيّ الطعام؟ لَسْتَ بِحَاجَةٍ إِلَى الطَّعَامِ على الإِطْلاَقِ، بل تريدُ استفزازِى. أليست امرأتُكَ البَغِيُّ مَاهِرَةً فى الطَّبْخِ مَهَارَةً تَرْفَعُ عَنِّى مَشَقَّةَ إِيقَاظِى فى منتصف الليل لِكَىْ أُعِدَّ لَكَ الطَّعَامَ؟

فألقى عمرُ عليها نظرةً ترمى بشررٍ، فاستدارَ ليغادرَ، فإذا هى تنقضُّ عليه من فوق سريرها كنَمِرَةٍ مُتضوِّرَةٍ جُوعًا. فقبضتْ على قميصِه فقالت:

- أيها العديم الفائدة، الجاهل بمسؤوليَّاته، لقد كنتُ أَسْتَجْدِيكَ مُجَرَّدَ مائةِ ألفِ نيرةٍ منذ أيام لأشترىَ بها بضعةَ أشياءَ لجنينِنا ورفضتَ، والآن تريدُ الطعامَ. اسمعْ جيِّدًا، لاطعامَ لكَ ما لم تُعْطِنِى المالَ.

فأُصِيبَ عمرُ بصدمةٍ وقضى العجبَ من تصرُّفِ نفيسةَ هذا.ثم جلسَ على كرسيٍّ وقد نشقَ فى حبالةِ اليأسِ نشقًا كاملاً، ولكنَّ نفيسةَ لم تنتهِ بعد، فقالتْ:

- هكذا يتصرَّفُ الرجالُ الأَغْبِيَاءُ أَمْثَالُكَ. تُوَزِّعُون الأموالَ على بغاياكم وأخدانِكم فى خارج المنزل وتحرمون أزواجَكم مُجَرَّدَ قِرْشٍ فى المنزل. إننى لن أقبلَ ذلك مِنكَ أبدا!

ثم توقَّفتْ لكى تَلْتَقِطَ أنفاسَها. ثم مضتْ قائلةً بصوتٍ منخفضٍ فى هذه المرة كأنها تخاطبُ صبيًّا:

- يا عمرُ، لم أَعُدْ أفهمُكَ منذ الآونة الأخيرة.

ثم ازدادَ صوتُها حِدَّةً وغضباً وإهانةً. فقالت:

- لماذا أصبحتَ بَخِيلاً لهذه الدرجة، تحرمنى المالَ الذى أعلمُ أنه فى حوزتكَ؟ لم يخطر ببالى قطُّ أنكَ شريرٌ، تافهٌ، عديمُ الرويَّةِ والإيمانِ.

وما كادتْ تَنْتَهِى مِنَ الإِدْلاَءِ بآخر كَلاَمِهَا حتى أوسعَها عمرُ صَفْعَتَيْن مُعْمِيَتَيْن على كلٍّ من خَدَّيْها. فاحترقَ خدَّاها ألمًا

فانفجرتْ باكيةً. وفجأةً، شعرتْ بتشنُّج، فقبضتْ على بطنِها لائذةً بالفرار إلى خارج الغرفة؛ مما جعلَ عمرَ يسرعُ إليها ويعترضُ سبيلَها.

لقد عِيلَ صبرُه، فقرر أوَّلَ مرة منذ زواجِهما أن يبوحَ لها بمكنونِ صدرِه فقال:

- ليتنِي كنتُ أعلمُ أنَّ المرأة التى تزوَّجتُهَا تافهةٌ و فاسدةٌ وشِرِّيرَةٌ. أأنتِ نَسِيجُ وَحْدِكِ مِنْ بَيْن نِسَاءِ العَالَمِينَ؟ وهل هكذا تسألُ النساءُ الأُخَرُ أزواجَهنَّ المالَ؟ شتَّان ما بينكِ وبين عائشةَ. أشكرُ اللهَ على أنكِ لستِ زوجتِي الأُولَى. لقد علمتُ سِلْمِيَّةَ الحياةِ الزوجيَّة عندما كانتْ عائشةُ معى. إن كنتِ تشعرين بأننى عاجزٌ عن تلبيةِ حوائجكِ فارحلِى عن منزلى. هل كلامى واضحٌ؟

وما إن تفوَّه عمرُ بذلك حتى خرجَ مِن الغُرفة. فبكتْ نفيسةُ طَوَالَ تلك الليلة حتى اكتحلتْ عيناها غُمْضًا.

وفى صباحِ اليومِ التالى، استلقتْ على سريرها مُقشعِرَّةً عاجزةً عَنِ النُّهُوضِ بِسَبَبِ اليَأْسِ. وشعرتْ بالغثيان مُدَّةً من الزمن. فأكنَّت لعمر كراهيةً ورضيَتْ من الوحشةِ بالشِّجارِ. ثم نهضتْ من

سريرها ممتلأةً غضبًا لاَ شُعُورَ لها بِه. فانطلقتْ بحثًا عن عمرَ. فوجدتْه عند المائدة وهو يتناولُ فطورَه. و يبدو هادئًا وباردًا؛ الأمرُ الذى زاد مِن حِدَّة غضبها. فتناولتْ قارورةَ الماءِ الساخنِ، فحاولتْ إراقةَ سائلها على عمر.

وسرعانَ ما وفَّاها عمرُ جزاءَها. فارتطمَ رأسُها بحافةِ المائدةِ نَتِيجَةً لِلَكْمَةٍ أَوْسَعَهَا عُمَرُ رَأْسَهَا. وفى لحظةٍ واحدةٍ، جلستْ مذهونةً مُرَوَّعَةً، لا تستطيعُ التحرُّكَ. فلما استجْمَعَتْ قُوَاها ونظرتْ إلى عمرَ وهو يُعدِّلُ قميصَه غيرَ مُبالٍ بما إذا كان قد جرحَها أم لا، تناولتْ كُرْسِيًّا بلا ظهرٍ ولا ذِراعَيْن، فرمتْ به إليه بقوَّةٍ. فكَرْبَشَ عمرُ ثم انهارَ على الأريكةِ الأقرب منه.

لم تُصدِّقْ نفيسةُ أنها استطاعتْ أن تُدَوِّخَه بهذه السهولة.ثم جعلتْ تلمسُه بلطفٍ خائفةً ولكنَّه استلقى هناكَ مُتَجَمِّدًا. فجعلتْ تتساءلُ عن ما يَنْبَغِى لها أن تقومَ به. وأخيرًا، قرَّرَتْ أن تَتْرُكَهُ بِلاَ إِسْعَافٍ. فذهبتْ إلى المطبخِ فأغلقتِ البابَ ثم أخرجتْ قِطْعَةً صغيرةً مِن الثَّلْجِ مِنَ الثَّلاَّجَةِ، فجعلتْ تغسلُ بها وجهَها. فلما نظرتْ إلى مِرْآةِ المطبخ، وجدتْ وجهَها وخدَّيْها مُتورِّمَةً. وبعدَ عشر

دقائقَ، دخلَ عمرُ فى المطبخِ حائرًا. فقالتْ له نفيسةُ وقد فُزِّعَ عن قلبِها:

- إذا لكمتَنِي مرة أخرى أَرْدَيتُكَ قَتِيلاً.

فخرج عمرُ مِنَ المطبخِ وَعْثَ اللِّسانِ؛ الأمرُ الذى جعلَ نفيسةَ تشعرُ بأنها قد تعلَّمَتْ درسًا مُهِمًّا وقَيِّمًا. يجب عليها أن تُدافِعَ عن نفسِها فى المستقبل.

وفى مساءِ ذلك اليوم، لم يَعُدْ عمرُ إلى الدار. فاستبدَّتْ بها المَخَاوِفُ. لقد أرادتْ أن تتصالحَ معه صُلْحًا جديًّا نظرًا إلى أنَّ حاجتَها تشتدُّ إلى المال.

فأمرتْ نفيسةُ الطاهيَ أن يُعِدَّ لعمر طعامَه المُفضَّلَ. وهو طعامٌ اشتهرَ بين أبناءِ قبيلة الهوسا بـ( تُوُنْ شِنْكَافَا وَ مِيَنْ تَوْشِى). ثم أحكمتْ وضْعَهُ على المائدة. وظَلَّتْ منتظرةً لعودةِ عمرَ حتى ضربَ النومُ كلَّ أذنِهَا. وعلى الرغم من أَنَّهَا تَمْتَلِأُ خَوْفًا، فإنها نامتْ مِلْأَ جَفنَيْها نومةً خاليةً من الأحلام. ولم يُوقِظْها إلاَّ أذانُ المؤذِّنِ بصلاة الصُّبح. فلما ذهبتْ إلى غُرفةِ عمرَ، اكتشفتْ أنَّ سريرَه لم ينمْ عليه أحدٌ.

فوجدتِ الطعامَ فى غرفة الأكلِ كما وضعتْه. ثم هُرِعَتْ إلى المرأبِ لتجدَه خاليًا من سيَّارتِه. فعلمتْ أنه لم يَعُد إلى المنزل تلكَ الليلةَ. فندمتْ أوَّلَ مرة منذ زواجِهما.

فلما عادَ عمرُ بعدَ ساعاتِ الدَّوَامِ مِنَ المكتبِ مساءَ ذلك اليوم، كانَ كلٌّ منهما هادئًا. فتصرَّفَ أحدُهما تُجاهَ الآخر كما يتصرَّفُ الغرباءُ بعضُهم إلى بعضٍ. وجعلاَ يتدابرانِ ولا يكادان يتخاطبانِ. وظلَّ الحالُ هكذا إلى بضعةِ أيَّامٍ؛ الأمرُ الذى جعلَ كِلَيْهما يُدْرِكَانِ أنَّ الحياةَ على هذا المِنْوَالِ لن تُجْدِىَ نَفْعًا. فتَمَنَّتْ نفيسةُ لو يُطَلِّقُها عمرُ تطليقةً واحدةً فى حين يَسْتَبِدُّ بِعُمَرَ الشُّعُورُ بِالْوَحْشَةِ و اليَأْسِ. هُنَاكَ مشكلةٌ تَنُوءُ بِكَلْكَلِهِ وتَأْكُلُهُ فى داخِلِه كما تأكلُ السُّوسَةُ فى داخِلِ الحُبُوبِ. ولتِلْكَ المُشْكِلَةِ عَلاَقَةٌ بمكتبِه.

# الفصل الخامس عشر

قبلَ دَفْنِ (بابا) بعدَ تكفينِه حسبَ التعليمِ الإسلاميِّ، حدَّقَتْ عائشةُ إليه تحديقاً لا مغزى له والحزنُ يَلُوعُها. وبدَا هادئًا بعيداً منها ومن أبناءِها وجميعِ مَنْ عَهِدُوه وأَحَبُّوه. ثم كَفْكَفَتْ دُمُوعَها التى قد بدأتْ تَتَسَرَّدُ. فدعتْ له سرًّا ثم قالت:

- لن أستسلمَ للهزيمةِ بِغَضِّ النَّظرِ عن ما يُخَبِّؤُه لى المستقبلُ فى مَذَاخِرِه.

فنظرتْ إليها أمُّها نظرةً مُشفِقَةً فقالت:

- إنَّ عُمْرَكِ يا عائشةُ أصغرُ بكثيرٍ مما تَتَفَوَّهِينَ به.

لقد أصبحَ تكليمُ عائشةَ أكثرَ صعوبةً على الجميع منذُ ثَكِلَتْ ابنَها أبراهيمَ.ثم جَرَى الوَادِى فَطَمَّ على القَرِيِّ بعدَ وفاةِ أبيها، غيرَ أنَّ مظهرَها يبدو عاديًّا. نعمْ، تبدو عائشةُ ممتازةً مِنْ حَيْث المَنْظَرِ ولكنَّ صدمتَها النفسيَّةَ كانتْ بالغةَ الأثرِ. وكان أبوها دِعَامَةً تستندُ إليها وقُوَّةً تَشُدُّ بها أزرَها فى وجهِ النَّوَائِبِ التى تَنْثَالُ فى مشهدِ حياتِها. والآن - للأسف الشديد — قد فقدتْه أيضًا.

فجعلتِ الدموعُ تنسابُ إلى أسفلِ وجهِها بصورةٍ تلقائيَّةٍ. فتجاهلتْ أُمَّها. لقد طارتْ نفسُها شَعَاعًا. وأصبحَ قلبُها مَهَبَّ العَوَاصِفِ العَاطِفِيَّةِ المُتَصَادِمَةِ. واستولى عليها الغضبُ. هذا الرجلُ الذى كانَ صديقَها ومُنْقِذَها الوحيدَ قد رحلَ عنها. وأَثَّرَ فى نفسِها ألمُ خسارتِها تأثيرًا بالغًا. لماذا اختارَ أن يرحلَ عنها؟

لقد أخذتْ غَيْبَةُ (بابا) تُوحِشُ عائشةَ. ولما كانَ على فراشِ المرضِ، كانتْ صِحَّتُه المتدهورةُ مصدرَ القَلَقِ لدى الجميعِ. ما أَشْبَهَهُ بِحَيٍّ مَيِّتٍ!. ويصعُبُ تحمُّلُ النَّظرِ إلى وضعِه. وأرادتْ عائشةُ أن تتوقَّفَ عن العملِ وعن كلِّ شيءٍ؛ بغيةَ أن تُضَحِّيَ بكلِّ وقتِها لأبيها كما ضَحَّى هو بكلِّ وقتِه لها عندما كانتِ المِحَنُ تَجْرِي لها. ولكنَّ (بابا) لم يُوافِقْها على ذلك. ولقد أنقذتْها وظيفتُها وَقْتَ الشِّدَّةِ ومَكَّنَتْها مِنَ العَوْدَةِ إلى المنزل كلَّ يومٍ بعدَ ساعاتِ الدَّوَامِ مُتَزَوِّدَةً لأبيه بأخبارٍ فكاهيَّةٍ وأفكارٍ يتشاطَرَانِها. والآن، قد تَوَارَى عن الأنظارِ.

ولَمْ تُدْرِكْ عائشةُ أنَّ (بابا) كان مَحْبُوبًا و مُحْتَرَمًا عند النَّاسِ إلا بعد وَفَاتِه. وجاءَ الناسُ مِنَ المراتِبِ الاجتماعيَّةِ المختلفةِ، أصدقاؤُه

والمتمنون له الخيرَ لتعزيةِ أهلِه. وبعدَ فترةِ الحِدَادِ، استجمعتْ عائشةُ شجاعتَها وواصَلَتْ سيرَها فى دربِ الحياةِ. وكانتْ قد وعدتْ أباها أن لا تستسلمَ لليأس مهما تَضَعْضَعَ بها الدهرُ. وأَزْمَعَتْ على العيش بمقتضى وعدِها.

ثم تأكَّدَتْ عائشةُ من أنَّ تقسيمَ تَرِكَةِ أَبِيهَا جَرَى حسبَ ما نَصَّتْ عليه الشريعةُ الإسلاميَّةُ فى أربعين يومًا إثرَ وفاتِه. وورثتْ كلَّ شيءٍ تقريبًا نتيجةَ أنها هى وارثتُه الشرعيَّةُ الوحيدةُ. ثم استثمرتْ ما ورثتْ من الأموالِ فى مشروعٍ تجاريٍّ. وفى مدةٍ يسيرةٍ من الزمنِ، تَحَوَّلَ ذلك المشروعُ إلى قِصَّة نجاحٍ.

فلما انطلقَ عمرُ صباحَ ذلك اليوم المشؤومِ من دارِه مُتَوَجِّهًا إلى قاعةِ مجلسِ إدارةِ الوزارةِ ليشهدَ اجتماعًا كانَ قد دعا إلى عقدِه منذُ ثمانيةِ الأيَّامِ الماضيةِ، كانَ اعتقادُه أنه سيترأَّسُ هذا الاجتماعَ.

فدخلَ فى قاعةِ مجلسِ الإدارةِ فى رداءِه الأزرقِ الدَّاكِنِ مُتَقَلْنِسًا، غيرَ واعٍ أنَّ الوزيرَ كانَ قد احتلَّ كُرْسِيَّهُ حتى اقتربَ مِنه ماشيًا مِشْيَةَ الرجلِ القَوِيِّ الثِّقَةِ بنفسِه. كما لاحظَ حضورَ جميعِ مُدَرَاءِ الوزارةِ بلا استثناءٍ. فأومأَ برأسِه تحيَّةً لهم وقد ارتسمَ تعبيرُ

المفاجأةِ على وجهِه. فجلسَ على أقرب المقاعد منه. فاعتذرَ اعتذارًا اقْتَضَبَه على نحوٍ فَظٍّ قائلاً:

- آسفٌ. أنا مُتأخِّرٌ.

فابتسمَ الوزيرُ بسمةً سَادِيَّةً فقال:

- مرحبًا بكَ أيها السيدُ عمرُ. ولكنْ، يجبُ عليَّ أن أُحِيطَكَ عِلْمًا بأنكَ مَرْغُوبٌ عَنْكَ فى اجتماعِنا اليوم.

فألقى عمرُ نِظْرَةَ الرجلِ المُدَوَّخِ بالضَّرْبِ على الوزيرِ فقال:

- أَسْتَمِيحُكَ عُذْرًا يا سَيِّدِي.

- نعمْ، أيها السيد عمرُ. لم تَعُد سِكْرَتِيرًا دائمًا لهذه الوزارة اعتبارًا من هذا الصباح. لقد تَمَّ تعليقُكَ حتى إشعارٍ آخرَ. لولا تُغَادِرُ هذا المكانَ. نريدُ أن نُوَاصِلَ هذا الاجتماعَ.

فنهضَ عمرُ واقفًا كرجلٍ آليٍّ. ثم غادرَ القاعةَ مُثْقَلاً بالهمومِ وقد خَفِيَ عليه سببُ هذا القرار.

ولما انطلقَ ماشيًا مِنَ القاعةِ الطويلةِ إلى مكتبِه، شعرَ بعارضٍ فى حنجرتِهِ وضغطٍ فى صدرِه. آهْ! يا لها مِن إهانةٍ مُكْتَمِلَةِ الأركانِ ونَوْبَةٍ قَلْبِيَّةٍ مُمِيتَةٍ فى وزارته. هذا مكانٌ كانَ قد عملَ فيه سنواتٍ

عديدةٍ. لا، لا، لن يسمحَ لهم بأن يُجَرِّعُوهُ كأسَ المهانةِ. ثم أخذَ يلهثُ.

وتجشَّمَ عُمَرُ للوصولِ إلى مكتبِه عَرَقَ القِرْبَةِ. وما إن وصلَ إلى مكتبِه حتى انهارَ فى الكرسيِّ الذى كانَ بجانبِ منضدتِه لاهثًا بصورةٍ شديدةٍ. لقد كان ذلك غيرَ مُصَدَّقٍ. لماذا حدثَ له ذلك؟ لقد كان مُتَوَرِّطًا فى مشكلةٍ ولكنه لم يتوقَّعْ أن تَتَلاَحَقَ الأحداثُ بهذه السرعةِ. الأوغادُ! نعمْ، إنَّ سائرَ مُدَرَاءِ الوزارةِ أوغادٌ. و كانَ قد أسدى إلى كلٌّ منهم معروفًا بوسيلةٍ من الوسائلِ ولكنَّهم اليومَ غَدَرُوا به.

وبينما هو نَاشِقٌ فى وضعِه هذا، إذ انفتحَ البابُ فدخلتْ سكرتيرتُه مع رجلين، يرتدي كلٌّ منهما بذلةً سوداءَ ويرتسمُ تعبيرُ الجِدِّيَّةِ على وجهيهما. فنهضَ عمرُ واقفًا. فقالتْ سكرتيرتُه:

- سَيِّدِى، لقد وصلتْ هذه الرسالةُ هذا الصباح بعنوان:" أمرٌ مُستعجَلٌ.

ثم ناولتْه إيَّاها بكلِّ احترامٍ. فعَلِمَ بالبداهةِ أنها رسالةُ التَّعليقِ. ثم مضتْ قائلةً:

- سَيِّدِى، إن هذين الرجلين بِوَدِّهِمَا لو يُجْرِيَانِ حِوَارًا معكَ. لقد مضتْ ساعةٌ على وجودِهما هنا.

فأصبحَ عُمَرُ مُضْطَرِبًا ومُمْتَعِضًا فى آنٍ واحدٍ. فقال وقد قبضَ كفَّه بإحكامٍ:

- ما خَطْبُكُمَا يا رجلان؟

فقال أحدُهما:

- صباح الخير أيها السيد عمر.

ثم مضى قائلاً وهو يُخْرِجُ بطاقتَه الشخصيَّةَ من جيبِ ثُنْدُوَتِه:

- أنا فِنْسَنْتْ جُو وهذا رفيقِى، بَلُّو أبوبكر. نحنُ مِن المكتبِ الوطنيِّ للخدماتِ الأمنيَّةِ. أنتَ قيد الاعتقالِ الآن، وعليكَ أن تعتصمَ بالصمتِ وإلا كان كلُّ ما تفوَّهْتَ به من كلام قابلاً لأن يُستَغَلَّ ضِدَّكَ فى المحكمة الشرعيَّةِ.

فقال عمرُ لاهثًا:

- ماذا يحدثُ هنا بحقِّ السماء؟ ما مَعْنَى أَنَّنِي قَيْدُ الاعْتِقَالِ؟

- أيها السيد عمرُ، سأقرأُ لكَ حقوقَكَ. فعليكَ أن تعتصمَ بالصَّمتِ. وإنْ طبتَ عن حقِّك نفسًا فإنَّ كلَّ ما تلفَّظْتَ به من كلمةٍ سيُستَغَلُّ ضِدَّكَ فى المحكمةِ الشرعيَّةِ اعتبارًا من الآنَ. ومن حقِّكَ أن تستأجرَ مُحَامِيًا. وإن عجزتَ عن ذلك فإن المحكمةَ ستُزَوِّدُكَ بواحدٍ.

وبينما يقرأُ له فِنْسَنْتْ الإجراءاتِ إذ أقامَ الضَّابِطُ الثَّانِى عمرَ الجَفُولَ من كرسيِّه بِعَنْوَةٍ ثم كَتَّفَه بِكِتَافٍ. فقال عمرُ فى نفسِه:

- يا لِلَّهِ لَعُمَر.

ما كانَ هذا ليحدثَ له. وجعلَ يتصبَّبُ عرقًا، فسالتِ العُرُوقُ من إِبْطَيْهِ مُتدحْرِجَةً إلى أسفلِ قُطْرَيْهِ.

و زَوَتْ سِكْرَتِيرَتُه ما بين عينيها وهى تُشاهِدُ كيفَ يقودُ الرجلانِ إلى خارجِ مكتبِه.

لقد علمتْ أنَّ المَطَافَ سينتهى به إلى هذا الوضعِ عاجلاً أم آجلاً. وكانتْ قد همَّتْ بتحذيرِ رئيسِها منذُ فُتِحَ ملفُّ التحقيقِ

السِّرِّيِّ ثلاثةَ الأسابيعِ المُنصرِمةِ. ولكنْ، كيفَ تجرؤُ على ذلك؟ لو سرَّبَتْ له ذلك لخسرتْ وظيفتَها أيضًا.

فحاولَ عمرُ أن يبتسمَ إليها ولكنَّها صرفتْ وجهَها عنه. فحُفِزَ إلى المقعدِ الخلفيِّ في سيارةِ بِوْجُوتْ مِن طِرَازِ ٥٠٤. وما إن دخلَ الرجلانِ فيها حتى دَاسَ السَّائِقُ على دَوَّاسَةِ البِنْزِينِ فانْطَلَقَتِ السَّيَّارَةُ بسُرْعَةٍ قُصْوَى.

فالتفتَ عمرُ مُكْتَوِيًا بألمٍ شديدٍ، فرأى العديدَ من زملاءِه واقفِين عند مدخلِ مَبْنَى المكتبِ يُشاهِدُون ما يحدثُ له. فظلَّ ينظرُ إليهم من بُعْدٍ حتى تَوَارَوا عن بصره.

ولما وصلوا إلى مركز التحقيق الخاص، أُخْضِعَ عمرُ لإجراءاتٍ رسميَّةٍ كثيرةٍ كرجلٍ آليٍّ. وبعدَ تمامِ الإجراءاتِ، قال له بَلُّو، ضابطُ التَّحَرِّى:

- أيها السيد عمرُ، إنَّ مِن حقِّكَ أن تُجْرِىَ اتِّصالَةً هاتفيَّةً.

فرفعَ عمرُ بصرَه فقال مُكْتَئِبًا:

- سأتَّصِلُ بزوجتى.

فَنُوولَ السَّمَّاعَةَ.

# الفصل السادس عشر

لم تشعرْ نفيسةُ بالارتياحِ منذُ شِجَارِها الأخيرِ مع عمرَ. وكانتْ تُجْبِرُ نفسَها كلَّ يومٍ على التَّكَيُّفِ مع شعورِها الشَّديدِ بكراهيةِ ذاتِها. لقد سَايَرَتْ عمرَ حتى انحدرتْ إلى حضيضِ المهانةِ رغبةً فى نيلِ مُبْتَغَاها، ولكنَّها أدركتْ بعدَ فواتِ الأوانِ أنها أَهْوَنُ عندَ عمرَ مِن أَمَةٍ تُتَّخَذُ أداةً للمُتعةِ الجنسيَّةِ أو بَهِيمَةٍ تُرْهَقُ حِمْلاً.

ولما تعافتْ من الضربِ الذى تعرَّضَتْ له، جعلتْ تشعرُ بأنَّ مِن الظُّلْمِ أن يضعَ النَّاسُ عليها كلَّ اللَّوْمِ. لقد تعرَّضتْ للظلم. ولم تتوقَّعْ مِن عمرَ عندما أُغْرِمَتْ به إلا مُجَرَّدَ الحُبِّ أو على الأقل العِشْرَةِ، ولكنَّ عمرَ أحكمَ سيطرتَه عليها وتحكَّمَ تقريبًا بجميعِ أَزِمَّةِ أُمورِها.

فلما تَجَهَّمَتْ نفيسةَ شَفَقَةُ عمرَ، جعلتْ تُرَاجِعُ حِسَابَ حياتِها. إنَّ هذه التجربةَ مُؤْلِمَةٌ. ثم أدركتْ أنها ارتكبتْ غلطةً هائلةً بقبولِها أن يُمْسِكَ عمرُ بعصمتِها. وكانَ ذلك أوَّلَ مرَّةٍ يتبيَّنُ لها أنَّ هذه المنزلةَ المُتَدَنِّيَةَ - مُجَرَّدَ قَهْرَمَانَةٍ — مصدرُ وَيْلاَتِها. لا تَدْرِى أكانتْ عمياءَ أم كانَ حُبُّ عمرَ يُسْكِرُها عندما قَبِلَتْه زوجًا لها.

فقرَّرتْ وضعَ الحدِّ لكلِّ شيءٍ، ونذرتْ على نفسِها تلك الغداةَ أن لا تسمحَ لأحدٍ أبدًا بأن يتخذَها دَوَّاسَةً أو مَطِيَّةً يبلغُ عليها حاجةً فى نفسِه على حسابِها. لقد أصبحَ الحبُّ — هذه الكلمَةُ المُرْعِبَةُ — معدومًا بالنسبةِ لنفيسةَ. لم تَعُد تُكِنُّه لعمرَ ولا لغيرِه من الرِّجالِ. إنه لا يُفْضِى إلا إلى الكارثةِ. وبدلاً من ذلك ستُحَبِّبُ نفسَها إلى الرجال ثم تُلْحِقُ بهم الدَّمَارَ بعدَ ذلك.

ومِنَ المستحيلِ الآن أنْ تأتمنَ نفيسةُ أحدًا على هُمُومِها. سيتَّخذونَها أُضْحُوكَةً. ولا شكَّ أنَّ رحيلَها عن عمرَ سيُضِيفُ شيئًا إلى القائمةِ بإخفاقاتِها ولكنَّ ذلك أفضلُ لها مِن بقاءِها معه. المالُ- بالنسبة لها — مصدرُ القوَّةِ. وهو مَجْلَبَةٌ للحُرِّيَّةِ من الحاجة ومَدْعَاةٌ للاحترامِ والهيبةِ. ولم يَعُد فى وسعِها العيشُ مع صُعْلُوكٍ كعمرَ. لقد علَّمَها كيف تشعرُ وتتصرَّفُ كغَنِيَّةٍ ولن تجدَ مِن دونِ الغِنَى مُلْتَحَدًا. فأيقنتْ أنَّ عليها أن تتحرَّكَ من أجلِ تحقيقِ هذا الحلم. فاسْتَلْقَتْ على سريرِها أيَّامًا تُفَكِّرُ فى ذلك وتُخَطِّطُ له وتَدْرُسُ.

ثم استيقظتْ من نومِها ذاتَ غُدْوَةٍ لتجدَ أنَّ خطتَها قد اكتملتْ أركانُها. كان عليها أن ترحلَ عَن عمرَ وكانَ على جنينِها أن

يرحلَ أيضًا. نعمْ، يجبُ عليه أن يموتَ. لقد قرَّرَتْ أن لا تتركَ أَثَرًا لعمرَ فى حياتِها. ولا تريدُ أن ترى شيئًا مما له علاقةٌ به عندما تنتهى من النَّيْلِ منه. كما لا تريدُ أيَّ شىءٍ يُذَكِّرُها إيَّاهُ. وفى مساءِ ذلك اليوم، تلقَّتْ نفيسةُ اتِّصالَةَ عمرَ الهاتفيَّةَ وخَبَرَ اعتقالِه فى هدوءٍ. إنَّ مُخَطَّطَاتِها تسيرُ على ما يُرَامُ.

وفى مركز الاعتقال الخاص، جلسَ عمرُ فى زنزانتِه وقد أثَّرَتْ فيه الصدمةُ النفسيَّةُ تأثيرًا أفْقَدَهُ القُدْرَةَ عَلَى تَذَكُّرِ كيفَ انتهى به المطافُ إلى ذلك المكان. لقد تحوَّلتْ حياتُه كلُّها إلى كابوسٍ بصورةٍ فُجَائِيَّةٍ. و كان يُرَاوِدُه الشُّعُورُ بأنَّ أحدًا يَكِيدُ له كيدًا هائلاً ولكنَّه لم يَقِفْ على نوعِ هذه المَكِيدَة. مَنْ كانَ وراءَ ذلك ولماذا؟

وبعدَ ذلك، جاءَ أحدُ الحُرَّاسِ إلى زنزانةِ عمرَ مساءَ ذلك اليوم بُعَيْدَ صلاةِ المغرب. فقادَه إلى الخارج وقد نالتْ منه الصدمةُ بحيث لا يهتمُّ بمعرفةِ المكانِ الذي كان يقودُه هذا الحارسُ إليه. وأخيرًا، قادَه إلى غرفة الزائرين حيث كانتْ نفيسةُ فى انتظارِه. فوقفَ هناك يُحَمْلِقُ إليها ويَلُوعُ عينيه الحُزْنُ.

- يا نفيسةُ، لا أدرى ماذا أقولُ. انظُرِى إليَّ. هل أستحقُّ هذه المعاملةَ؟ منذا الذى أسأتُ إليه؟ ولِمَ أنا يا نفيسةُ؟

- أعلمُ أنكَ لا تستحقُّ هذه المعاملةَ، ولكنَّ ذلك لا يهمُّ الآن. لقد اتصلتُ بأمى وضَرَّتِها وهما تبذلانِ قُصَارَى جُهْدِهما لأجل أن تستأجرَا لكَ مُحَامِيًا ماهرًا. فإذا جاءَ المُحَامِى فإنَّ العاصفةَ ستَهْدَأُ بالتأكيد.

فوقفَ عمرُ مرتَجًا عليه، ثم انهارَ فى كرسيٍّ خائبَ الأملِ. فشعر بعدم القدرة على الوقوفِ على رجليه. فأمضتْ نفيسةُ ساعتين معه ثم غادرتْ. فلما عادَ عمرُ إلى زنزانتِه، استلْقَى على حشيَّتِهِ مُحاوِلاً أن يبقى خَلِيَّ البالِ.

وفى غدوة اليوم التالى، زارتْه زينبُ، ابنتُه. فلما دخلَ عمرُ غُرْفَةَ الزائرين، نهضتْ إليه بسرعةٍ فعانقتْه مُنْفَجِرَةً بِالبُكَاءِ. فجعل قلبُ عمرَ يَدُقُ دَقَّةَ عَقْرَبِ الثَّوَانِى للسَّاعَةِ. فقال:

- زينبُ!

فعجز عن التعبير عن مفاجأتِه أوَّلاً ثم عن مُتْعَةِ رُؤْيَتِها. وعلى أيِّ حالٍ، كان عمرُ على يقينٍ مِن أنَّ زينبَ ستكونُ أوَّلَ

النَّاسِ له زيارةً؛ لأنها كانتْ قُرَّةَ عينِه وعزيزتَه. كما كانتْ أَحَبَّ أولادهِ إليهِ. ولكنْ نوعًا مَّا، حالَ بينهما حائلٌ لا قدرةَ له على استبطانِه. لم يدركْ كُنْهَ هذا الحائل ولن يدركَ كنهَهُ أبدًا. ثم هزَّتْهُ هذه الحقيقةُ كالرَّعْدِ، فتغلَّبَتْ عليه عواطفُه بصورةٍ فجائيَّةٍ. فلم يُدركْ أنه كانَ يَبْكي حتى شعرَ بِبَلَلِ دمعِه على خدَّيْهِ. وأرادَ أن يُخْبِرَ زينبَ عن شدة خجلهِ مِن نفسِه على سُوءِ معاملتِه لأُمِّها وعلى أنَّه غَدَرَ بهم وخَذَلَهم عندما كانتْ تشتدُّ إليه حاجتُهم. ثم أرادَ أن يعترف لها بأسفه على سُوءِ معاملتِه لهم جميعًا. وأرادَ أن يسألها عن عائشةَ (الابنة)، و أن يخوض فى موضوع إبراهيمَ ابنِه الرَّاحِل و فى موضوع ابنه صديق وفى مواضيعَ شتى ولكنَّه كان عاجزًا. مِن أين سيبدأ؟ فشعر فى أعماق قلبه أنه قد فاتَ الأوانُ. ثم استجمع قُوَاهُ فقال:

- تَسُرُّنى رؤيتُكِ يا زينبُ
- يا أبتِ، لا تقطعِ الرجاءَ ولا تَقْلِقْ فإنَّ الأمورَ ستكون على ما يُرَامُ. لقد هُرِعْتُ إلى هنا حالمَا انتهي إليَّ الخبرُ. وسافرَ صديقُ إلى كَنُو فى مهمة رسميَّة ولم يَتَسَنَّ لى الاتِّصالُ به. وعلى أي حال، أعلمُ أن (مَامَا) ستُحاوِلُ الاتصالَ به.

وبالمناسبة، تقرأُ (ماما) عليكَ السلامَ. وأرادتْ أن تأتىَ ولكنها غيرُ مُتَأَكِّدَةٍ من ما إذا كنتَ سترغب فى رؤيتهَا.

- كيف حالُها؟

- إنها تُقاوِمُ الفناءَ. إنها لم تشعرْ بالارتياح منذ وفاة جَدِّنَا. لقد أُطْلِقَ سَرَاحُها من المستشفى الأُسبوعَ الماضى. ويتشاورُ (أبَّا) و جَدَّتُنَا الكَنَوِيَّةُ فى إرسالها إلى أَلْمَانِيَا للعِلاجِ. ولكنَّ حالَها قد تحسَّنَتِ الآن.

فَحَمْلَقَ عمرُ إلى ابنتِه عاجزًا. لقد أيقنَ أنه مهما أَدْلَى به من كلامٍ فإنَّ ذلك لن يُغَيِّرَ ما كان قد حدث و لن يُخَفِّفَ مِن لَوْعَةِ الهَمِّ التى كان قد أَلْحَقَها بِهولاء الناس الذين كانوا ينظرون إليه على أنه دِرْعٌ لهم. ولا يَخْفَى عليه أنهم لم يَعُودُوا يثقون به. ويرى أن ذلك هو السَّببَ الوحيدَ الذى مَنَعَ عائشةَ من زيارته فى الوقت الذى تشتدُّ حاجتُه إليها.

ثم أُلْقِيَ القَبْضُ على السيد (بُوبَا) والسيد عَبْدُلْ فى المطار بعدَ مرور يومين على اعتقال عمر حيث كانا على أُهبةِ مغادرةِ الدولة فِرَارًا مِن يَدِ العَدالةِ. كَلاَّ! إنهما ليسا ذَكِيَّيْنِ بما فيه الكِفَايَةِ.

ثم أُفْرِجَ عن عُمَرَ بالكفالة بعد مُضِيِّ ثلاثة أسابيع على اعتقاله. فلما عادَ إلى منزله صار بائسًا بحيث إنه يشعرُ كأنَّه يتقمَّصُ شخصيَّةً أخرى. فحاول أن ينبذَ رُعْبَه وراءَ ظهرِه، ولكنَّ محاولتَه باءتْ بالفشل. ولم يَعُد بطنُه يُطاوِعُه على الأكل. واكتحلتْ عيناه سُهَادًا. و باتَ كأنَّ جنبَه على حَسَكِ السَّعْدَان.

وبعدَ مرور خمسة أيام على الإفراج عن عمر، رجعتْ نفيسةُ من السوق يومًا فوجدتْه مُحَدِّقًا فى الهواء الطلق. و بمجرد النظر إليه، تعلمُ من تعبيرِ وجهِه أنَّ أحداثَ الأسابيع الماضية قد انعكستْ عليه بصورةٍ لها دلالاتُها الواضحةُ. فقدَّمتْ له طعامَه ولكنَّه لم يتناولْ منه إلا قليلاً. وكانتْ نفيسةُ تَزُورُه كُلَّ يَوْمٍ طَوَالَ فترة اعتقاله. لقد تحوَّلتْ إلى زوجةٍ شفيقةٍ و عَرُوبٍ بين عشِيَّةٍ و ضُحَاهَا.

وظلَّتْ كذلك بعدَ الإفراجِ عنه. لقد أصبحتْ فجأةً مُعْتَنِيَةً به و مُشْفِقَةً عليه. وحاولتْ جاهدةً أن تجعلَه يبوحُ لها بسريرة نفسِه و يَأْتَمِنُها على هُمُومِه و مشكلاتِه ولكنَّه أبا أن يسمح لها بمشاطرتِه مشكلاتِه. وآثرَ أن يَطْوِيَ فُؤادَه عليها رغمَ أنَّ مِن باب أولى أن يقبلَ شفقةَ العَدُوِّ فى مثل هذه الحالة بِمَحْض إرَادَته.

و تَهَنْدَمَ عمرُ يومَ مُثُولِه أمامَ القاضى فى المحكمة مُتكرِّهًا. فلما كان على أُهبة المغادرة إلى المحكمة، شعرَ بِضَرُورَةِ أن يُحيطَ نفيسةَ بذلك علمًا. قد ترغبُ فى مرافقته. وبلغتِ الصدمةُ والمفاجأةُ من عمرَ مبلغًا كبيرًا عندما اكتشفَ أن كُلاًّ من غرفة جلوسِها ونومِها قد أصبحتْ خاليةً تقريبًا. لقد اختفى أثَاثُها وصناديقُها وسَجَّادتُها ومفروشاتُها وأستارُها. فصاحَ عمرُ بِنَبْرَةٍ يشوبُهَا التخويفُ:

- يا نفيسةُ، ماذا حدثَ لِمُمْتَلَكَاتِكِ؟

فردَّتْ وقد صرفتْ وجهَها عنه:

- لقد نقلتُها إلى منزلِ صديقتى.

- لماذا؟

فنهضتْ واقِفةً، ثم دَنَتْ مِن عمرَ فقالتْ بلا شفقةٍ:

- يا عمرُ، ليس من المعقول أنْ أعيشَ تحتَ سقفٍ واحدٍ مع مُجْرِمٍ. نعم، إننى رَاحِلَةٌ عَنْكَ.

فبدى عُمَرُ سَفيهًا وقد أُرْتِجَ عليه. ثم فتحَ ثَغْرَه ليتفوَّهَ بذاتِ شفةٍ، ولكنَّ صوتَه لم يُطَاوِعْهُ على ذلك. وفجأةً، شعرَ بدَوَرانِ رأسِه. لقد سيطرَ الدُّوَارُ عليه ولم يَرَ بين يديه إلا نُجُومًا تَتَلَأْلَأُ و

تَتَسَابَقُ. و سرعان ما أحَسَّ بألمٍ حَادٍّ فى صدرِه، ألمٍ ثَاقِبٍ تحتَ ثُنْدُوَتِه اليُسْرَى. فَضَغَطَ بشِدَّةٍ على البُقعة الأشَدِّ وجعًا ولكنَّ ذلك زادَ وضعَهُ سوءً. ثم تحرَّكَ نحو الجِدَار للاستناد إليه نظرًا إلى أنَّ الغُرفةَ خاليةٌ من المَقَاعِدِ.

وأما نفيسةُ فلم يبدُ أنها أخذتْ عِلْمًا بما يحدثُ لعُمَرَ بما أنها مَضَتْ قائلةً غيرَ مُبَالِيَةٍ:

- تبدُو مُتَفَاجِأً بتصريحِي. أليسَ كذلك؟ هل اقتسَمْنَا ثروتَكَ التى حصلتَ عليها بالسرقةِ؟ ماذا تتوقَّعُ منى أن أفعلَ فى منزلِ صُعْلُوكٍ؟ إننى لن أَرْضَى من الوَفَاءِ باللَّفَاءِ. لقد اعتادتْ عائشةُ أسلوبَ حياتِكَ البائسَ. حياةٌ تَتَمَيَّزُ بالفَقْرِ. فى وسعِكَ أن تَرْتَجِعَهَا. و إن كنتَ بى تَشُدُّ أزرَكَ فَأَرْخِهِ.

فوقفَ عمرُ حائرًا. و فجأةً، انقلبَ شديدَ الضعفِ. فشعرَ بعجزِ مفاصلِهِ عنْ حملِه. وظنَّ أنه قد أصبحَ فى عِدَادِ الأموات. وجعلتْ ذكرَياتُه تَطْغَى على أفكارِه. و تذكَّرَ بوُضوحٍ حياتَه السلميَّةَ مع عائشةَ والأولاد. و تذكَّرَ إبراهيمَ، ابنَه الرَّاحِلَ الذى لم يتمكَّنْ من شُهُودِ مَرَاسِمِ دفنِه. وفكَّرَ فى مُعَلِّمِه، والدِ عائشة المرحومِ الذى

ساعدَهُ على التَّرَقِّى فى سُلَّمِ النَّجَاحِ و أعطاه الحياةَ و الشَّرَفَ ولكنَّه لم يبالِ بأن يتفجَّعَ عليه بعد وفاتِه. لقد كان هذا لُعْبَةَ نفيسة. ما هي إلا امرأةٌ تتصيَّدُ الثراءَ و لا تَلْوِى إلا على مَرَامِها. وخَسِرَ عُمَرُ مُعَلِّمَهُ و زوجتَه وأولادَه مُغْتَرًّا بدهاءٍ نفيسة ولن يستعيدَهم أبدًا. وفجأةً، ماتتْ فكرةُ العيش فى داخله. لم يَعُد راغبًا فى العيش. لقد كان يعتقدُ أنه يتمسَّكُ بغُصنِ شجرةٍ قوِىٍّ و لكنه أدركَ بعدَ فواتِ الأوان أنه إنما كان يتمسَّكُ بأوراق الشجرةِ الهَشَّةِ. و فجأةً، تذكَّرَ قَضِيَّةَ المحكمة. و كان على علمٍ بأنَّه مهما نَزَلَ بِهِ من نوائبِ الدَّهرِ فإن ذلك لن يدرأَ عنه شُهُودَ المحكمة. فنظرَ إلى نفيسةَ فإذا بَصَرُهُ قد تَغَيَّقَ. فطرفَ عينيه فإذا هما لا تريانِ الأشياءَ بوضوحٍ. فخرجَ من الغرفة بشقِّ النفس قاصدًا سيَّارتَه دونَ أن يتفوَّهَ بِبِنْتِ شَفَةٍ.

ومِن المعجزة أنَّ عمرَ وصلَ إلى المحكمة سالمًا دونَ أن يُرافِقَه أحدٌ ذلك اليوم. و كان مُحامِيهِ قد وصلَ إلى المحكمة قبلَ أن يصلَ هو هناك. وكذلك ابناهُ، صديقُ وزينبُ. فدخلَ فى المحكمة كحيوانٍ تنقصُه الحياةُ. فرأى السَّيِّدَ عَبْدُل والسَّيِّدَ بُوبَا ولكنَّه تجاهلَهما. فلما دخلَ القاضى و انطلقتْ جَلْسَةُ المُرَافَعَةِ، كان زَنْدُ ذِهْنِ عُمَرَ لا

يُوَرِّى. فردَّ على التُّهْمَةِ أمام القضاء مُثْبِتًا براءتَه استنادًا إلى نصيحة مُحَامِيه لا إلى قُوَّةِ قَنَاعتِه النفسيَّة. ثم احتدمَ التَّرَافُعُ بين جِهَّةِ الدِّفاع و جِهَّةِ الادِّعاء. وحاولَ كلُّ طَرَفٍ من الطرفين أن يُقْنِعَ القاضى بِأَدِلَّةٍ مُمَثَّلَةٍ فى عددٍ من المستندات. و مُيِّزَ كلُّ مُسْتَنَدٍ بعلامةٍ. ثم استشهدَ كلُّ طرفٍ شُهُودًا إثباتًا لموقفِه. وأما عمرُ فقد وقفَ ينظرُ إليهم نظرَ المَغْشِيِّ عليه من الموتِ غيرَ مُهْتَمٍّ بالإجراءات. لقد أصدرَ حُكْمًا على نفسِه مُسْبَقًا. إنه مجرمٌ و لا يستحقُّ إلا العِقَاب.

وأُغْمِيَ على عمر مرتين. ونتيجةً لذلك، هُرِعَ به إلى المستشفى. و تَمَّ رفعُ جلسات المرافعة أربعَ مرَّاتٍ على خلفيَّةِ صِحَّتِه المُتَدَهْوِرَة. فلما تماثلَ للشِّفاء، و أصبحَ قويًّا بالكفاية لدخولِ فقص الشُّهُودِ، كان منظرُه واهنًا وضعيفًا. ولم يكن يعلمُ كيفَ دخلَ فى قفص الشهود. فأجابَ عن جميع الأسئلةِ المطروحةِ عليه تلقائيًّا استنادًا إلى نصيحة مُحَامِيه.ثم أصدرَ القاضى حُكْمَه بعدَ مُرُورِ شهرين على انطلاقِ هذه القضيَّةِ. وفى أثناء إصدارِ القاضى حكمَهُ، حدَّقَ عمرُ إلى السماء تحديقًا لا مَغْزَى له مُتَجَمِّدًا مُرْتَاحًا غافلاً عن ما يحدثُ حوله. فلم يسمعْ من القاضي إلا ما يلى:

- إليكَ حُكْمِى أيها السَّيِّدُ عمرُ: لقد وجدناكَ مُذْنِبًا نتيجةَ تَوَاطُئِكَ مع غَيْرِكَ على سَلْبِ الحكومةِ الفدراليَّةِ مَبْلَغًا ماليًّا قدرُه سِتَّةٌ و ثلاثون مليونَ نيرةٍ بالاحتيال. ونظرًا لصِحَّتِكَ المتدهورة، فإننا قد قررنا أن لا نحكمَ عليكَ بالسَّجْنِ ولكنْ بالتَّنَازُلِ للحكومة الفدراليَّة عن جميع مُمْتَلَكَاتِكَ ما عدا بيتَكَ الذى فى شارع مَمْبِلاَّ.

وما كادَ القاضي ينتهي من إصدارِ الحكمِ حتى طارتْ نفسُه شَعَاعًا. وجعلَ يجيلُ فكرَه في الأضرار التى ستُلْحِقُها به عناوينُ الصحائف الرئيسيَّةُ. كيف سيُواجِهُ العالَمَ؟ وكيف سيكونُ مصيرُه؟ وهل سينجُو من عقوبةِ السَّجْنِ؟ وهل يعنى ذلك أن جميعَ ممتلكاته ستُصَادَرُ؟ وهل هو قادرٌ على تحمُّلِ ما سيترافَقُ مع هذه الإهانة مِن لَوْعَاتٍ؟ وما إن انتهى القاضى من إصدارِ حُكْمِه حتى بدا عُمَرُ مُرْهَقًا. و فجأةً، شعرَ بضغطٍ شديدٍ فى صدرِه. فحاولَ أن يسعلَ فجشَّ صوتُه. ثم خُيِّلَ إليه أنه مُبْحِرٌ. فما لبثَ أن تملَّكَه الضَّعْفُ. وفى الثَّانِيَةِ التَّالِيَةِ، وجدَ نفسَه مستلقيًا على أرضيةِ المحكمةِ كَكَوْمَةٍ مِنَ

الرَّوْثِ. لقد فقدَ وعيَه. وما أشدَّ الاضطرابَ الذى أثارتْهُ هذه الحادثةُ فى المحكمةِ!

فلما وَصَلَ ناصرُ، أَعَزُّ أصدقاءِ عمر إِلَى جُوسْ فى سيَّارتِه انطلاقًا من أَبُوجُا ذلك المساء، علمتْ عائشةُ بالبديهةِ أنَّ لأمرٍ مَّا جدعَ قصيرٌ أنفَه. فسألَ عائشةَ أن تُوَضِّبَ أغراضَها استعدادًا لمرافقتِه دونَ بيانٍ. إنها مسألةُ الحياةِ والموتِ. فلمَّا وصلاَ إلى مستشفى غُوَغُوَلَدَ الاخْتِصَاصِيِّ قُبَيْلَ الثانيةَ عشرةَ منتصفَ الليلِ، كان عمرُ قد دخل فى الغيبوبةِ مُنَاضِلاً بينَ عالمِ الأحياءِ وعالمِ الأمواتِ.

# الخاتمة

استغرقَ شفاءُ عمرَ قُرابَةَ ثمانية أشهُرٍ. وعلى الرغم من ذلك، لا يزالُ ضعيفًا و هَشًّا. ولما تَمَّ إطلاقُ سراحِه نهائيًّا من المستشفى، رجعَ إلى منزله الذى كان زاخرًا بالسعادة فى صُحْبَةِ عائشةَ مُجَرَّدًا من ممتلكاتِه كلِّها إلا المنزل. لقد تنازلَ للحكومةِ الفدراليَّةِ عن جميع ما كانَ فى حوزتِه، بما فى ذلك: أراضيه وسيَّاراته وسائر دياره.

فلما دخلَ فى المنزل، تذكَّر كم كانَ سعيدًا فيه من قبل وقد غمرَه الحنينُ إلى الماضى. لقد تغَيَّرَ كلُّ شيءٍ. فأصبحت الأيَّامُ أطولَ والليالى أشدَّ ظُلْمَةً. و بدلاً من التَّعَافِى، بَاتَ وضعُ عمر ينزلقُ من سَيِّءٍ إلى أسوأ كُلَّمَا كرَّ الليلُ والنهارُ. و بدا أنه قد قطعَ الأملَ بشأن العيش. وفى الواقع، لم يَعُدْ راغبًا فى العيش. ورفضَ أن يتجاوبَ مع العلاجِ عمدًا. فظلتْ عائشةُ والأولادُ يدعون اللهَ ليلَ نهارَ أن يُعَافيَه ولكن يبدو أنَّ القدرَ يلعبُ لُعْبَتَه القديمةَ. وكلما سنحتْ له فرصةٌ قال:

– من فضلكِ يا عائشةُ، سامحينى.

ومِن فرطِ خجَلِه، لا يزيدُ على ذلك. و ربما يَكُفُّ عن التفوُّهِ بمزيدٍ مِن الكلام تجنُّبًا للوقوع فى الخطأ. ثم شعر بالعجز. لقد كانت حياتُه مَتَاهةً مُظْلِمَةً ومليئةً بِأَزِقَّةٍ مُضَلِّلَةٍ. فَأَقْنَعَ نَفْسَه أنَّ الدربَ الوحيدَ الذى سلكَه لم يُؤَدِّ به إلاَّ إلى الاتجاهِ الخطأ. فدعا اللهَ سِرًّا أن يغفرَ له ذنوبَه ويمنحَ عائشةَ و أولادَها القدرةَ على مسامحته. وبعدَ مرور تسعة أيام على إطلاق سراحِه من المستشفى، انتكستْ صِحَّتُه. وجعل يشعرُ بالضعف من قِمَّة رأسِه إلى أخمص قدميه؛ الأمر الذى أفقدَه شَهِيَّتَه. وأصبحَ كلُّ ما دخلَ فى فيه إما مُرًّا أو عديمَ الطَّعْمِ. فنظرَ إلى عائشةَ وقد لاعَه الحزنُ فقال:

- يا عائشةُ، أنا مُحْتَضَرٌ. أليسَ كذلك؟

فصرفتْ عائشةُ بصرَها عنه وقد اغْرَوْرَقَتْ عيناها بالدموع. لم تستطع الإجابةَ عن ذلك. فلما أمسكتْ عائشةُ عن الإجابة مَضَى عمرُ قائلاً:

- ومع ذلك، ليس فى وُسْعِى التفكيرُ فى السبب. إننى لا أشعرُ بالألمِ وإنما أشعرُ بعدم الارتياح و الضعف الشديد.

وكان مُبتسمًا ولكنْ، إذا نظرتَ إلى وجهِه، علمتَ بالبديهة أنَّ بسمتَه تترافقُ مع الصعوبة. فحاولتْ عائشةُ ضبطَ نفسها وهى تنظرُ إليه. فاستجمعتْ شجاعتَها فقالت:

- لا تقطعِ الرَّجاءَ يا عمرُ فإنى سأكونُ بجانبك دائمًا.

لم تُرِدْ أن تكذبَ عليه. فنادتْ صديقَ وزينبَ إلى الغرفة، فهُرِعَتْ إلى الخارج لتهدئةِ نفسها.

لم تُرِدْ أن يَرَى عمرُ الدموعَ التى تحاولُ السيطرةَ عليها. وأما زينبُ فإنها لم تستطع السيطرةَ على دموعِها أيضًا. شأنُها فى ذلك شأنُ أُمِّها. فخرجتْ للانضمام إلى أمِّها فى غرفتِها.

فأصبحَ صديقُ مُخْتَلِيًا بأبيه. وكان أبوه يَقِظًا و لكنَّه ضعيفٌ. فجلسَ صديقُ على حافة السرير ينظرُ إلى أبيه مُكْتَئِبًا.

فاستدارَ عمرُ وقبضَ على يدِ صديق اليُمنى بإحكامٍ فقال:

- أَنْهِضْنِي يا صديقُ أُرِيدُ الجُلُوسَ. لم أَعُد أرغبُ فى الاضطجاع. إنى أخافُ إن اكتحلتْ عيناي غُمْضًا أن يُغْمَى عليَّ إغماءً يَعْقُبُهُ نومٌ سَرْمَدِيٌّ.

فنظرَ صديقُ إليه بِحُبٍّ فقال:

- لا، يا أَبَتِ، كُفَّ عَنِ التَّفَوُّهِ بذلك. إنما أنتَ بحاجةٍ إلى قسطٍ من الرَّاحَةِ.
- لماذا يُعاملُنى كلُّ الناس على هذا المنوال يا صديقُ؟ لماذا يكذبُ الجميعُ عليَّ؟ لا يَخْفَى عليَّ أنَّنى مُحْتَضَرٌ. وفى استطاعتى أن أشعرَ بالتغيُّراتِ فى جسمى. كما يَسَعُنِي أن أرى ذلك فى عينيكَ وفى عينى أُمِّكَ أيضًا. لقد قطعتُم الرجاءَ جميعًا بشأن شفائى. ولايَخْفَى عليَّ أنَّ شِفَائِى مستحيلٌ.

فصَعَّدَ الزَّفَرَاتِ، فاستراحَ هُنَيْهَةً ثم مَضَى قائلاً:

- يا للعجب! أتسمعُنى يا صديق؟ إنى لم أَعُد أشعرُ بأنى أكبرُ سِنًّا من عمرى ثلاثينَ سنةً مَاضِيَةً. وبتُّ أَتَذَكَّرُ سِنَّ شَبَابِى بوضوحٍ فى الآونةِ الأخيرةِ. إنها أقربُ إلىَّ الآن مِمَّا كنتُ عليه قبلَ سنواتٍ. فكَبَسَ شفتيه بإحكامٍ فقال:
- لا بأس، إذا كانتْ هذه هى حقيقةُ الحياةِ فليسَ مِنَ المنطقِيِّ أن أَشْكُوَ. لقد تنعَّمْتُ بحياةٍ سعيدةٍ بفضلِ أُمِّكم.

فطرفَ عينيه ثم أغمضَهما فى بُرْهَةٍ. فظنَّ صديقُ أنه قد شرع فى النَّوم ولكنَّ عمرَ كانَ يَقِظًا يَقْظَةً واسعةً. وبعد مُدَّةٍ من الزمن، أحكمَ قبضتَه على يَدِ صديق فمَضَى قائلاً:

- أحيانًا، يجبُ على المرءِ أن يرجعَ فِكْرَه إلى الماضى لينظرَ فى ما قامَ به وما لم يَقُمْ به. يا بُنَيَّ، لقد ارتكبتُ غلطةً باهظةَ الثَّمن، أَرْتَمِضُ منها دائمًا. اشْمَلْ وَالِدَتَكَ بعِنَايَتِكَ. لقد قاستِ الأَمَرَّيْنِ من أَجْلِى ومن أجلِكَ ومن أجلِ الجميعِ. ادعُ اللهَ يا صديقُ أن يرزقَكَ الحكمةَ وأنتَ شابٌّ، و أن يُقْدِرَكَ على التمييز بين الحقِّ و الباطلِ وبين الخطأ والصواب. وعلى الرغم من أنك قد بلغتَ سِنَّ الرُّشْدِ فإنكَ لا تزالُ طفلَ أُمِّكَ. استمعْ إلى نصيحتِها و استشرْها فى كلِّ ما تنوى القيامَ به. أنتَ الآن عمدةُ هذه الأسرة. اشْمَلْ أُخْتَيْكَ بعنايتِكَ و ابذُلْ كلَّ جُهدِكَ من أجل أن تَحْظَى كلٌّ منهما بزواجٍ حافلٍ بالبركة والاحترام.

فجلسَ صديقُ ينتظرُ أن يُفْرِغَ أبوه جعبةَ كلامِه. لقد أصبحَ مُحِبًّا ومحترمًا له منذ بضعة الأشهر المنصرمة كما أصبحَ

تَوَّاقًا إلى مسامحته كلَّ ما ارتكبَه فى حقِّهم من الأخطاء. ومما يُؤْلِمُه بشدَّةٍ أنه كانَ غائبًا عندما كانتْ حاجتُه تشتدُّ إليه.

ثم مضى قائلاً:

- إنَّ مما يبعثُ على الغرابة مِن خِصَالِ أُمِّكَ أَنَّها لا تَسْتَزِيدُكَ إذا أعطيتَها. ومِنَ المُؤْسِفِ أنَّ الأوانَ قد فاتَ. و ليس فى قدرتى أن أُعَوِّضَها عَنْ تَضْحِيَاتِهَا. ولكن، عِدْنِى يا صديقُ أَنَّكَ ستَشْمَلُها بعنايتِكَ إذا رَحَلْتُ عنكم.

فقال صديقُ وهو يُحْمَلِقُ إلى الجدارِ:

- يا أبتِ، لا تَقُلْ ذلك.

- يا صديقُ، لقد كنتُ أُفكِّرُ فى الحياة. و يبدو لى أنَّ ما نَتَعَلَّمُه عن الأخلاقيَّةِ أقلُّ من حقيقتِها. لا يكفى أن يكونَ المرأُ مُجَرَّدَ صَالِحٍ. بل يجبُ – إلى جانب ذلك – أن يكونَ حكيمًا. أريدُ منكَ أن تكتشفَ حقيقتَكَ قبلَ فواتِ الأوان. وعِشْ حياتَك كما يَحْلُو لَكَ.

- يا أبتِ، لقد قُلْتَ ما فيه الكفايةُ. لولا تركنُ إلى النَّوْمِ. لم تَخْدَعْ بعينيكَ نعسةٌ منذُ ليالٍ. ولا يَخْفَى علىَّ أنَّكَ مُرْهَقٌ.

- لا يا صديقُ، إنَّ لى سعةً من الوقت للنَّوْمِ مِن ذِى قِبَل. ليس هناك شيءٌ أَحَبُّ إلىَّ الآن من أن أكونَ يَقِظًا. اركنْ أنتَ للرَّاحَةِ. أريدُ أن أختلى بنفسى لكي أُفَكِّرَ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَنِ.

فاكتشفتْ عائشةُ أنَّ جُسْمَانَه باردٌ وعدمُ الحياة بعد ثلاثين دقيقةً عندما رَجَعَتْ إليه لِتُبْلِغَهُ عقاقيرَه. فارتمتْ على جسدِه صارخةً. فهُرِعَ الأولادُ إلى الغرفة تَبَعًا للصَّرْخَةِ.